

المنهج العرفاني ودوره
في معرفة الله



السيد عباس نورالدين


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الله في العرفان

السيد عباس نورالدين

مركز باء للدراسات

[redacted]

[redacted]

الطبعة الأولى - بيروت - 2014
بيت الكاتب للطباعة والنشر

www.baa-center.com
009611477233
76862741



المنهج العرفاني ودوره في معرفة الله



السيد عباس نورالدين

مركز باء للدراسات



تقديم

"الحَمْدُ لله الَّذَي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ، وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ المُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ".



تقديم

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماوات وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾

تجربة المعرفة بين الواقع والكتب

من التوفيقات الإلهيّة في حياتي أنّني خضتُ كثيرًا في مجال الأبحاث العقائديّة تحقيقًا وتعليمًا. وقد كانت هذه التجربة الممتدّة على أكثر من ثلاثة عقود كفيلة بملاحظة طبيعة التجربة المعرفية التي يعيشها المسلم المتعلم المهتم بدينه على صعيد معرفة الله من خلال التعلّم والمطالعة؛ فوجدتها تجربة مقيّدة إلى حدّ كبير بتجربة أخرى عاشها أهل الفكر الإسلاميّ على مرّ العصور. لهذه التجربة المهمّة ميزة أساسيّة أودّ أن أشير إليها نظرًا لدورها الكبير في صياغة أفكارنا حول الله. وهي أنّها كانت في معظمها جدليّة دفاعيّة، فخرجت دون المأمول منها.



لقد ابتُلي المجتمع الإسلاميّ بعد وفاة رسول الله ﷺ بحالة من تخبّط القيم أدّت إلى افتقاد الرؤية الواضحة لمنظومة القيم الإسلاميّة الأصيلة. فقد جُعل الجهاد والفتح ـ الذي يُعدّ وسيلة ـ أولى من طلب العلم الذي يُعدّ ثمرة وغاية لوجود الإنسان في هذا العالم.

وبالرّغم من أنّ المجتمع الإسلاميّ الفتيّ لم يتنكّر لقيمة معرفة الله التي تقع على رأس المطالب العلميّة، إلّا أنّ عدم الالتفات إلى موقعيّة هذه القيمة في المنظومة التي تبنّاها هذا المجتمع نتيجة وصول عدم المؤهّلين إلى السّلطة أدّى إلى الإطاحة بها وجعلها نسيًا منسيًّا. فما كان هدفًا للبعثة النبويّة الشّريفة، أضحى وكأنّه قد تمّ وفرغ منه.

تقلّص الاهتمام بمعرفة الله إلى الدّرجة التي جعلت أمير المؤمنين عليه السلام بعد رجوعه إلى منصب قيادة المجتمع الإسلاميّ يتأوّه كثيرًا جرّاء إعراض المسلمين عن العلم والمعرفة. واستطاع تيّار القتال والجهاد من أجل الفتوحات والغنائم أن يتقدّم ويتغلغل في كل نواحي حياة المسلمين، فارضًا بذلك أولويات أخرى على قادة المشروع الإسلاميّ الإلهيّين. وهكذا، لم يعد بالإمكان نشر ثقافة معرفة الله وترسيخ قيمتها الحقيقيّة بين المسلمين المنشغلين بأفعال السّلطات الحاكمة؛ هذه الأنظمة التي جعلت الدّنيا والعلوّ فيها هدفًا وقيمة رائجة.

اضطرّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين امتلكوا القدرة الكاملة على توجيه المجتمع المسلم نحو الغايات الإلهيّة إلى السّعي

الحثيث للحفاظ على القواعد والأصول التي يمكن الانطلاق منها لتحقيق الأهـداف المعنويّة الكبرى. وكانت القواعد والأصول الأساسية عبارة عن:

1. وحدة المجتمع المسلم

2. حفظ القرآن وقداسته.

3. موقعيّة الإمامة الإلهيّة في حياة البشريّة.

فالمجتمع الذي يفتقد إلى هذه الأركان لن يتمكّن من تشكيل تجربة معرفيّة مهتدية؛ وفي ظلّ غياب أي ركن من هذه الأركان ستكون جميع التحرّكات العلميّة في خدمة الطّاغوت وعاملا أساسيا لبثّ التفرقة والتشتّت.

إنّ من يدرس التجربة العلميّة للمجتمع المسلم بعد رسول اللهﷺ يدرك جيّدًا معنى ما ذكرنا. ويعلم كيف أنه في ظل حكومات الطّاغوت ستكون كل فعاليّات المجتمع المسلم حتى الخيّر منها سعياً حثيثاً على طريق الضلالة والانحراف.

وما أجمل الحكمة العلويّة التي تختصر المشهد هذا. فأمير المؤمنينعليه السلام يقول: "الولايات مضامير الرّجال". والمضمار هو الطّريق الذي تسير عليه أنشطة البشر في المجتمع ضمن سباق محدّد. وتكون تبعيّة أبناء هذا المجتمع للولاة والحكام عبارة عن رسم هذا المضمار وشقه. وفي هذه الحال سنعلم مسبقًا ما هي نتائجه ونهايته.



لا يمكن للمجتمع الذي يسير وراء حاكم دنيويّ أن يتسابق في مضمار الخيرات فضلا عن تشخيصه ومعرفته. فكيف بمعرفة الله التي تُعدّ غاية الخيرات.

ومن المتوقّع دومًا في ظلّ الحكومات الدنيويّة أن تحصل الفرقة وتنشأ المذاهب والتيّارات. لأنّ الكتاب المقدّس الذي يمثّل مرجعية رئيسية لحل خلافات هذا المجتمع سيتعرّض لتأويلات مختلفة من أجل تأمين مصالح السّلطة الحاكمة.

إنّ نشوء الفرق وما يتبعه من نزاعات فكريّة سيفرضان جداول أعمالهما الخاصّة على الحركة العلمية والمعرفية في أي مجتمع. كما أن نشوء الفرق أمرٌ حتميّ لوجود سلطة تتناقض في مضمونها وطبيعتها مع روح القرآن التوحيدية الجامعة.

فتشكّل العديد من المذاهب (الفقهيّة والعقائديّة) قد وقع كاستجابة تلقائيّة لحاجة السّلطة لتثبيت شرعيّتها في مجتمع يدرك جيّدًا أهميّة المشروعيّة الدينيّة ودور القرآن الكريم في إضفائها ومنحها.

ولهذا احتاجت السلطة إلى القرآن من أجل تبرير وجودها ودورها. فنشأ بسبب هذا تحالف قويّ بينها وبين طبقة من أهل العلم ومؤوّلي القرآن. وأضحى الحديث عن الله وبقيّة الأصول الاعتقاديّة والقضايا الفكريّة الكبرى منسجماً مع السّياق والمضمار الذي رسمه الحكّام. وأدى ذلك إلى رواج سوق النزاعات الفكرية والجدالات العقائدية التي اتّخذت لنفسها فخرًا عنوان الكلام. وعندها صار الله موضوعًا للكلام بدل أن

يكون موضوعًا للشهود والتجربة الروحيّة الكبرى!

وفي الوقت الذي كان أئمّة الدّين والعارفون الحقيقيّون بالله منكبّين على الحفاظ على تلك الأركـان التي تحفظ الرّسالة إلى زمن القطاف الواقعيّ، كان المجتمع الإسلاميّ يقع ضحيّة تلك التيّارات التي أساءت لقداسة قضيّة معرفة الله أشدّ الإساءة. وبدل أن تكون معرفة الله قيمة عظيمة في حياة الفرد المسلم يصبو إلى معايشتها في كلّ تفاصيل حياته، صارت هذه القضيّة مثار فتن ونزاعات وحروب وعداوات.

وبانحسار القضيّة الأولى من حياة هذا المجتمع المنكوب، تراجعت منظومة القيم كلّها وانحسرت لصالح قيم الدنيا والفجور والتسّلط والاستعلاء والعداوات والتكفير؛ وفقد المجتمع المسلم عزّته، وصار ينتظر من يغزوه في عقر داره.

وعندما غزا الأوروبيّون الرّوم بلاد المسلمين في العصر الحديث، كان هؤلاء المسلمون يعيشون حالة من الإنهاك التّاريخيّ المزمن الذي شمل كل نواحي حياتهم. فاستسلموا لكلّ وافد مهما كان غثًا. وبسرعة تشكّلت بينهم التيّارات الإلحـاديّـة والعلمانيّة لتسيطر على حياتهم السياسيّة والاجتماعيّة. ولولا بقاء الكتاب ومن يحفظه من جهة، وهشاشة الباطل الغربي وبشاعته من جهة أخرى، لما بقي بين المسلمين من يؤمن بالله أحد.

وعلى وقع هول ما جرى ويجري تصدّى بعض مفكّري الإسلام لهذا الغزو العقائديّ (الذي عدّ أخطر غزو عرفته بلاد



المسلمين طوال تاريخها)، وقاموا بمواجهة تلك التيّارات التي استهدفت كل الجّذور العقائديّة للإسلام، وعلى رأسها قضيّة التّوحيد ومعرفة الله تعالى.

إلّا أنّ الطّبيعة الجدليّة للتراث الفكريّ العقائديّ الإسلاميّ الذي نهل منه هؤلاء المفكرون عادت مجدّدًا لتصبغ أسلوب المواجهة هذه.. وهكذا وجدنا أنفسنا ننجرّ مرّة أخرى إلى سلوك طريق ما كان ينبغي أن نسلكه منذ البداية. وعدنا لنغرق في مستنقعٍ لا نكاد نرى منه وجه الحقّ إلّا قليلا.

العرفاء وحدهم ـ وعلى مر التاريخ الإسلامي ـ أدركوا عظمة القرآن، وعاشوا تجربة روحيّة وذهنيّة غنيّة مع معرفة الله وآياته. وقد تركوا لنا تراثًا نأى بنفسه عن الجدال والنّزاع إلى حدٍّ كبير. لكن عزلتهم عن متن المجتمع ـ لأسباب لا مجال لذكرها هنا ـ أبقت تراثهم العظيم غريباً عن تجربة تديّن المسلم العادي، وتجربة المواجهة الفكريّة الضروريّة. بل وجدنا تراثهم ـ بسبب هذه العزلة ـ يكاد يقع في أيدي غزاة الفكر ويوشك أن يتحوّل إلى أداة بأيدي المستعمرين الجدد.

كان العرفاء ـ كما اشتهرت تسميتهم ـ ينتجون مكتبة كبيرة في مجال معرفة الله اتّسمت بالاستقلاليّة وبالبعد الرّوحيّ العجيب؛ وكان هذا التراث يزداد غرابة مع تقادم الزّمان وابتعاد المسلمين عن روح القرآن ومضامينه المعنويّة العظيمة. فاشتدّت العزلة واستحكم الطّوق حول هذا التّراث من جميع الجّهات، وصار كمن قد نُسي حيث لا حضور له إلّا

في نطاقات ضيّقة تكاد لا تبين.

ثمّ قيّض الله تعالى لعارف كبير في زماننا هذا أن يحوز على أعلى منبر اجتماعيّ يمكن أن يصل إليه عالمٌ؛ فحطّم الكثير من القيود التي كبّلت التجربة العرفانيّة الثريّة. وفتح على العالمين ـ ولأوّل مرّة في تاريخ البشريّة ـ أبواب معرفة الله بعيدًا عن التّجارب الضيّقة البغيضة التي عاشتها على مرّ العصور.

استجاب الكثيرون لروح الله وأقبلوا على العرفان وبدؤوا بالتعرّف على كنوزه العظيمة، لكنّهم واجهوا العديد من العقبات منعتهم من إكمال المسير.

فهناك العداء التقليديّ لكلّ مجهول، على قاعدة: "النّاس أعداء ما جهلوا". وهو ليس بالعداء القليل. لأنه قد تسلّح بقرون من الإشاعات والأكاذيب والجهالات والإساءات.

وهناك الذهنيّة الجديدة التي أضحت بعيدة عن الاهتمام بقضايا العرفان.

وهناك اللغة الخاصة التي صارت غريبة عن واقع حياتنا اليوميّة.

هذه العوامل وغيرها وقفت أمام المدّ الخمينيّ العرفانيّ وواجهته بقوّة وحدّت من تقدّمه كما أراد هذا العارف الكبير. وها هو بعد انتصاره العظيم يجد نفسه مضطرًّا لإلغاء دروسه



العرفانيّة التي كان يبثّها عبر التلفزيون الإيرانيّ من أجل الحفاظ على الأركان السّابقة.

لم يكن تراجع الإمام الخميني هزيمة لهذا التيّار المعنويّ المتدفق. وإنّما هو إعادة تموضع تتطلّب من المهتمّين أن يدركوا مسؤوليتهم الكبرى في الحفاظ على هذه الشّعلة، حتّى تتحقّق الظّروف المناسبة ليصبح العرفان تيّارًا عامًّا في المجتمع الإسلاميّ، يتسابق النّاس فيه لينالوا أعلى الدّرجات ويبلّغوا أسمى المقامات.

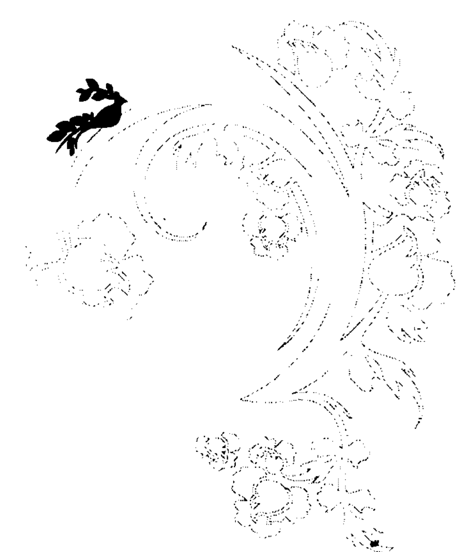
نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يحملون هذه الشّعلة، وينقلونها إلى الأجيال الآتية؛ ونسأل الله تعالى أن يوفّق سماحة الإمام المفدّى الذي يقود مسيرة المجاهدين على طريق تحقيق ذلك المجتمع الذي وصفه قائلًا:

"عندما يتشكّل هذا المجتمع، فإنّ أهم مسؤولياته أن يتمكّن الناس، في ظل هكذا مجتمع وهكذا حكومة وهكذا أجواء، بأن يصلوا الى الكمال المعنوي والكمال الإلهي، حيث "ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، أن يصل الناس الى عبودية الله. لقد فُسِّرت "ليعبدون" بـ "ليعرفون". وهذا لا يعني بأن "عَبَدَ" تعني "عَرَفَ" وبأن العبادة تعني المعرفة، كلا، بل تعني بأن العبادة بدون المعرفة لا معنى لها، ليست ممكنة وليست عبادة. بناءً على هذا، فإنّ المجتمع الذي يصل إلى العبودية لله، يكون قد وصل الى المعرفة الكاملة بالله ووصل للتخلق بأخلاق الله، وهذا هو نهاية الكمال الإنساني، وعليه

فإنّ الهدف النهائي هو ذلك الهدف، والهدف الذي قبله هو إيجاد المجتمع الإسلامي، والذي هو هدف كبير جداً وعالٍ جداً." [2011/10/18]

والحمد لله ربّ العالمين

بيروت. 16 رجب. 1435هـ



"الحمد لله الباسط ببهائه على سكان الملك والملكوت، والسّاطع بسنائه على قطان الجبروت واللاهوت. تجلى من غيب الهويّة بجماله الأجمل، ولا حجاب له إلاّ جلاله، واختفى في ظهوره الأظهر، ولا ظهور لشيء إلاّ جماله. ظهر بذاته من عين الجمع في مجالي صفاته، وبصفاته من الكنزية المخفية في ملابس آياته، وعنده مفاتح غيب الأرواح وشهود الأشباح، فسبحانه من إله صعد إلى السماء العليا وهبط إلى الأرض السفلى، وهو الذي في السّماء إلهٌ وفي الأرض إله، وقال صلى الله عليه وآله: ولو دليتم إلى الأرض السفلى لهبطتم على الله."

[شرح دعاء السحر]

كمال الانقطاع إلى الله

هو أرقى وأعلى ما يصل إليه الإنسان

وهو عبارة عن التوجّه المطلق إلى الذّات الأحديّة للربّ الأعلى

وهذا هو التوحيد الخالص الذي يتجلى في درجات ثلاث

وإنما يتحقّق بشهود الحضرات الإلهيّة

في سفر حتمي نعبر به عوالم الوجود

بنفي الكثرة بعد تجلّي الربّ بأسماء الجلال

وبالانجذاب إلى الوحدة بتجلّي أسماء الجمال

حتّى الوصول إلى الاسم الأعظم والتجلّي الأكرم

فيصبح التكبير بمعاينة الحقيقة بعد أن كان بالحقّ مسبّحاً

على صراط مستقيم هو صراط المنعَّم الكامل شريك القرآن

ولا يتدرّج في الحضرات إلّا من عرف نظامها المستودع في الأسماء

ولكي يتحقّق ذاك التوجّه المطلق، فلا بدّ من السير بقدم المعرفة

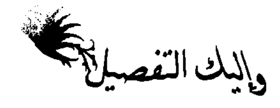
حتى تخبرك المعرفة عن عجزك فيحصل الوصال المطلق

فكلّما أوصلتك المعرفة إلى عجز في المقام، فاعلم أنّها من لدن الحكيم

هناك حين أدركت الكمال الأعلى

فسبّحته عن نقصك وسبّحته في العوالم

هذا هو السرّ مجملاً



وإليك التفصيل





هو إدراك فوق المعرفة

وشعور فوق المشاعر

لا تخبره إلّا بعد العجز عن المعرفة

ولا يحصل العجز عن المعرفة إلّا بعد كمال المعرفة

وكمال المعرفة إدراك حقيقة الأشياء

وحقيقة كلّ شيء هي ما فوقه

فمع كلّ إدراك تزداد وجوداً وكمالاً

حتّى تدرك ما يكون فوق المعرفة

كمال الانقطاع إلى الله

هو أن تشعر بوجوده بكلّ وجودك فلا يشغلك عنه شاغل

من ظلمة أو نور أو كثرة أو وحدة

وهذا هو مقام الذّكر

وأوّل اسم اختاره الله لنفسه هو العليّ

ليُعلم أنّه الأعلى

فقد علا على كلّ شيء دونه

وما ثمّة شيء سواه

كمال الانقطاع إلى الله

يعني أن لا ترى في الدّار غيره ديّاراً

فما ثمّة موجود سواه

والكلّ إشعاعات وجوده

فليس من كلّ أو واحد

لأنّك لست واحداً في مقابله

وكمالك منه، بل الكمال له

وفعلك فعله فما رميت إذ رميت لكنّ الله رمى

فإذا تدرّجت في هذه المعرفة فعلاً وصفةً وذاتاً

بلغت كمال الانقطاع

كمال الانقطاع إلى الله

يعني أن تفني أفعالك في فعله

فتدرك التوحيد في الأفعال

حيث لا مؤثّر في الوجود إلّا الله

ثمّ تفني صفاتك في صفاته

فتدرك التّوحيد في الصّفات

حيث لا كمال إلّا للّه

ثمّ تفني ذاتك وإنيّتك في ذاته

فتعلم أنّه لا إله إلا الله

وهو التوحيد في الذّوات

حيث لا موجود إلّا الله

بل الوجود كلّه هو الله

وإنّما نحن إشعاعات وجوده

في وجودنا الذي لم ندركه

لا في نقائصنا التي لا نعلم سواها

ولهذا كان توحيد الخواص

كمال الانقطاع إلى الله

حاصل عند الله بالأمر الواحدة

الذي هو كلمح للبصر بل هو أقرب

فلا تدرّج ولا حدثان

لأنّه غالبٌ على أمره لا يغلبه

ومشيئته ماضية لا يمنعها مشيئة

وإليه منقادة

وإنّما هي مدّ ظل، لا شكّ يفيء إليه

فالكلّ إليه راجعون

كمال الانقطاع إلى الله

اقتضى أن يكون كمال القطيعة

فخلق الله أسفل العوالم متدرّجاً

من أعلى عليّين

وأودع في كلّ عالم حضرة تدلّ عليه

وصار كلّ عالم وحدة وكثرة

وحدة تدلّ عليه وتتصّل به

فهي حبل وصاله

وكثرة تحجب عنه

فهي سبب انفصاله

فمن عبر العوالم بشهود الحضرات

متجلّية بالتوحيد

بعد نفض غبار الكثرات بتلك الفناءات

نال كمال الانقطاع



كمال الانقطاع إلى الله

يحصل انقطاعاً بعد انقطاع

وليس الانقطاع إليه إلّا بعد الانقطاع عمّا سواه

ولا يكون الانقطاع إلّا به

فإذا تجلّى بالجلال على أصقاع الجبال

فاندكّت جبال الأفعال والصّفات والذّوات

وحصل بعد كلّ جلال جذبة جمال

بظهور وجهه الكريم

على منصّات التوحيد في الحضرات

ارتقى في مراتب الانقطاع

حتّى يبلغ كماله

كمال الانقطاع إلى الله

أعظم منّة إلهيّة

لا تُنال بالاستحقاق

فكل منّه قديم وسابق على كل خلق

ولا يكون إلّا بقهر الجلال

وجذبة الجمال

عالماً بعد عالم

وحضرة بعد حضرة

كل حضرة تشهده شيئاً من الجمال

حتى يبلغ في الجمال غايته

وكل عالم يشهده شيئاً من الجلال

حتى يبلغ في الجلال غايته

هناك حيث لا يكون الجلال ساتراً ولا الجمال

هناك حيث الجمال عين الجلال

هناك الاسم الأعظم

حيث كمال الانقطاع



كمال الانقطاع إلى الله

لا يكون إلا بتكبير الله عن كل شيء

فالله أكبر من وصف الجلال

وهو أكبر من أن يوصف بالجمال

ولهذا كان اسمه الأعظم الذي هو فوق كل وصف

لأنّه جمع كلّ الأسماء ونفاها في حضرة الذّات

فإذا بلغت مقام الاسم الأعظم

بتربية الجلال والجمال

سائراً من الكثرة إلى الوحدة

ومن الوحدة إلى الكثرة بالوحدة

فيمكنك أن تكبّر الله على الحقيقة

لأنّك أدركت كمال الانقطاع

كمال الانقطاع إلى الله

يتطلّب منك سبحاً طويلاً

في عوالم الوجود ومراتبه

حينما ترى النّقص بشهود الكمال

فتنزّه الحقيقة عن نقصك

الذي نسبته إليها وتسير

وما دامت مسبّحاً فأنت سالك

حتى تكبّر الله عن تسبيحك

هناك الكمال الذي لا يُرى معه أي نقص

هناك الاسم الأعظم

هناك كمال الانقطاع

كمال الانقطاع إلى الله

هو الوصول إلى المنقطعين

الذين عبروا العوالم، وصار وجودهم حضرات وجوده

وسمعوا في قاب قوسين مناجاة السرّ

فصعقوا وأفاقوا

وشاهدوا كلّ شيء منه جميلاً

وأحبّوا كلّ شيء لحبّه

فلم يطيقوا الغير والغيريّة

ولا الكثرة ولا القطيعة

وعلموا السرّ في المناجاة

حين سمعوا مقارعة الذّات

فحملوا السرّ ونزلوا به إلى أسفل سافلين

عسى أن يُرجعوا كلّ شيء إلى أصله

حيث كمال الانقطاع



كمال الانقطاع إلى الله

لا يكون إلّا بمعونة المنقطعين

الذين صار وجودهم عين المراتب

فأينما احتجنا إلى نور التوحيد

أضاؤوا

وأينما غشيتنا ظلمات الكثرة

أناروا

لأنّهم أهل الذكر فصاروا هم الذّكر

ومن ذكرهم فقد ذكر الله

وهم المسبّحون إلى ذاته

حيث كمال الانقطاع

كمال الانقطاع إلى الله

لكي تتدرّج من أسفل سافلين

الذي هو عالم الطبيعة الدنيا

وترتقي إلى أعلى عليين

حيث كمال الانقطاع

لا بدّ لك من المعرفة والعلم

فلن يكون العالم عالماً بالنسبة لك

إلّا إذا صار معلوماً لديك

ولن تبلغ شهود حضور الله فيه

إلّا بالعجز عن معرفة كنهه

حينما يتجلّى الرّب لك في عالمك

فيكون كل شيء



فأنت سالك بقدم المعرفة

ولن تعرف الله إلّا بالعجز عن معرفته

حين تدرك تجلّياته في العوالم

وتعلم أنّه أكبر منها

حين يجذبك بنور الفطرة إلى ذاته

فلا تعلم كنه حقيقته

لكنّك لا تشعر إلّا به

هناك كمال الانقطاع

هذا هو السرّ مفصّلاً

وإليك تفصيل التفصيل



"مَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ ،وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، [وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْه]وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْه فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلامَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ".



نحو معرفة الله: خارطة الطريق

نحو معرفة الله: خارطة الطريق

إذا كنّــا نبحث عن كلمات تعبّر عن ما يبلغه الإنسان عند وصوله إلى غاية سيره التكامليّ، فإن ذاك الشّعور الذي لا يخطر على قلب بشر، أو ذاك الإدراك الــذي يشعر معه بلذّة أو سعادة لا تضاهيها سعادة، قد يقرّبنا إلى المعنى شيئاً ما.

إنها تلك اللــذّة التي تحصل من جرّاء وعينا لجوهــر الوجود وتوجّهنا إلى حقيقة الاتّصال به؛ لأنّ هذا الجوهر هو منبع كل الكمالات وأصل كل الخيرات ومعدنها. وكيف لمن كان غارقاً في مستنقع الأوهام أن يصف هذه اللذّة، وهل بإمكان من غفل عن هذه الحقيقة أن يعرف معناها؟!

فمــن اتصل بالوجود المطلق عن توجّه ووعي، وعاش هذا الذكر بقلبه ولبّه لن يشغله شعور بشيء دونه، ولن يحجبه عنه أي شيء سواه. وهذا هو الذّكر الحقيقيّ، بل حقيقة الذكر. فمعدن العظمة مستول والذاكر لا يتوهم لنفســه وجوداً ولا لغيره معنى. وإنما صارت كل الأشياء أشعّة ذاك الوجود المطلق الصرف.

ولأنّــه ما ثمّة مذكور عند هذه الحقيقة إلّا شؤونها الذاتية، من الأسماء

الجماليّة والجلاليّة المتشعشعة من شأنها الأعظم وتجلّيها الأتمّ الأكرم، فإذا ذكرتها على الحقيقة، بذهولك وغيبتك عن أوهامك وأباطيلك، ذكرتك على الحقيقة، كما وعد في كتابه (اذكروني أذكركم).. وهو التعبير عن صيرورتك متحقّقاً باسمه الأعظم؛ لأنه لا يليق بالذّكر عند الله تعالى إلّا شأنه الأعظم.

وإنّما يذكرك إذا كنت مظهر هذا الاسم. ولذلك خُلقت.

وأنــت لا تدري، فلعلّ عاقبة أمرك هي كمال الانقطاع هذا. فأنت عنده مذكورٌ ولا تدري!

وليس لك من طريق لتعرف حقيقــة أمرك إلا أن يعرض عليك تجلّياته الأخــرى الأدنى، فإذا اشحت بوجهك عنها مولّياً شطره، فاعلم أنّك سائرٌ إليه.. ولأنّه لطيفٌ بعباده، فقد أعدّ وهيأ لك كلّ أنواع التجلّيات ومراتبها.



" سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ."



غاية الله:

ظهور الكنز المخفي

غاية الله: ظهور الكنز المخفي

إنّ البحـث عن معنى "غايـة أي موجود" يصبح جديـراً إذا كان هذا الموجود عالماً - أو قابلاً للعلم - ومريداً ومختاراً. وفي غير هذه الصورة، فإنه يستحسن أن نقول أن غايته تكون لغيره. فما لم يتصف بالإرادة الذاتية، كان تابعاً لإرادة غيره؛ فلا غاية له بذاته!

كما أنّ الغاية قد تتعلّق بذات الشيء أو صفته أو فعله. فيقال غاية الذات أو غايـة الفعل. وإن كانت الصّفات ليست سـوى تجلي الذّات أو تكشف عنها. وكذلك الأفعال إنما تُظهر صّفة ما أو تكشف عن غايتها.

إن معرفة الغاية هي أفضل وسيلة للتعرف إلى ذات الشيء، لأنّها أفضل ما يعبّر عنه. ولو تعرّفنا على أحد ما، ولم نتعرّف على غايته فكأنّنا ما عرفناه؛ لأنّها روح كل ما يتصف به من خصائص وسمات والموجّه الواقعيّ لها.

فلو نظرنا إلى القدرة مثلاً، لشاهدنا جمالها فقط عندما تنطلق في عملها من دوافع جميلة؛ وكيف أن جمالها يختفي أو ينعدم، عندما يُعملها صاحبها لغايات قبيحة.

ولعلّ الإعراض عن البحث حول غاية الله هو الذي يسد طريق إدراك

جمال الصّفات الإلهيّة ويجعل الحديث عنها جافّاً. ولعلهم ظنّوا أنّ معنى تحقق الغاية أو وجود هدفية يستلزم دوماً الانفعال بالغير أو حدوث أحوال وطرّ وصفات بعد العدم؛ وهي حالات لا تنسجم مع معنى الألوهيّة وحقيقة الغنى الذاتيّ والقِدم الأزلي!

لكن جمال المشهد الإلهيّ كلّه يعتمد على فهم معنى الغاية بالنسبة لله تعالى؛ وبدون هذا الفهم سنبقى محرومين من أهمّ المعارف الرّبوبيّة. وسيتحوّل مـا نفهمه حول الـرّب العظيم إلى مفهوم جامـد؛ لا بل سيكون في نظرنا موجوداً منفعلاً بغيره!. وهذا يعني أن ما كنّا نفرّ منه قد وقعنا فيه من حيث لا ندري.. وتُعدّ هذه المسألة كقاعدة ثابتة بشأن الله سبحانه. فالانحراف في الفهم يعني الخطأ والتقصير بحقه. والجاهل فيه ليس معذوراً. وكيف يكون معـذوراً، وقد تجلى الحق لخلقه في كل الأشياء، وأبان لهم الطريق إليه عند كل منعطف..

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ للّسان والتكلّم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتـب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مـع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتـب الوجود. وحيث أنّ الحمد في كل مورد على الجميل والمـدح على الجمال والكمال، فالحقّ جلّ وعلا بحسب علمه الذاتيّ شاهدَ جماله الجميل في حضرة غيب الهوية بأتمّ مراتب العلم والشهود فكان مبتهجاً بذاته الجميلة بأشدّ مراتب الابتهاج." [معراج السّالكين].

إنّ الابتهـاج (الذي ندرك معناه حضوريّـاً لأنّنا نعيشه ولو لم نستطع تعريفه مفهوماً) هو حصيلة إدراك الكمال. فاتّصال الذّات العالمة بكمالٍ ما هـو الذي يبعث على الابتهاج. وإذا كان هذا الاتّصال حادثاً، فإنّ الابتهاج سيكون مثله. أمّا إذا كان الاتّصال قديماً (بمعنى أنه لم يحدث بعد أن لم يكن)، فإنّ الابتهاج به لا يمكن أن يتّصف بالحدوث.

ولأنّ كمـال ذات اللـه تعالى لا ينفصل عنها، فإنّ ابتهاجه به لا يكون طارئاً أو حادثاً أبداً. ولأنّ كمالاته هي عين ذاته، فإنّ الابتهاج الإلهي بكماله ليس انفعالاً للذات بغيرها حتى يستلزم النّقص أو الاحتياج.

أجل لو ابتهجنا ـ أي انفعلنا ـ من ظهور غيرنا بكمال ما، فإنّ هذا منشؤه الفقدان والنقصان. لكنّ الحـقّ تعالى لا يمكن أن ينفعل بغيره، لأنّه ما ثمة كمال لغيره، بل لا معنى للغير والغيرية مقابل الألوهيّة. فوجود أي شيء آخر غيره في مقابله يعني أنّه سبحانه بات محدوداً. والمحدود ناقص، والنّاقص معلول لغيره ومخلوق؛ تعالى الله عن ذلك علّوًا كبيرًا.

أما لو فرضنا حصول الانفعال بالذّات في صقع الذات، فأين الإشكال؟ ولماذا قد يستلزم نقصاً في الذّات؟!.

إنّ الابتهـاج الحاصل من إدراك الكمال هو كمال بحد ذاته. والخلوّ منه في أي ذات عالمة يعد نقصاً فادحاً. فالابتهاج بما هو هو ـ وبمعزل عن أسبابه ـ صفة كماليّة للشيء. فلو سلبناه عن الله تعالى، لكنّا ممّن ينسب إليه أسوأ النّقائص وأقبحها.

أمّا الغاية فلا تعني أكثر من وجود تفسير منطقيّ وحكيم لوجود الشيء أو لاتّصافه بصفة مـا أو لصدور فعل معين منه. ولأنّ المنطق الوحيد وراء وجود الممكن الفقير النّاقص أو صدور الأفعال منه هو: السّير إلى الكمال أو التحقق به، فقد ارتبط مفهوم الغاية عندنا بمعنى الانتقال من النّقص إلى الكمال. وبتنا عندها أينما ذُكرت الغاية نتصور حركة انتقالية من النقص إلى الكمـال. وعندمـا قمنا بقياس الحقّ تعالى علـى الموجودات المحتاجة والحادثة، نفينا عنه الغاية، حتى لا ننسب إليه النقص والاحتياج. إلا أننا لو تأملنا قليلاً لوجدنا أننا نلغي أي منطق لوجود الله أو فعله، ونصبح كالذين قالوا: لو جاز على الله العدم لما ضرّ العالم!!

وعليه، فإنّ معنى الغاية لا يستلـزم الانتقال ولا التحوّل أو التبدّل. بل يعني تلك الرّابطة المنطقيّة بين ذات الشيء وفعله. وبالنسبة لله تعالى، فالغاية تتجلى عندما نتمكّن من ربط أفعاله كلّها ـ التي يعبّر عنها بالفعل المطلق والأمر الواحـدة ـ بذاته الغنيّة بالذّات ربطاً منطقيّـاً؛ ونفهم بالتالي، معنى صـدور الفعل من الذّات الغنيّة ومعنـى الإيجاد أو الخلق ممّن هو غني عن الخلـق والايجاد. ونبتعد عن أي تفسير يؤدّي في النّهاية إلى الجهل بشأن الله، مع ما يستلزمه هذا التفسير من أخطاء بحقّه سبحانه.

وإذا عرفنـا أنّ الغاية الإلهيّة لا تستلـزم الانتقال والتحوّل والتّكامل في الذات، صار بإمكاننا أن نربط بين غاية الفعل الإلهيّ والذّات الفاعلة انطلاقاً مـن معرفة الذّات. فغاية الفعل وسـره سيظهر، وسنعرف ما هي الحكمة من الخلق والإيجاد إذا عرفنا أهم صفات الذات. ذلك، لأنّنا نتدرّج في المعرفـة، بسبـب غيبتنا عن الذّات، من معرفة الفعـل إلى الصّفة إلى الـذّات. فتكون الآثار في البداية بالنسبـة للمحتجب دليلاً له إلى معرفة الفعـل الذي نشأت منه الآثار. وإذا عرف الفعل دلّه على الصّفة التي نبع منهـا؛ حتّى إذا بلغ المرتبة القصـوى من معرفة الصفات، حصل له مقام ادراك الاتصال بمعدن الذات، وهو أحد معاني التكبير بقولنا الله أكبر من أن يوصف، وهو كمال التوحيد.

في بحثنا عن الغاية نساعد أذهاننا على هذا الانتقال والتّكامل المعرفيّ، دون أن ننسـب إلى الـذّات مثل هـذا الانتقال والتحوّل. فعندمـا نقول أنّ الصّفات الإلهيّة عبارة عن ظهور الذّات بالكمالات، فلا نعني أنّ الله تعالى عبارة عـن ذات تضاف إليها صفات وكمالات. وعندما نقـول أنّ الأفعال هـي ظهور الصّفات، فلا نعني أنّ الله تعـالى لم يكن فاعلاً في زمن ما ثمّ أصبح فاعلاً! فهـذا الظّهور وهذا التجلي إنما يدركه سالكو طريق الكمال

على التّرتيب الذي أشرنا إليه. ولهذا، فما ثمة تدرّج أو تكامل إلا في حركة المعرفة عند الإنسان المتكامل.

أجـل إنّ الـولي الكامل والخليفة الواصل الـذي كانت بداية خطوات معرفتـه من مقـام "الله أكبر من أن يوصـف"، ولم يكن محجوباً يوماً عن ربّه، واستجاب بالروح والسر لتكبير الأذان الأوّل، فإنّه لا يتدرج في معرفة التجليات من تجليات الفعل إلى الصّفة ثمّ الذّات؛

يقـول الإمام الخميني قدس سره: "فبحسب الفعل المطلق ليس لفعل الحقّ تعـالى غاية سوى ذاته المقدّسة كمـا هو مبرهنٌ في محلّه. واذا نظرنا الى الأفعـال الجزئية أيضا فغاية خلقة الإنسـان عالم الغيب المطلق كما ورد في القدسيـات "يا بن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي".. وفي القـرآن الشريف يخاطب موسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السلام ويقول﴿اصطنعتـك لنفسي﴾ وأيضـا يقول: ﴿وأنا اخترتـك﴾. فالإنسان مخلـوقٌ لأجل الله ومصنوعٌ لذاتـه المقدّسة وهو المصطفى والمختار من بـين الموجودات، وغاية سيره الوصـول إلى باب الله والفناء في ذات الله والعكـوف بفناء الله، ومعاده الى الله ومن الله وفي الله وبالله؛ كما يقول سبحانه في القرآن: ﴿إنّ الينا ايابهم..﴾". [معراج السّالكين].

فيكون المعنى الأقرب للغاية الإلهيّة من خلق الأكوان عبارة عن: ابتهاج الحق بذاته بإدراك كمالاتها وعظمتها المطلقة الظّاهرة في عمليّة الخلق. وقد يعـبّر عن عملية الخلق كلها بالفعل المطلق (الذي هو تجلي المشيئة الإلهيّة المطلقة) التي خلق الأشياء كلها بها.

ولن يكون الفعل المطلق ـ الذي هو خلق الأشياء كلها ـ وكذلك الإيجاد الإلهي العام بذي معنى، إذا ظننا أنه كان لأجل غير ذات الله تقدس وتعالى. لأنّه إذا لم يكن ثمة خلق، فلا غير أصلاً. وإذا لم يكن للأغيار وجود، فلماذا

يخلقهم الله أو يخلق غيرهم لهم وهم في كمون العدم؟!

ففي المشهد العام للخلـق، يكون كل ما سوى الله مخلوقاً لأجل ذات الله. لأنه لا موجود سواه.

وفي المشهــد الثاني، فإنّ الذين اتّصفوا بجميع صفات الكمال، وكانوا مظاهر تامّة لأسمائه الحسنى، أصبحوا بأنفسهم غاية المخلوقات الأخرى. "إنّا صنائع ربنا، والخلق بعدُ صنائع لنا". (نهج البلاغة)

وعليــه، تكون غاية عالم الخلقة (وهو كل ما سوى ذات الله) عبارة عن التحقق بالاسم الأعظم والتجلّي الأكرم، فيكون التحقق عبارة عن الظهور بهذا الاسم؛ لأنّ العالم كله ليس سوى ظهور الفعل المطلق. ولا غاية للفعل الإلهيّ سوى الصّفات، ولا غاية للصّفات سوى مقام الاسم الأعظم الذي هو فوق مقام كثرة الأسماء والصّفات.

وهكذا، إذا فهمنا المعنى الأساسيّ للغاية بأنّها عبارة عن الرّبط المنطقيّ بــين المراتب، فإنّ كل مرتبة عليا ستكون غاية لمن دونها. وإن كانت الذات هي غاية الغايات؛ يقول الإمام الخميني: "اعلم أن لكلٍّ من موجودات عوالم الغيب والشهادة والدنيا والآخرة مبدأً ومعاداً، وإن كان مبدأ الكل ومرجعه الهوية الإلهية". [معراج السالكين]

فتبين مما قيــل أن ابتهاج ذات الحق بكماله، والذي يتحقق بظهوره في مرتبة الاسم الأعظم هو غاية كل تجلي وكل فعل. وما نشاهده من تجليات الاسمــاء والصفات ليس سوى ظهور هذا الابتهــاج الذي يعد من لوازم الــذات المتصفة بالكمال والغنى الذاتي. وإن كل فعل من أفعال الله ليس سوى ظهور هذا الحركة الحبية المعبّر عنها بمقتضى الحب الذاتي. يقول الإمام الخميني: "إعلم ايها الطالب للحق والحقيقة أن الحق تبارك وتعالى لما خلق نظــام الوجود ومظاهر الغيب والشهود بحسب الحب الذاتي بالمعروفية في

حضرة الاسماء والصفات." [معراج السالكين]

فمرجع الكل وغايته هو الذات والهوية الغيبية وإن ظهر لنا في نظام السيرورة والتحول مظهراً ناقصاً. فالكل عنده محبوب: وكل مسائلك إليك حبيبة. وإنما حصل التفاضل بين المظاهر في مشهد العارف وشهود المكاشف. والواحد لا يصدر منه إلا الواحد وظل الجميل جميل. فما ظهر بالنقص فهو من محدودية التعيّن لا العين. وعلى السالك أن يتبرأ من كل نقص وأن يستعيذ من كل شر، حتى يتسنى له شهود الجمال المطلق للمحبوب في كل شيء.

والعلاقة بين الابتهاج والحبّ هي علاقة وثيقة. فما هو مبعث الابتهاج محبوب. ولأنّ الله تعالى يبتهج بذاته التي لها صفات الكمال على الإطلاق، فذاته هي المحبوب عنده ولا غير. لأنّ الغير هو ما يقابل ذات الحقّ تعالى؛ وما ثمة موجود سواه، وكلٌّ قائم به. فهو المحبوب المطلوب بذاته لذاته.

فأيّ موجود ظهر لنا بصورة الغيرية وجهة المقابلة، فإن صورته هذه غير محبوبة عند الله تعالى. أما إذا شهدنا حقيقته، فهذا يعني أننا ادركنا جهة انتسابه إلى أصله؛ وهي الحقيقة المحبوبةُ عند الله حتماً. ولا يتحقق انتساب أي موجود إلى الحقّ تعالى إلّا بواسطة اسمه الأعظم وتجليه الأتم الأكرم.

إن وجود الله تعالى مطلق؛ وعليه، لا يمكن تصور وجود آخر مقابل وجوده المطلق. وكل من كان مظهراً لهذا الإطلاق، فهو محبوب عنده. ولأنّ المظاهر درجات من حيث إظهار الكمالات، فالمحبوبون عند الله تعالى درجات أيضاً. وأحبّ الأشياء إلى الله من لم يكن له من نفسه وفي مرتبة كماله أيّة جهة مغايرة، بحيث لو شاهدناه على الحقيقة لما رأينا فيه سوى العظمة الإلهيّة. وبحسب الأدلة والشواهد فإن النبيّ وآله ﷺ هم المتحققون بمرتبة المحبوبية الكاملة. "إنّ الرّجوع إلى الإنسان الكامل هو

الرّجوع إلى الله لأنّ الانسان الكامل فانٍ مطلق وباقٍ ببقاء الله وليس له من عنـــد نفسه تعيّن وإنّيّة وأنانيّة؛ بل هو نفسه من الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم." [معراج السالكين]

وأبغض الأشياء إلى الله، وأبعدها عن مقام رضاه، من لو شاهدناه على الحقيقة لمنعنا النظر إليه من رؤية جمال الحق تعالى ولو في مرتبة أو درجة من درجاته. وهو إبليس الذي يصنع الحجاب ويصنع الاحتجاب؛ فالشيطان اللعين ليس له من وراء إغوائه سوى جعل كل حقيقة وهماً وكل وهم حقيقة. ومن أجل ذلك كانت حقيقة الشيطنة عبارة عن حب النفس التي تقود إلى الإنية التي هي رؤية ما سوى الله تعالى.

"قــد عرفت أنّ الشيطان هنــا عبارة عمّا سوى اللــه، فاعلم أنّ الكفر بالشيطــان هو اعتقــاد أنّ العالم غيب ما ظهــر قط، وإنّمــا الظاهر هو الله فحسب".[التعليقة على الفوائد الرضوية].

إنّ وجــود الشّيطان في هــذا العالم أمرٌ مهــمٌّ ولازمٌ لإخراج مكنونات النّفوس البشرية؛ وبفعل شرّه الظاهــر يؤجج العداء في هذه النفوس ـ إذا اهتدت ـ تجاه جميع مظاهر الشرّ والنّقص، الأمر الذي يعد من مستلزمات الحركة التّكامليّة التي أرادها الله تعالى للإنسان. كما أنّ وجود الشيطان في جهنّم يمثّل إحــدى وسائل التعذيب الكبرى للكفّار والمنافقين؛ فتتم بذلك الصّورة النارية والحقيقة الجهنّميّة. ولهذا، كان وجوده محبوباً ومطلوباً من هذه الجهة ضمن هذين النّظامين!.

فالنّظام التكوينيّ الأعلى، وهو الجنّة، مستلزمٌ لنظام آخر وهو النّار. وهما مستلزمان لوجود العوالم الدنيا. وإذا كانت فلسفة وجود الدنيا هي الابتلاء والاختبار والتكامل والتسافل، فهذا يعني أنها ستنتهي إلى يوم الفصل لا ريــب فيه: فريق في الجنة وفريــق في السعير. فلا تحقّق للجنّة الكاملة إلّا

بجهنّم الخلد. ولا تحقّق لهما إلّا بوجود العوالم المتدرّجة.

ولكـــي تتحقّق جنّة الخلد، لا بد من وجـــود الإنسان الكامل الذي يعد أعظـــم موجوداتها (بل حقيقة وجودهـــا)، فهي وطنه وله خلقت وبه قامت. فهـــي دار الواصلين إلى الكمـــال، وهي غاية الحركـــة الاستكمالية. ولكي يتحقّق أهلها بالكمال، لا بدّ لهم من طي رحلة التكامل وسفر الكمال. ومثل هذه الحركة الاستكماليّة تحتاج إلى اجتناب النقص والنفور منه والحذر من مظاهره كلها. وليست جهنم سوى ظهور كل أشكال النقص ومراتبه. فهي دار الأشقياء الذين لم يسلكوا طريق الكمال وجعلوا سيرهم باتّجاه الحرمان: قالوا إنا محرومون، ويقول الكافر يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله. ومثـــل هذا التحذّر والاجتناب لا يتحقق إلّا إذا التفت الإنسان إلى بواعث النّـــيران وأسباب العذاب الجهنّمي. وهي هنا عبـــارة عن الصّفات المقابلة للحق تعـــالى وكمالاته (التي تظهر في العقائد الباطلـــة ورذائل الصفات وقبائـــح الأفعال). ومثل هذه الصّفـــات لا تظهر للناس إلا عندما يحصل بينهم التواصل والاحتكاك (وهو روح الحياة الاجتماعية وأساس التواجد في الدنيا). وجميع هذه الحالات والصفات إنما تظهر بفعل الإقبال على الدنيا وطلبها والتوجه إليها. ولا يُقبل الإنسان عليها إلّا إذا كانت مزيّنة له (ذات بهجة ولذة). وهذا هو دور الشيطان وسرّ وجوده.

إنّ دور الشيطان في تزيين كل أشكال الباطل كان واضحاً، ومنذ اللحظة الأولى للاختبـــار الإلهيّ بقوله تعالى: "لا تقربا هذه الشّجرة". وكان حسد إبليس لآدم دافعاً له لأن يزيّن له ولزوجه استحقاق مقام ليس أهلا له، لكي يتجاوز ويعتدي، فيظلم نفسه ويهوي.

وإنّما أهلك إبليس جبلّاً كثيراً من الإنس لإصرارهم ـ رغم معرفتهم أنهم ليسوا مستحقـــين للمقامات ـ على نيل ما زيّن لهـــم. ولو تأملنا في جميع

المعاصي وكل أشكال الفساد في الدنيا لرأيناها ترجع إلى هذه المعصية وتتغذى منها وتتشكل حولها، وهي عبارة عن تصدي البعض لمقامات وأدوار ومراتب ومناصب ليست لهم لأنهم ليسوا أهلا لها. ولو أنّهم اعترفوا بعدم الأهلية والقدرة، لخرجوا من الظلومية (التي هي الاعتداء والتجاوز) والجهولية (التي هي عدم معرفة المقام)، ولفتح الله لهم سبيلاً إليه.

فالاعتراف بالعجز عن نيل المقام هو الدّليل على حصول المعرفة الحقيقيّة؛ ولأنّ غاية المعرفة بالمقامات الإلهية هي الاعتراف بالعجز عن معرفتها وإدراك كنهها.

وهذا التزيين من قبل إبليس هو أصل أصول جميع أنواع التزيينات الإبليسيّة. وذاك الاعتراف بالعجز من قبل الإنسان أصل أصول جميع الكمالات المعنوية.

إنّ الدنيا بكل ما فيها لا يمكن أن تكون غاية الفعل الإلهي؛ لأنها دار النقص. ولهذا، لم يكن أي شيء منها محبوباً بالذات. لكن، لمّا كانت الجنّة المحبوبة (التي تمثل غاية الفعل) مرتبطة بالدنيا، وكان تحقّقها متوقّفاً على هذه الحركة الانعطافيّة التكامليّة التي تتحقق في الدنيا، أصبحت الدنيا محبوبة بالتّبع؛ فخلقها الله وأوجدها. وصار كل ما يتعلّق بها كذلك. يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم أنّ ربوبية الحقّ جلّ شأنه للعالمين على نحوين:

الأول: الربوبيّة العامّة التي تتشارك فيها جميع موجودات العالم. وهي التربية التكوينيّة التي توصل كل موجود من حدّ النقص الى الكمال اللائق له تحت تصرّف الربوبيّة. وتقع جميع الترقيات الطبيعيّة والجوهريّة والحركات والتطوّرات الذاتيّة والعرضيّة تحت التصرّفات الربوبيّة.

وبالجملة، تكون التربية التكوينيّة من منزل مادّة المواد والهيولى الأولى الى منزل الحيوانية وحصول القوى الجسمانيّة والروحانيّة الحيوانيّة، وكل

منها يشهد بأنّ الله جلّ جلاله ربّي.

والثاني من مراتب الربوبيّة، الرّبوبيّة التشريعية المختصّة بالنّوع الانسانيّ وليس لسائر الموجودات فيها نصيب، وهذه التربية هي هداية طرق النّجاة وإراءة سبـل السّعادة والانسانيّة والتحذير من منافياتها التي أظهرها الله سبحانه بواسطة الأنبيـاء عليهم السلام. فإذا دخـل إنسان بقدم اختياره تحـت تربية ربّ العالمين وتصرّفـه وصار مربّى بتلك التربية بحيث لم تكن تصرّفـات أعضائه وقواه الظاهريّة والباطنيّة تصرّفات نفسانيّة بل كانت تصرّفات الهيّة وربوبيّة يصل الى مرتبة الكمال الإنسانيّ المختصّ بالنّوع الإنسانيّ." [معراج السّالكين].

لقـد أردنا من تفسير ظاهرة إبليس في عـالم الخلقة الإلهية، أن نتناول قضية الغاية الإلهيّة في مسألة استعصت على فهم البشر. فهم يتساءلون دوماً: كيف يخلق الله شيئاً لا يحبّه؟ وإذا كان في الوجود ما لا يحبّه الله، فلا معنى أن يصدر بمقتضى المحبوبية. وعليه لن يكون حب الله لذاته سرّ الخلق والإيجاد؛ وسوف يضيع المبدأ الأصلي والجوهري لعملية الخلق فنضيع نحن ونحتار. وعندما يعجز الانسان عن اكتشاف حقيقة الرّابطة بين عملية الخلق والتجلي من جهة وبين حبّ الله لذاته المقدسة من جهة أخرى، فقد يتجه إلى تبني تفاسير باطلة تؤدي إلى مآسٍ مفجعة. فالبعض ممن عجز عن إدراك سر وجود إبليس والشرور، ذهب إلى القول بالثّنائيّة في الوجود، واعتقد أن الله هو مبـدأ الخيرات، وأن إبليس مبدأ الشرّور. وهذا هو أحد أبرز مظاهر الشّرك في الحياة الدنيا وأصل الكثير من المفاسد. وذهب آخرون إلى نسبة الجبر والاضطرار إلى الذّات الإلهيّة. وكأنّ إيجاد إبليس أمر اضطرّ إليه الإله لكي يجبر بعض النّواقص في خلقه. وعجزوا عن إدراك الحكمة في الفعل الإلهي والغاية في الإيجاد الربّاني؛ فأدّى بهم ذلك إلى تضييع أعظم معاني

الحبّ الذاتيّ، وأغلقوا على أنفسهم باب معرفة الله والوصول إليه.

إن أفضـــل أبواب معرفة الله هو باب معرفة غاية الله. فإذا عرفنا معنى الابتهاج وكماله، أدركنا معنى حب الله لذاته، ومعنى ظهور الفعل من منطلق هذا الحب. وعندما نتمكّن من تفسير أيّة ظاهرة كونيّة على أساس هذا الحبّ الذاتيّ، فإنّنا نكون قد تعرّفنا عليها من حيث ينبغي. لأنّ القيمة الواقعيّة لأيّ موجــود هي في مدى محبوبيّته عند الله سبحانه. ولم يكن ترتيب سلسلة الموجودات من مراتب الغيب والشّهادة إلّا على أساس هذه المحبوبيّة.

لقــد كان الإيجاد بفضل حبّ الله لذاتــه (الحب الذاتي). وبسبب حبّه لذاته، أحبّ مظاهر ذاته؛ وبسبب حبّ مظاهر ذاته أحبّ أفعاله؛ وأحبّ تبعاً لأفعالــه آثار أفعالــه. وإنّ معنى رجوع الكلّ إليه إنّما يتّضح على ضوء هذا الحبّ. فبحبّ الذّات للذّات ينبغي أن يكون كل شيء مظهراً تامّاً لها. وعليه، يكون الوجود كله في نهاية ســيره وغاية أمده عبارة عن الظهور بالكمال المطلــق الذي هو ظل الذات المقدسة. وإذا كنا نشاهد عالم الخلقة بغير هذه الحالة الكمالية المطلقة، فنحن لم ندرك غايته، ولم نعرف حقيقته ورتبته؛ ولا بد أن يأتي اليوم الذي نشهد فيه تلك الحقيقة الكاملة عند الله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وهذا هو معنى الرّجوع والرجعى إلى الله.

وهذا اليــوم ـ الذي هو عبارة عن ظهور العظمة الإلهيّة المطلقة في كلّ الأشيــاء ـ متحقّق بالنسبة لله (فلا تغير ولا حدوث ولا تصرّم بالنسبة لله تعــالى). لأن كل هــذه التحولات ترجع إلى عجز الفاعــل أو ضعف قابلية المنفعــل. ولما كان كل قابل منه تعالى ومن فيضه الأقدس عن كل أشكال النقص، ولأن فاعليته مطلقة بقوله كن فيكون، فليس في صقع الذات انتظار أو ترقّب. فكل ما شاءه متحقق. سبحان الله عمّا يصفون.

يقول الإمام الخمينــيّ قدس سره: "اعلم أنّ لكلّ موجود من موجودات عوالم

الغيب والشهادة والدنيا والآخرة مبدأً ومعاداً، وإن كان مبدأ الكلّ ومرجعه الهويّــة الإلهيّة. ولكن حيث أنّه ليس للذّات المقدّسة جلا وعلا من حيث هو بلا حجاب الأسماء تجلّ للموجــودات العالية والسافلة، وبحسب هذا المقام اللامقامي لا اسم له ولا رسم ولا يتّصف بالأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية، وليس لأحد من الموجودات معه تناسب ولا ارتباط ولا اختلاط، أيــن التراب وربّ الأرباب، (كما ذكــرتُ تفصيل هذه اللطيفة مستقصىً في كتاب مصباح الهداية)، فمبدئية ذاته المقدّسة ومصدريّتها في الحجب الأسمائيــة. والاسم في الوقــت الذي هو عين المسمّى هــو حجابه أيضا، فالتجلّــي في عوالم الغيب والشهادة على حســب الأسماء وفي حجابها. فمن هذه الجِّهة للذات المقدّسة وفي جلوات الأسماء والصفات تجلّيات في الحضرة العلميّة يسمّي أهل المعرفة تعيّناتها بالأعيان الثابتة. فبناءً على هذا يلزم لكلّ تجلّ اسميّ في الحضرة العلميّة عين ثابتة. ولكلّ اسم بتعيّنه العلميّ مظهر في النشأة الخارجية، ومبدأ هذا المظهر ومرجعه إلى الاسم الذي يناسبه ورجوع كلّ الموجودات من عالم الكثرة الى غيب الاسم الذي هو مصدره ومبدؤه عبارة عن صراطه المستقيم، فلكلّ سير وصراط مخصوص ومبدأ ومرجع مقدّر في الحضرة العلمية طوعاً أو كرها، واختلاف المظاهر والصّرط باختلاف الظاهر وحضرات الأسماء." [معراج السالكين].

أما بالنسبة للذين يعيشون في قالب الزمان والتحول، فهم يشاهدون ـ إذا فتحوا عيون قلوبهــم ـ حركة تكاملية ذات مبدأ ومعاد. ولو قدر لهم أن يشاهدوا المعاد لرأوه في المبدأ: كما بدأكم تعودون. ولشهدوا أمراً واحداً لا غير: وما أمرنا إلا واحدة. ولعلموا كيف أن الله تعالى خلق المشيئة بنفسها وخلــق الأشياء بها، حيث الكل ليسوا سوى ظهــور مشيئة واحدة. فهذه الحركة الانعطافيّة الاستدارية القوسية (من مبدأ المبادئ إلى منتهى النهايات

وهي ذات الحق المتعال)، نشاهدها، فيما لو سلكنا الصّراط المستقيم، كحركة متدرّجة من أبعد المظاهر إلى أدناها. ودور العرفان أن يكشف لنا عن مراتبها ويخبرنا عن خصائصها لكي نكون مستعدّين لقبول حقيقتها فيما لو تجلّت لنا؛ فلا ننكرها ونحرم من ثمارها وجمالها.

إنّ هـذه المعرفة، التي تكون في بدء الأمـر حصوليّة متعلقة بالمفاهيم الكليـة، تهيّئ القلـب لمشاهدة ظهـور التجليـات وحضورها، فيتحقق لـه الإقبال عليها على طريق التحقّق بهـا في نهاية المطاف. فهي وسيلة اشتعال جذوة الحبّ الذي به يرجع أي موجود إلى ربّه. ففي البداية يكون النور للإنسان السالك ظاهراً وناره مخفية، ثم تتجلى له النار التي اقتبس منها، فيسلك إليها وبها. فنيران الحبّ عند الكاملين أساس النّور والمعرفة. وبالنسبة للنّاقصين المحجوبين، لن تنطلق شرارة نيران العشق الإلهيّ إلّا بعد رؤية قبس نورها من بعيد.

"اعلم أيّها الطالب للحقّ والحقيقة أنّ الحق تبارك وتعالى لمّا خلق نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود بحسب الحبّ الذاتيّ بالمعروفيّة في حضرة الأسماء والصّفات بمقتضى الحديث الشريف: كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف.. فأودع وأبدع في فطرة جميع الموجودات الحـبّ الذاتيّ والعشق الجبليّ، فجميع الموجودات بتلك الجذبة الإلهيّة ونار العشـق الربّـانيّ تتوجّه الى الكمال المطلق وتطلـب وتعشق الجميل على الإطلاق وجعل سبحانه لكلّ واحد منها نوراً فطريّاً إلهيّاً يجد بذلك النّور طريق الوصول إلى المقصد والمقصود، وهذه النّار وهذا النّور أحدهما رفرف الوصـول والآخر براق العروج، ولعلّ براق رسول الله ورفرفه كانت رقيقة هذه اللطيفة وصورة ممثّلة ملكيّة لهذه الحقيقة ولهذا أنزلت من الجنّة التي هي باطن هذا العالم.

وحيث أنّ الموجودات نزلت في مراتب التعيّنات وحُجبت عن جمال الجميل المحبوب جلّت عظمته، فيخرجها الحقّ تعالى بهذه النّار والنّور عن حجب التعيّنات الظلمانيّة والإنّيّات النورانيّة بالاسم المبارك الهادي الذي هو حقيقة هذه الرقائق ويوصلها إلى المقصد الحقيقيّ وجوار محبوبها في أقرب الطّرق، فذاك النّور نور هداية الحقّ تعالى وتلك النّار نار التّوفيق الإلهيّ، والسّلوك بالطّريق الأقرب هو الصّراط المستقيم والحقّ تعالى على ذاك الصّراط المستقيم. ولعلّ الإشارة إلى هذه الهداية وهذا السّير وهذا المقصد في الآية الشريفة: ﴿ما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم﴾ كما هو ظاهرٌ لأهل المعرفة." [معراج السالكين].

فقد اتضح على ضوء ما قلنا ما يلي:

أن الابتهاج متفرع من إدراك الكمال ومشاهدته

وأن الحق تعالى أشد مبتهج بذاته، لأنه مدرك لأعظم الكمالات

ولأن كل كمال له على نحو الإطلاق

فما ثمة محبوب له إلا ذاته

كما أن الفعل هو ظهور الصفة

والصفة هي ظهور الذات

فكان الفعل ظهور الذات للذات

لأنه ما ثمة ذات إلا ذاته تعالى وتقدّس

فكان فعله ظهور كمالاته لذاته

وصار محبوباً له

وليس الخلق سوى ظهور الفعل

حيث الخلق عبارة عن ظهور الصفات والكمالات

وحيث نرى مخلوقاً ليس مظهراً تاماً لذاته، فهو مخلوق لغيره
لمن يكون في النهاية مظهراً تاماً لذات الحق
كما أن كل تجلٍ لا يكون مظهراً تاماً لا يكون محبوباً عنده
إلا بتبعية التجلي الأعظم الذي هو التجلي الأتم الأكرم
فعلمنا أن الله تعالى قد خلق الكون كله على صورة كماله وجماله الأعظم

وفي الحديث القدسي: يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي
قال الله تعالى بشأن الإنسان الكامل: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾.

فما هو دور معرفة الإنسان بربّه في ظهور عظمته؟

"إنّ من أعلى مراتب الخسران والضّرر الاكتفاء بصورة الصّلاة وقشرها والحرمان من بركاتها وكمالاتها الباطنيّة التي توجب السّعادات الأبدية، بل جوار ربّ العزة ومرقاة العروج إلى مقام الوصول إلى وصال المحبوب المطلق الذي هو غاية آمال الأولياء ومنتهى أمنية أصحاب المعرفة وأولي القلوب". [معراج السالكين].

لعلك قد اتضح لديك أن "الرّجوع إلى الله" هو المعنى الذي ذكره الله في كتابه ليدلّنا على حقيقة كبرى، وهي أننا خلقنا لأجله. وعندما نقول: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾؛ فإننا نستحضر حقيقة المبدأ والمعاد اللذين يشكلان تمامية دائرة الوجود. وما أجمل ما قاله أمير المؤمنين في هذا الذّكر: "إنَّ قَوْلَنَا إِنَّا لِلَّه إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ وَ قَوْلَنَا وَ إِنَّا إِلَيْه راجِعُونَ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا

بِالْهُلْكِ"[نهج البلاغة]. فلن يظهر لنا المعنى التام لرجوع الأشياء كلها إلى الله (وهو معادها)، ما لم نفهم معنى المالكيّة الإلهيّة لهذه الأشياء (وهو مبدؤها)! وحيث أنّ كل شيء صدر منه، فلا بدّ أن يرجع إليه؛ رجوعاً لا بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، وإلّا استلزم هذا الكلام اعتبار الربّ الخالق المتعال محدوداً في المكان فيكون مخلوقاً؛ بل بمعنى الرّجوع إلى شأنه تعالى ومقامه. وعليه، فلا يمكن فهم حقيقة الرّجوع إلى الله تعالى، إلّا إذا عرفنا شأنه سبحانه. ولو تأملنا قليلاً في معنى مقام الإله المطلق، لعرفنا أنه لا يمكن تصور مقام معه أو مقابله. فكل الأشياء عدم عنده، ولا غير ولا أحد سواه. وكل ما نراه ليس سوى ظل وجوده.

الرّجوع إلى الله يعني الرّجوع إلى الذّات المقدّسة؛ لأنه ما ثمة ذات سوى ذاته. ففي الوجود لا حديث إلا عن الذوات، وحيث أن ذات الإله تعالى مطلقة الوجود، (لاستحالة أن تكون محدودة، وإلا صارت معلولة ومخلوقة)، فهو المتفرد بالذات والوجود. وفي الحديث عن الشهود، لا يكون للإنسان سوى مشاهدة المظاهر وإدراك الظهور، حيث لا طريق إلى كنه الذات. وفي الظهور لن يكون سوى مظاهره وكمالاته التي هي ظهور ذاته الأحدية. فكيف يكون لغيره ظهور ولا ذات إلا ذاته، ومن أين يتفرع الظهور بالكمال إن لم يكن ثمة ذات ووجود. وعليه، يكون شهودنا لكل الأشياء عند غاية ظهورها وتمام تحققها شهوداً للمظهر الأكمل الأعظم؛ لأنه المظهر الأوحد للذات الأحدية. وإذا كان لا بد للذات من ظهور، فلماذا تظهر بمظاهر أدنى؟ وبعبارة أخرى، ما هو السبب وراء ظهور أي ذات بمظاهر وتجليات أدنى من تجليها الأعلى إلا وجود النقص أو العجز فيها؟ ففي الحقيقة لا ظهور لكمالات الحق تعالى إلا بالظهور الأعظم. فإذا ظهرت لنا القدرة، فينبغي أن تكون القدرة المطلقة، وإذا ظهر لنا العلم، فينبغي أن يكون العلم المطلق،

وهكـذا بقية الصفات والتجليات. وفي دعاء السحـر المعروف: "اللهم إني أسألك من أسمائك بأكبرها وكل أسمائك كبيرة اللهم إني أسألك باسمائك كلها". وهكذا بقيـة فقرات الدعاء. فليس من ظهـور لأي كمال إلهي إلا بالظهور الأكمل. وكل نقص في الظهور فهو راجع إلى النقص في إدراكنا وشهودنـا. نحن الذين نتحدث عن الله تعالى ومظاهره؛ وعلينا أن نعلم أن كل نقص يرجع إلى حديثنا لا إلى الواقع.

فإذا كانت الحركة المهتدية للمعرفة هي التي تتجه نحو مشاهدة المظاهر، فهذا يعني أن المعرفة المرضية والعلم الصحيح هو الذي ينتهي إلى شهود هذا المظهـر الأكمل المعبّر عنه بالاسم الأعظـم. فمعرفته غاية كل معرفة والعلم به منتهى كل علم. ومن رام وراء ذلك هلك.

ولو تأملنا في هذه الحقيقة، لاتضح لنا أن غاية الحركة الوجودية للكائنات إنمـا تكون بتحققها بمظهرية الاسم الأعظم. وعلى أساسه يحصل الفصل وتكون المظاهر. وبسببه انقسم النّاس الذين أعطوا السّلوك الاختياري إلى الغاية، إلى ثلاث فئات أساسيّة، هي:

1. الواصلون إلى هذا المقام في الحياة الدنيا ـ وهم المقرّبون.
2. الذين يصلون بعد هذه الحياة ـ وهم أصحاب اليمين.
3. الذين يرفضون هذا المقام ويعاندونه ـ وهم أصحاب الشّمال.

ومن هذا يتبيّن أهميّة الاعتقاد بهـذا المقام والتشوّق إليه، ولو لم يدرك الإنسـان حقيقتـه في هـذه الحياة الدنيـا. ويُعلم أيضاً خطـورة الجهل به والإعراض عنه وعاقبتهما السيئة.

هكـذا تكون الحركـة العلميّة المهتدية. فهي تجعـل هدفها معرفة مقام الاسم الأعظم في البداية. وذلك من أجل تعميق هذه المعرفة وتكميلها إلى مقام الايمان في المرحلـة الثانية. حتى إذا علم السالك مقام عجزه عن نيله

والوصول إليه، تمسّك بذيل شفاعته عسى أن ينال توفيق الوصول إليه، بعد أن يجبر قصوره الذاتي بالاعتراف بظلوميته وجهوليته.

"والحق تعالى جلّت عظمته غاية الغايات ومنتهى الطلبات... فإذا صارت المملكة الإنسانية إلهيّةً، وخلت من شياطين الجنّ والإنس، وظهرت فيها السّمات الإلهيّة، يتحقّق السّالك بمقام الإسميّة. ففي البداية تكون تسمية السّالك عبارة عن الاتّصاف بالسّمات والعلامات الإلهيّة؛ ثمّ يترقّى عن هذه المرتبة، ويصل بنفسه إلى مقام الاسميّة؛ وهذا هو من أوائل قرب النافلة، فإذا تحقّق بقرب النافلة نال تمام الاسمية، فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبوديّة". [معراج السالكين].

لا شأن للإنسان بما هو إنسان، ولا معنى لخلقه في هذا النظام الوجودي، إلّا أن يكون مظهراً تامّاً للاسم الأعظم. فلو تنكب عن هذا الصراط الذي خلقه الله له، لخرج عن الإنسانية؛ وهو على حدّ التمرد على الله تعالى. لأنه لا مبرر لهذا الخروج سوى القصور. والله تعالى وعد أن يجبره. وجعل كل شيء دليلًا عليه. فلا عذر لأحد في عدم بلوغ غايته. والشقي من هلك على الله. إن خطر المقام الإنساني هذا لأن الله أراد له أن يقود مسيرة الكائنات نحو غاية الغايات. إنها الأمانة الكبرى التي عجزت السّماوات والأرض والجبال عن أن يحملنها.

ولهذا، نستنتج من إعراض الإنسان عن السير إلى الاسم الأعظم وعن السعي للتحقق به أنّه بمنزلة من يحارب ربّه ويعانده في أحب الأشياء إليه، وفي الأمر الوحيد الذي يرتضيه؛ فكيف لا تكون عاقبته أشدّ العذاب! وكفى بالمرء محادّة لله وشقاقاً أن يعاند إرادة الله الجمعية. من الطبيعيّ حينئذ أنه إذا انتقل من هذا العالم دون أن يكون مؤهلاً لمثل هذه الخلافة أن لا يُحشر على الصّورة الإنسانيّة، لأنه تنكب عنها. فقول الإمام الصّادق عليه السلام: "إنّ الله

خلق آدم على صورته"، إشارة إلى كون الحقيقة الآدميّة والصورة الإنسانية الكاملة مظهراً تامّاً لأسماء الله وصفاته؛ وقد تحقّقت بواسطة تعليم الأسماء كلّهــا. كما قال تعــالى: ﴿وعلّم آدم الاسماء كلّها﴾.. يقــول الإمام الخميني: "والمرتبة العالية من تعليم الأسماء هو التحقّق بمقام أسماء الله." [معراج السالكين].

ولمــا كانت الحركــة المعرفية للإنسان سبيله للوصــول إلى مقام الاسم الأعظم والتحقق بإرادة الله، كان من اللازم أن يتعرف على مقتضيات هذه الحركة وواجباتهــا. إنها عبارة عن السلوك بقدم المعرفة الذي ارتضاه الله تعالى للإنسان وفضله بسببها على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا. وينبغي أن نعمّق المعرفــة بهذه المعرفة حتى يكون سلوكنا فيهــا بقدم ثابتة. فما هي موقعية معرفة الله في نظام الوجود حيث الكل صائر إليه؟ ولماذا كانت معرفة الله تعالى غاية خلق السّماوات السّبع ومن الأرض مثلهنّ؟

يجــب أن نبدأ في دراسة موقعية المعرفة من الله تعالى لا من الإنسان. وإلا نكون قد ضللنا من الخطوة الأولى. فإذا كان خلق الإنسان شأناً إلهياً، فمن الطبيعي أن تكون المعرفة الإنسانية شأناً إلهياً كذلك. وإذا كان وجود الإنســان ضمن النظام العام الوجودي مما يرتضيه الله تعالى بشرط تحققه بمظهريــة الاسم الأعظم، فمن المؤكــد أن كمال المعرفة الإنسانية ينبغي أن يعــود إلى الله ويرتبط بشأنه بالأصل؛ وإن عاد بالنفع والخير على الإنسان بالتبع. وإذا كان الأصل من جهة المخلوق في ارتباطه بخالقه هو العبوديّة، ومن جهة الخالق هو المالكية، لقولنا: "إنّا لله"، فهذا يعني أن أية حركة يقوم بها العبد ينبغي تكون لربّه لا لنفسه، وأن تنبع من التوجه إلى ذل عبوديته ومملوكيتــه وكونه مخلوقاً لله لا لنفسه. ولا شك بــأن الحركة العلمية تمثّل إحدى أهم التحركات الإنسانيــة.. وقولنا أن الهدف من خلق الإنسان هو معرفة الله، يحتاج إلى تكميــل وإيضاح، حتى يظهر كيف يرجع إلى الله وإلى ذاته المقدسة!

ولا يخفى أنّ النّفع أو الخير إذا كان من الله إلى الله، فلا يخدش بحقيقة الغنى الإلهيّ، ولا يعني أنه تعالى وتقدّس يكون بذلك محتاجاً إلى غيره. بل لا احتياج في البين أصلاً.

وعليـه، فإنّ معرفتنا بالله، ولو بلغت أعلـى الدّرجات وأرقى المقامات، فلا تعبّر بصورة تامة عن الغاية من خلقنـا؛ لأنّ الذّات الإلهيّة ستبدو في مثـل هذا التّفسير وكأنها خارج المشهد الوجودي العام؛ فنقع في المحذور الذي فررنا منه. فعلينا أن نطرح السّؤال بوضوح، ونقول: إذا كان لوجود أي شيء أن يعود على الله بالبهجة، فكيف تكون معرفتنا ظهوراً لابتهاج الرّبّ بكمالاته؟! وكيف نُرجع مقام عرفان الإنسان الكامل بالله إلى الله عزّ وجلّ؟

هـل أنّ بلوغ الإنسان مقـام العرفان بالله (وهـي المعرفة الشهودية) ينسجم مع حقيقة البهجة؟ ونحن قد علمنا أنّ الله تعالى لا يبتهج إلّا بما يكـون من شأن ألوهيته وعظمته المطلقة. ولا شيء يليق بشأن الله تعالى ويعـبّر عنه سوى التجلي الأكمل والاسـم الأجل الأعظم. ونعلم عندئذ أن معرفتنـا بالله، إذا كانت عبارة عـن التحقّق بهذا المقام الأسمى، فهي المطلوب. وإذا لم تتجه نحوه فهي خروج عن صّراط الله المستقيم، الذي يبدأ من ذات الله وينتهي إليها.

وهكـذا نقترب مـن فهم المعنى الحقيقيّ لمعرفة اللـه (التي كانت هدفاً لوجود الإنسان الذي كان هدفاً لغيره من المخلوقات). فنخرجها عن مجرّد التصـوّر الذهني أو التصديق القلبي. ونعلم من خلال الجمع والمقابلة أنّها عبارة عن التحقّق بالاسم الأعظم.

إن شـدة المعرفـة في النفوس الصافية والقلـوب النقية تورث حالة العبوديّة. والعبوديّة المطلقة ليست سوى اضمحلال إنية العبد وانكشاف فناء كل جهات الغيرية، فـلا شيء عندها ليحجب الحقيقة الكبرى عن

ظهورها وتجلّيها!

من المسائل العلمية المساعدة هنا: قاعدةٌ كثيرة الفائدة تنطلق من التمييز بين الجّهة الإلهيّة والجهة السوائيّة في النظر إلى الأشياء. وإذا أصبحت هذه القاعـدة مرتكزاً لا يفارقنا في تحليل أية قضية، فسوف نجتنب الكثير من الهفوات والزلات. فالجهة الأولى - التي هي جهة "يلي الربّي" وزاوية النظر من مقام الله إلى الأشياء - تمثّل الجهة السليمة للتعرّف على الحقائق. وهي التـي تظهر في الحركة اللمّيّة للسير العقلي الاستدلالي، حيث ننطلق من معرفة العلّة لنصل إلى معرفة المعلول، وهو حال الصدّيقين الذين يقولون: "بالله عرفت الأشياء". والجهة الثانية التي هي جهة "يلي الخلقي" حيث يبدأ السير العقلي الاستدلالي من أدنى مراتب الوجود متدرجاً ليصل إلى أصله وعلته. وأصحابها يقولون: "البعرة تدل على البعير".

ولمعرفة الله تعالى بعدان يظهر كل منهما من تلك الجهتين. فإذا أردنا أن نفهم قضيّة المعرفة الإنسانية وصيرورة الإنسان عالماً من الجّهة الإلهيّة، فلا ننسى أنه لا يوجد أي نوع من التحوّل والتغير عند الله وفي الصّقع الرّبوبيّ؛ وبالتالي فلا وجود عنده ولا معنى للحركة التي هي عبارة عن الانتقال من القوة إلى الفعل (علميّة كانت هذه الحركة أم غيرها). فعنده تعالى كل شيء قد تّم وانقضى بلا زمان. حيث أنّ الزّمان ليس سوى وعاء التغيّر والتحوّل. والتحوّل يرتبط بحركة النّاقص إلى الكمال. فكيف يكون ثمة تغير أو تحوّل، وليس في السّاحة الإلهيّة المقدّسة إلا الكمال المطلق المحض.

إنّ مشهـد الوجود الأكمل متحقّق عنده تعالى أزلًا وأبداً. فهو سبحانه ليس بحاجة إلى تصرّم الزمان وانقضاء الأيام حتى يبلغ مراده.

أمّا إذا أردنا أن ننظر من جهة الخلق. فهناك حركة تكامليّة تراتبيّة. ومن هذه الحيثيّة ولهذا السبب، يحتاج الخلق إلى معرفة الحقائق بحسب ترتيبها

وتدرّجها في مراتب الوجود.

إنّ قضيّة المعرفة عندما تصبح أمراً تدريجيّاً، فإنّها تشكّل أهمّ منطلق للنّظـر من زاوية يلي الخلقـيّ. وإذا استطعنا أن نتعـرّف على كيفيّة تدرّج الإنسان فيها، نقدر على تفسير ما يجري في رحلته التكامليّة.

فمن جهة الرّبّ المتعال، لا معنى لوجود أي مانع يحول دون ظهور الأشياء كلهـا بمظهر الاسم الأعظم. ولهذا، علمنا أنّ هذا الأمر الواحد بالنسبة إليه متحقّـق ولا شيء سواه. فلو قدّر لنا أن نشاهد الأشياء على حقيقتها عند الله، لما حجبتنا عن مشاهدة الاسم الاعظم. فإذا عجزنا عن مشاهدة حقيقة التجلـي الأعظم فيها فذلك بسبب نقص فينـا لا في مشهد الوجود العام الكلي؛ فكيف نرفع النقص ونزيل الحجاب، فنشهد الحقيقة دون ارتياب؟.

إن الحقيقة تشهد بأنها متفـردة بالنور والظهور، لأنه متفردة بالوجود. فمـن شاهد غيرها وأدعى شهودهـا إلى جنب شهوده فهو ضال تائه. لأن نورها لو سطع، لاستحال كل ما سواها ظلاماً دامساً. فهل يمكن أن نرى نورًا مطلقاً إلى جنب نور محدود؟!. فإما أن نرى نور الحقيقة المطلق ويكون الكل أشعتـه؛ وإما أن نغفل عن النور المطلق بالنظر إلى الأنوار المحدودة. وعليه، فالمانـع من شهود الحقيقة ليـس سوى الاستغراق في النظـر إلى الأغيار والاحتجاب بالغيرية، التي هي جهة الانقطاع عن الحقيقة. ولا يمكن الخروج من هذا الاحتجاب إلا باتّباع نور العقل الهادي إليها والمنبثق من شعاعها.

ولّما كان الظهور هو النور، ولّما كان الاسم الأعظم هو التجلي الأعظم، فهو نور الأنوار وفي نوره انعدمت الأنوار واضمحلت. فهو الظاهر وليس لغـيره من ظهور. بل كل ظهور فهو له. ولا معنـى لظهور كمال إلهي إلا أن يكون ظهـور الحقيقة العظمى والنور المطلق. فلا عذر والحال هذا، لمن لا يـراه: "عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً". وعليه، فلن يكون التدرّج في

الزّمان أو عبور المكان شرطاً أساسياً لبلوغ شهوده. لأنّ ظهوره عمّ الزّمان والمكان وأحاط بهما! فلا السّفر في البلدان يوصل إليه، ولا توالي الأيام يجعله قريباً.

إن المشكلة كلها تُختصر بتقييد المدارك وتحديد القنوات المعرفية.

وعندما تكون قوانا الإدراكية محدودة، فلن يمكنها أن تنظر إلى النور المطلق.

فكيف حدث ذلك؟ حتى وصل الأمر إلى الكفر والإنكار!

وإذا كان الحق المتعال كلي الحضور وعام الظهور ولا يخلو من مشهد شيء لقوله تعالى: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾، فإن ما يقابله سيكون ظلاماً وهو الباطل المحض والعدم الصّرف: ألا كل شيء خلا الله باطل، وأن ما يدعونه من دونه الباطل؛

"إلهي وإن الرّاحل إليك قريب المسافة وإنّك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الآمال دونك".

ومن هنا يبرز السّؤال الكبير: كيف صار الباطل المحض مشهوداً؟ وكيف يتشكّل الباطل في القوى الادراكية للإنسان، فيمنعه من النّظر إلى الحقّ المطلق وشهوده؟

فأولئك الذين عموا عن الأسم الأعظم وانكروا التجلي الأكمل، قد وقعوا في الحجاب الأكبر واستغرقوا في محض الباطل وبالباطل المحض.

وكما أنّ للاسم الأعظم والحقّ الأتمّ مظاهر (هي الأسماء الحسنى والصفات العليا)، ولهذه الأسماء مظاهر، وهكذا..؛ فإنّ لما يقابل هذا التجلي الأعظم مظاهر. فإذا كان الباطل المحض نقيض الاسم الأعظم، فإنّ لكلّ اسم ومظهر من مظاهر الاسم الأعظم نقيضاً أيضاً. ولمّا كان لكل اسم في عالم الأعيان مظهرٌ وآيةٌ تدل عليه وتهدي إليه، فإن أي

نقيض لمظاهر الأسماء الإلهية له مظهر في عالم الأعيان أيضاً. وهم أعداء الآيات في الحياة الدنيا.

إذا كنّـا نسعى للتعرّف على المانع الأساسيّ الذي يعد أصل كل الموانع والحجب، وعلى الباطل الذي يناقض الاسم الأعظم (حيث أنّ الكفر به يعد مقدمة للإيمان الحقيقي)، فإن هذه المعرفة ستكون متاحة في الحياة الدنيا، لأنها أرض التعاند ومحل التناقض. ففيها دون سواها تتواجد مظاهر الأسماء الإلهية ومظاهر الباطل. وعليها دون غيرها يحصل التعاند والتعادي؛ فيتحقق للإنسان فرصة اكتشاف الحقائق بمعرفة مقابلاتها، واكتشاف ما يحصل في أعماق نفسه بعرض النقائض والمتقابلات عليها!

إن مظاهر الاسم الأعظم في عالم الطبيعة تدعى بالآيات. وعلينا أن نعرف ما هي موانع شهود الآيات فيه؟ فنعرف بذلك ما حجبنا عن رؤية مظاهر الاسم الأعظم التي تهدي إليه.

ولتعظيم الفرصة وتوفير الحجة وإظهار الطريقة جعل الله تعالى لنفسه في كل شيء آية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وعلينا أن نتساءل عن السبب الذي أدى إلى إعراضنا عنها، فجهلنا قدرها وغفلنا عن سرها! إنّها ظاهرة في اختلاف الليل والنّهار وفي النّجوم والكواكب وفي كل تفاصيل الخلق والحياة والأحداث. فما بالنا لا نراها ولا نذعن لها؟

إنّ الآية في أي شيء هي جهة الانتماء والانتساب إلى الله سبحانه. ولأنّ وجود أي شيء من أوله إلى آخره محض العطاء من الله، فلا يتصور جهة وجودية في أي شيء لا تكون لله ومن الله. فوجود أي شيء هو الآية. وما نتصوره ليس لله لن يكون إلّا وهماً. وبغفلتنا عن جهة الانتساب إلى الحق، نكون قد أضعنا الآية وفقدنا وسيلتنا الوحيدة للمعرفة الحقيقية. وتدل

الملاحظة العميقة على أن العامل الأساسي وراء تضييع جهة نسبة الشيء إلى خالقه (وهي الجهة الوجودية) هو رغبتنا أو طمعنا في أن يُنسب لنا؛ وهي رغبة التملك، ورؤية مالكية النفس وقيامها بنفسها وغناها واستقلالها؛ وهو معنى الإنية. فخالفنا بذلك معنى "إنّا لله" الّذي اتضح لنا أنه مبدأ إدراك كل الحقائق. وقد توغلنا في هذا الاعتبار حتى صار كالحقيقة! كل ذلك لأنّنا اعتبرنا لأنفسنا وجوداً مقابلاً لوجود الله تعالى! فاعتبار النفس مالكة لا يحصل إلا بعد اعتبارها موجودة. ولا نعتبرها موجودة إلا بعد غفلتنا عن وجود الله تعالى. ويا لها من غفلة! فإن وجود الله المطلق لا يدع لغيره وجوداً؛ اللهم إلا أن يكون قائماً به سبحانه قيام المعلول الفقير بعلته الغنية.

وللأسف، فقد خرجنا إلى الحياة الدنيا ونحن محاطون بنظام اجتماعيّ يرسخ فينا ذاك النظر الباطل. نظام يحمي نفسه بقوانين وأعراف تعتبر التملّك والملكية أساس الهويّة والانتماء الى المجتمع والقبيلة. فأنت مقبول إذا كنت تملك، وتصبح وجيهاً إذا زاد ملكك. مما يعزز فينا النظر الاستقلالي إلى الوجود المجازي والعرضي.

منذ اللحظات الأولى التي تتفتّح أعيننا على موجودات العالم، يقوم هذا النّظام الاجتماعيّ المتسلّح بمنظومة معرفيّة متشعّبة بتلقيننا أنّ كل الأشياء من حولنا قابلة للتملّك، وإنّ الاستكثار منها يعطي هويّةً وشأناً. إن هذا النّظام الاعتباري الواهم باستخدامه لسلاح العلم (المبني على الحس والمعرفة المحدودة) وتفسيره الناقص لهذه الأشياء، يجعل الأوهام تستقر في نفوسنا؛ فيصبح طيّ مسيرة المعرفة الحقيقية أمراً شاقاً بعيد المنال.

وإذا أردنا أن نُبطل ما صنعه هذا النظام، يجب أن نكتشف هشاشة زاوية النّظر التي اختلقها، والتي لا تفتأ تزوّدنا بالباطل تلو الباطل والوهم بعد الوهم. وإذا أردنا لحركتنا العلميّة أن تكون سليمةً، فعلينا أن ندرك مدى تأثير

النّظام الاجتماعيّ ـ بمكوّناته الثقافية ـ على تفكيرنا وإلى أية درجة تغلغل في أعماق نفوسنا وحدد طبيعة إدراكاتنا؛ عندها يتحقق الكفر بالطاغوت بكل مراتبه ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ علـى طريق الايمان الواقعي العميق: ويؤمن بالله؛ فيحصل الاستمساك بالعروة الوثقى الموصلة إلى الله.

وإذا كان النّظام الاجتماعي قائماً على رضوخ الناس وعبادتهم لقيمه التي يحميها بمجموعة من الأصنام الحجرية والمعدنية، فيكفي أن نحطّمها جميعـاً ونترك كبيرها، ليرجع النّاس إلى أنفسهم والمنطق السليم. لكن، إذا كان هـذا النّظام متسلّحاً برؤية كونيّة ومنظومة فكرية مبنيّة على تراث معرفيّ كبير، فإنّ الجهاد يتعاظم والمسؤولية تكبر! فكيف إذا أُضيف إليها من كل زخرف وبهرجة، وصار الموعد يوم الزينة!!

إنّ أحـد أوجه تمايز نهج الأنبياء عليهم السلام عن نهج الفلسفة النظرية يكمن في عدم فصلهـم الحركة المعرفيّة والبناء العلمي عـن عملية تغيير النّظام الاجتماعيّ وتحوّله. فالعمل علـى اصلاح الفرد في ظل النظام الفاسد لن يؤثـر كثيراً؛ حيث سيكون الفوز غالباً للنظـام. ولأنّ مهمّة الأنبياء العامة تتجاوز في مشروعها الستراتيجي صناعة بضعة أفراد كاملين، وتتوجه إلى تغيير النّظام الكونيّ بأسره، فقد عرفوا مسبقاً أن شرط تحققه متوقف على إصلاح النظام الاجتماعي البشريّ كله. والتسمية الحقيقية، وهي الاتسام بسمات الحق تعالى، لا تتحقق إلا برعاية مخلوقات الله تعالى:

"إذا أراد السالك أن تكون تسميته حقيقيّة فلا بدّ له أن يوصل رحمات الحـقّ تعـالى إلى قلبه ويتحقّـق بالرحمة الرحمانيـة والرحيمية، وعلامة حصول نموذج منها في القلب أنّه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتلطّف ويطلب الخير والصلاح للجميع". [معراج السّالكين].

لقد حـدّد الأنبياء، ومنـذ بداية دعوتهم، أصل المشكلـة المعرفيّة عند

البشر وسبب انحراف الحركة العلمية فيهـم؛ وبيّنوا أنّ النّظام الاجتماعيّ الفاسد هو العامل الأول وراء تعزيز الباطل في النفس، بتعزيز وترسيخ زعم الوجود الخاصّ المستقل لها، والذي يتزين بروح تملّك الأشياء. فانقلبت الآية واحتجبت؛ ولم تعد عملية "كشف جهة انتساب هذه الأشياء إلى الله تعالى" و"معرفة جهة الآيتية فيها" سهلة يسيرة. وصار ظهور الكائنات لنا في مدى ما تمنحنا من قدرة وتأثير.

فحقيقــة الطّاغوت هــي الدعوة إلى النفس، لا إلى اللــه؛ وهذه الدعوة تتسلّــح بكل أشكال الملكية الاعتبارية وأنواع التكاثر: ﴿أنا أكثر منك مالاً وولــداً﴾. ولكي يرسّخ هذا الطاغوت حكمه ويحافظ على سلطته، يسعى لترسيخ قيمة التملك والتكاثر وجعلها أساساً للعلو والرفعة.

ولا بدّ أن نكفر بالطاغوت، لكي نتحرّر من وهم التملّك؛ فنحرّر الآيات الإلهيّة من طمعنا وقيود أوهامنا، وتبدأ رحلة المعرفة نحو الأسماء الإلهية والتجليــات الربّانيــة، حتى تنتهــي إلى الاسم الأعظــم. فالحركة العلميّة الرّشيدة هي التي تنطلق من كشف زيف وهزال النّظام المعرفيّ الذي يتسلّح بــه الطّاغــوت لتأكيد موقعية التملّك وما ينبثق منــه من تسخير وسيطرة وتصنيــع، ومن اعتبار هذه الأمور أساس سعــادة الناس ورقيّهم. قال الله تعــالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

لقد تمكّنت الفلسفات المادية المهيمنة بقدراتها التعليميّة الهائلة من أن تزيّن وجود الإنسان بزينة كاذبة وجمالٍ مزيّف؛ ومجتمع الفلسفة الإلهيّة المشغول بالجدال والقيــل والقال، عجز عن كشف أسرار الجمال الحقيقيّ الكامــن في عالم الخلقة (بما يتناسب مع مستــوى التحدي)؛ ففقدنا قدرة التفــوق الحضــاري وهزمنا في معركة العلم وصناعــة الوعي والوجدان،

لنصبح تابعين لنظام الطّاغوت المنحوس الذي تفرّد بصنع توجهات الناس ونظرتهم إلى الوجود.

ويجب أن نعلم أنّ رؤية الجمال المحدود المقطوع عن أصله هو في الحقيقة كـ "لا جمال"؛ لأنّ المحدود بما هو هو ليس سوى العدم وعين الفقر والنقص. وما لم نر وراء الجمال المحدود ذاك الجمال المطلق، فلن نصل إلى مشاهدة أي جمال في النهاية. يقول الامام الخميني قدس سره: "وما دام الإنسان قاصر النظر إلى نفسه وكماله وجماله الموهوم فهو محجوب وبعيد عن الجمال المطلق والكمال الصرف." [معراج السالكين].

إنّ محل المعرفة ووعاء العلم هو هذه النفس الإنسانية؛ فأي عبث أو تخريب لهذا الوعاء، سيمنع من تحقّق المعرفة الصحيحة. وإنّ قيمة النفس وشرفها أن تكون منتسبة لله، وفي صيرورتها آية لاسمه الأعظم؛ وعندما ينقطع هذا الانتساب تنعدم هذه الآية فيخسر الإنسان نفسه ويفقد وعاء العلم الحقيقي. وعند ذلك لن يكون النظر إليها إلا سبباً للمزيد من العمى، وسوف يرتدّ إليه البصر خاسئاً وهو حسير.

إنّ المعرفة الموصلة هي حركة تفاعلية من جهتين. فمن جهة الرّب المتعال هناك التجلّي بكلّ شيء: "إلهي عرفت أنّ مرادك منّي أن تتعرّف إليّ في كل شيء"؛ ومن جهة الإنسان هناك الاستقبال المطلق والتقبّل التام لكل التجليات: "حتى لا أجهلك في شيء".

ويعني ذلك أن وجود الإنسان إذا ما قورن بالحقيقة المطلقة، فلن يكون سوى اللاشيء المحض والعجز المطلق والقصور الذاتيّ. فهو بذاته غير لائق ولا قابل لمعرفة الله تعالى بأيّة مرتبة؛ اللهم إلاّ أن يتجلّى الربّ تعالى على قلبه فيضيء فيه نور معرفته ويبدّل وجوده البشري الناسوتي إلى الوجود الملكوتي اللاهوتي. "إنّ الايمان يبدو في القلب كلمظة".

"فالسرّ الاجمالي للأذان هو إعلام القوى الملكوتية والملكية والجيوش الإلهيـة للحضـور، وأدبه الإجمـالي هو التنبيه إلى عظمـة المقام وخطره وعظمة المحضر والحاضـر، وذلّ الممكن وفقره وفاقته ونقصه وعجزه عن القيام بالأمر وقابلية الحضور في المحضر، إن لم يؤيّده لطف الحقّ جل وعلا ورحمته ويجبر نقصه." [معراج السالكين].

فبـدون هذه المعرفة، لا كرامة لأي مخلـوق ولا قيمة. ولا يحصل هذا التبـدّل الجوهريّ من اللاشيئية المحضـة إلى المظهرية العظمى إلا بفضل هذا التجلّي الأعظم من جانب الغني الحميد والاستقبال المطلق من جانب العبد الفقير. فقلب الإنسان في بداية الأمر فارغ من كلّ نور وماهيته الذاتية عاريـة من أيّ وجود؛ اللهـم إلاّ أن يسري فيه شعاع الوجود الإلهيّ بنفخ الرّوح في قالب وعائه.

إنّ العلم هو أفضل مظهر للرّوح في عالم الطبيعة وأشرف تجلياته؛ وكان العلم حياةً ونوراً.

﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾،

﴿وَكَذلِـكَ أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَـدْري مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمـانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدي إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾

"فنور العلم متجلّ في مجـالي جميع المدارك بل من المرائي التي فوق المدارك من النفوسـ الكلّية الإلهيّة والعقول المجـرّدة القدسيّة والملائكة المنزّهـة المقدّسة ويظهر بـه بواطن الأشياء كظواهرهـا وينفذ على تخوم الأرضـ وسحب السماء ويبقى نفسه مرّ الليالي والأيام. بل يحيط بعض مراتبه على الزمان والزمانيات، وينطوي لديه المكان والمكانيات؛ بل بعض

مراتبــه واجبٌ به وعمت الأراضي والسموات وهو أحاط بكل شيء علماً. وعند ذلك قد ينكشف على قلب السالك بفضل الله وموهبته أن النور هو الوجود، وليس في الدار غيره نور وظهور، يا منّور النور، يا جاعل الظلمات والنــور، اللّه نور السموات والأرض. وأن نورانيــة الأنوار العرفية والعلوم بمراتبها منه." [شرح دعاء السحر].

إنّ بدء المعرفة يكون من الله تعالى؛ وذلك بتجلّي آيات أسمائه على قلب الإنسان. فإذا انفعل القلب واهتزّ بدأ مسيره العلمي، كحال الأرض ﴿أرسلنا عليها الماء اهتزّت وربــت وانبتت من كل زوج بهيج﴾. إن مشهد التجلي الإلهي مــن جهة "يلي الله" يحكي عن أمر واحــد ونور فارد هو التجلّي بالاســم الأعظم: "اللهــم إنّي أسألك من أسمائــك بأكبرها، وكلّ أسمائك كبيرة؛ اللهم إني أسألك بأسمائك كلها". والاسم الاعظم هو التجلي الجامع للأسماء الجمالية والجلالية. ففي الجمال اللطف والعناية والجذب. وفي الجلال القهر والكبرياء والطرد والإبعاد. فعلامة تحقّق المعرفة التامّة والعلم الصحيح هو قبول تجلّيات أسمــاء الجمال والجلال كلّها. فأمّا أسماء الجمال، فقبولها سهل وعذب. لكن كيف يمكن للإنسان أن يتقبّل أسماء الجلال ؟! وما معنى أن تتقبّل الله وهو يطردك أو يقهرك. وهل يمكن لأحد أن يتحمّل مثل هذا الإبعاد؟ "إلهي هبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك".

والواقــع أنّ من يشاهد الجلال في عين الجمال هو الذي يمكنه أن يتقبّل التجليــات الجلالية مهما بلغت، فيصل بذلك إلى غاية المعرفة. وقد ضرب الله لنا مثلا أعلى في هــذه المعرفة؛ وهي السيّدة زينب الكبرى عليها السلام . ففي يوم العاشر الذي مثّل أشد أنواع الجلال في الدنيا وقفت هذه المرأة العظيمة لتقول: "ما رأيت إلا جميلا". فهي العالمة من لدن الله تعالى غير المعلّمة من قِبل الناس.

فإذا كانت الدنيا دار التكميل والتعليم، ولمّا كانت داراً بالبلاء محفوفة، فإنّ حركة المعرفة التكاملية فيها ستتمحور حول هذه القضية: قضية تقبّل الجـلال في عين الجمال. وإذا أردنا لأنفسنا التوفيق وبلوغ الغاية، فيجب أن نمنع من زوال الاستعداد لقبول تجلّي الربّ بأسمائه الجلالية وجلاله المطلق؛ وبذلك نتحرك نحو قبول تجليات الاسم الأعظم. فالجلال والجمال هما تجلياته؛ وفي أرض الطبيعة امتحان افتراقهما. "هو الذي اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، واشتدّت نقمته لأعدائه في سعة رحمته".

تخبرنا الشواهد الدينية أنّ التجلّي بالجلال المطلق سيحصل حتماً يوم القيامة؛ إنه يوم ظهور المالكية العظمى برجوع الكل إليه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وحيث أن الكل صائر إليه، فالجميع سيدخلون في تجربة جلال مطلق، وما كل ذاك الفزع والسكرة التي تذهل المرضعة عما أرضعت إلا بسبب تجلي ذاك الجلال. هناك تهون كل مصيبة. فمن يتقبّل هذا التجلّي الحتمـي عندئذ ولا ينكره (أي لا يراه منكـراً ونكرا) سيفوز بمقام الإنسان الكامل الذي جعله اللـه تعالى غاية حركة الأكوان. وليس كمال الإنسان سوى تحقّقه بمقام الاسم الأعظم. "الإنسان يستطيع أن يكون مظهراً لأسماء الله، والآية الكبرى الإلهيّة بالرياضات القلبية، ويكون وجوده وجوداً ربّانيا، ويكون المتصرّف في مملكته يدي الجمال والجلال الإلهيّ" [معراج السالكين]. ولعل قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ إشارة إلى هذه القضية. فالنار هي مظهر الجـلال المطلق. وورودها هو الدخول في النقمة المطلقة. فمن كان متسلحاً بالإيمـان بالجمـال المطلق سيرى اللطف والعطف الإلهـي في هذه التجربة، ويتوسل به فيجوزها وهي خامدة. ومن قبلها الأمن من الفزع الأكبر.

ولأجـل أن لا يكون هذا التجلّي صادماً صاعقاً مفنياً لا يترك ولا يذر، ولأجـل أن يحصل التحقّق والتمكين في الاسـم الأعظم، ولكي لا تكون

سطوة جلاله مانعة من تحقق الهدف الأسمى، فإنّ الله عزّت آلاؤه أنزل هذا التجلّــي وتنزّل به مرتبة بعد أخرى عبر عوالم الوجود حتّى وصل إلى هذا المنزل الأدنى وسجن الطّبيعة؛ فمن قبِل تجلّيه الجلالي المتنزّل في الدنيا (وهو الصبر على المكاره)، فــاز بكرامة تقبّل تجلّيه الأعظم في الآخرة. إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

فمن تمكّن قلبه من ذكر الجمال حين تجلّي الجلال في عالم الطّبيعة وفتن الدنيا، سوف يتمكّن ـ إن شاء الله ـ من ذكر الجمال المطلق حين تجلّي الجلال المطلق يوم القيامة العظمى، وبتذكّر الجمال المطلق حين الجلال المطلق ينال الإنسان شرف ذكر الاسم الأعظم على الحقيقة فيصبح مذكوراً ومنعوتاً به، كما قال تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾.

إنّ آيــات الجــلال في عالم الدنيا كثــيرة، "فهي دار بالبــلاء محفوفة"، كمــا وصفها مولى المتّقين عليه السلام. وفيها آيــاتٌ بالجلال موصوفة، كالشدائد والمصائب والشّرور؛ ففي هذا الحين اختفى فيها الجمال. وفيها آياتٌ بالجمال معروفــة، كالمواهب والنّعم والخيرات. وقد اختفــى فيها الجلال. فمن أدرك الجمال حــين المصائب وذكر ربّه به وتذكّــر آلاءه ورجا فرجه وأمل فضله ورحمته وأقبل عليه بحمده، فإنّه سيتّذكّر معنى ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾، وهناك ستتنزّل عليه الملائكة بكل صلوات ورحمة. ومن لم يلهه الجمال في الحياة الدنيا عن تذكّر الجلال، وأدرك فيه هيبته وخاف مقام ربّه ولم يتهتك أو يتعدَّ، أوشك أن يفوز بذكر الاسم الأعظم؛ وهناك سيؤيّد بروح القدس.

إنّ الثّبــات في الشدائد يُعدّ مقدّمة ضروريّــة لمشاهدة الجمال الكامن فيها، وبالتالي تقبّله. ومعنى تقبّله بحقيقته أن ننسبه إلى أصله ومعدنه، الذي هــو الاسم الأعظم الجامع لكل أسماء الجلال والجمال؛ وهو الذي يشير إلى عين التوحيد. فالذي يتمكّن حين نزول المصيبة أو حين الابتلاء بالشرّ، من

تفســير ما نزل به بأنّه من جانب الخير والصّــلاح، فهو الذي أرجع الجلال إلى الجمال، وأدرك مقام الجمع. حتى إذا تتالت عليه المصائب وتوالت عليه مظاهر الجلال، ونجح في الواحدة تلو الأخرى في مهمة الإرجاع تلك، صار مستعدّاً للبلاء الأعظم؛ هناك حيث يرجع الجلال المطلق إلى الجمال المطلق في عــين الجمع. والشرط للنجاح هو قوّة القلب المتنوّر بضياء المعرفة، وهو الايمان الرّاسخ.

ولا شــك أن الايمان المطلــوب في كل تجربة هو الذي يتناسب مع حجم البلاء فيها. ولأنّ يوم البلاء الأعظم الذي هو التجلّي بالجلال الأعظم الذي هو يوم القيامة لا ريب فيه وآتٍ لا محالة، فإنّ الايمان المطلوب فيه هو الايمان الأكمل، الذي ينطلق من أعلى درجة معرفيّة. وهي المعرفة التي تمكّن العارف من تفسير أشدّ الظواهر الوجوديّة قهراً ونقمة تفسيراً يرجعها إلى الجمال المطلق. إنه الحب الخالص والعشق الخاص الذي عبّر عنه ولي الله المعظّم في مناجاته الشعبانية قائلاً: إن أدخلتني النار أعلمت أهلها أني أحبك"!

إنّ البرهــان هــو أول سيف في هــذه المعركة والتحــدي. لأنّ عدوّ الله والإنسان سيقدّم له تفســيراً مناقضاً لحقيقة ما يجري، حتى يصوّر الحقّ تعالى كعدو يبغض الإنسان. وما ثمة شيء أشد سوءاً من هذا الخطأ. ولهذا، كان إبليس اللعين مظهــر الجلال المطلق؛ فمن أدرك حقيقة عداوته ودرجة شرّه، علم أنه وقعر جهنم متساويان. وليست جهنم في حقيقة أمرها سوى ظهــور النقمة والقهر الإلهي في أعلى درجاته. لا شك أن تفسير الشيطان باطل محض؛ ولهذا كان عليه أن يمزجه بالحق، ليصبح مقبولاً! إن المغالطات التي تشبه الحق من أكبر مكائد الشيطان الرجيم. وهي التي تعبّر عن آخر ما يصل إليه على مستوى الإضلال والغواية. فكل إغراء شيطاني لا ينتهي إلى الفكــر سيكون ضعيف التأثير. ولهــذا نلاحظ كيف يبرر المجرمون ما

يقترفونه بالمعتقدات والأيدولوجيات. فيعلم حينئذ لماذا كان سلاح البرهان العقلي أحب مخلوق عند الله. فمن تمكّن من قطع أغصان شجرة المغالطات وتجفيف جذورها الخبيثة بقوة العقل ومنطقه، صار مستعدّاً لاجتثاث هذه الشجرة الخبيثة بنور الايمان. "فلا بدّ للسالك أن يُحكم أوّلاً بالبرهان الحكميّ حقيقة لا مؤثّر في الوجود إلا الله، ولا يفرّ من المعارف الإلهيّة التي هي غاية بعثة الأنبياء، ولا يعرض عن تذكّر الحقّ والشؤون الذاتية والصفاتية. فإنّ منبع جميع السّعادات هو تذكّر الحقّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكا﴾". [معراج السالكين].

"إنّ البرهان يقول لنا "لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله" وهذا أحد معاني لا إله إلا الله، وببركة هذا البرهان نقطع يد تصرّف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونرجع ملكوت العوالم وملكها إلى صاحبها، ونظهر حقيقة ﴿له ما في السموات والأرض﴾، ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾، و﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾". [معراج السالكين].

إنّ معركة التّفسير والتفّسير المتقابل لن تتوقّف عند حدود المواجهة بين شبهات الباطل ومغالطاته وأنوار البرهان واستدلالاته؛ فسوف ينتقل إبليس اللعين ـ بما أعطي من إمكانات للنفوذ إلى أعماق القلوب ـ إلى مرتبة أعلى. وهناك لا ينفع سوى الايمان القويّ والقلب الثابت؛ هناك، حيث البلاء العظيم والموقف الرهيب، لا ينفع العلم وحده، بل عليه أن يكمل طريق الايمان بتثبيت دور العقل في أشد اللحظات، وإلا جرى عليه ما يحدثنا عنه الإمام الخميني قدس سره في لحظات الموت وسكراته حيث: "... حتى اسم الله سبحانه وتعالى واسم الرّسول الخاتم ودين الإسلام الشريف، والكتاب الإلهيّ المقدّس والأئمّة الهداة وسائر المعارف التي لم يوصلها إلى القلب؛ فينساها كلّها."

فبالإضافة إلى الحركة العلميّة الاستدلالية، يحتاج السالك إلى الحركة القلبيّــة المعنويّة، التي تتمحور حول طرد المظاهــر الجديدة للباطل. وعليه أن يصــون نفسه بهذه الرياضات القلبية من الوقوع في أسر جمال الدنيا وزينتها التي تمثّل في الحقيقة ظهور جلال الآخرة ونقمتها. فجهنم هي باطن الدنيا: وإن جهنم محيطة بالكافرين. قال الله تعالى: ﴿فمن يرد الحياة الدنيا وسعى إليها سعيها أولئك نوفي لهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون أولئك ليســ لهم في الآخرة إلا النار﴾. يقول الإمام الخميني قدس سره: "الإنسان يمكن أن يكون مظهراً لأسماء اللــه، والآية الكبرى الإلهيّة بالرياضات القلبية، ويكون وجــوده وجوداً ربّانيــا، ويكون المتصرّف في مملكتــه يدي الجمال والجلال الالهي." [معراج السالكين].

فتكــون نتيجة هــذه الرياضــة إشراقة نــور أعلى وأنور مــن البرهان الاستــدلالي والإيمان العلمــي؛ وهو "مقام المشاهدة. وهو نــور إلهيّ وتجلٍّ رحمانيّ يظهر في سرّ السالك تبعاً للتّجليات الأسمائيّة والصفاتيّة، وينوّر جميع قلبه بنور شهوديّ". [معراج السالكين].

وقد أعدّ الله لهذا الإنسان الذي هو لا شيء أفضل وسيلة للعروج إلى مقام وصاله واتّصاله بالبحر اللامتناهي لعالم الأسماء والتجلّيات في ظلّ الاســم الأعظم. يقول الإمام الخمينــي قدس سره: "إنّ أوقات الصلاة هي أوقات الحضور في جناب القدس لحضرة ذي الجلال، وأنّ الحقّ تعالى ملك الملوك والعظيم المطلق في تلك الأوقات دعا عبده الضعيف اللاشيء إلى مناجاته، وأذن لــه بالدخــول إلى دار كرامته حتى يفوز بالسعــادات الأبدية ويجد السّرور والبهجات الدائمية". [معراج السالكين].

"وهــذان المقامان - أعني مقام عزّ الربوبيــة الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبوديــة الذي هو رقيقتــه - مرموزان في جميع العبــادات وبالأخص في

الصلاة التي لها مقام الجامعية، ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الإسم الأعظم بل هي عينه". [معراج السالكين].

فلا ينبغي لهذا المسكين أن يجعل قلبه وعاء إلقاءات الشيطان، الذي ليس له همّ سوى قلب كل الحقائق والتلاعب بالآيات وتخريبها. حيث يؤدي ذلك إلى الحرمان من هذه الفرصة العظيمة التي أعدّها الله بيدي جماله وجلاله لتكون معراج قربه ووصاله؛ يقول الإمام الخميني قدس سره: "وفي الحديث قال الصادق عليه السلام: "اذا كبّرت فاستصغر ما بين العلا والثرى دون كبريائه فإن الله إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني، وعزّتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسارّة بمناجاتي". فهو عليه السلام يقول إذا كبّرت فاستصغر في محضر كبرياء تلك الذّات المقدّسة ما في الكون من الأرض إلى العرش لأنّ الله تبارك وتعالى اذا رأى عبداً يكبّر ولكن في قلبه علّة بشأن حقيقة التكبير ـ يعني أنّ قلبه لا يوافق ما يجريه على اللسان ـ يقول: يا كاذب أتخدعني وعزّتي وجلالي.. إلى آخر الحديث." [معراج السالكين].

"اللهمّ إنّ قدم سيرنا عاجزة عن الوصول إلى جناب قدسك، وأيدينا قاصرة عن ذيل أنسك، وقد حجبت حجب الشهوات والغفلة بصائرنا عن جمالك الجميل، وإن الأستار الكثيفة لحبّ الدنيا والشيطنة أبعدت قلوبنا عن التوجّه إلى عز جلالك." [معراج السالكين].



"مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ".



أهمية معرفة الله وآثارها

أهمية معرفة الله وآثارها

"فأنــت يا ابن آدم وقد جعلت بذراً للّقاء، وخُلقت للمعرفة، واصطفاك الله تعالى لنفسه، وخمّرك بيدي جماله وجلاله، وجعلك مسجوداً للملائكة ومحسوداً لإبليس." [معراج السالكين].

إذا كانت جنّة الله عزّ وجل هي الحضرة الإلهيّة المرضيّة عنده، فلا بدّ أن تكــون بكل ما فيها مظهراً لاسمه الأعظم. ولأنّها آخر الحضرات وأعلاها، فلا يُتصوّر أن يكون العيش فيها وسيلة للانتقال من النّقص إلى الكمال. بل هي سفر دائمي في مقام الاسم الأعظم ومرتبته. فهذا الاسم الإلهيّ الأعظم والتجلي الرباني الأكرم، بسبب سعته وشموله وحيطته لكلّ عالم الوجود، غير متناهٍ على الإطلاق ومطلق بل فوق الإطلاق.

لن يكون في جنّة الله أيّة غفلة عن الاسم الأعظم، ولن يكون فيها ما لا يظهره بأعلى مراتبه وبحقيقته.

إن الغفلــة عن أي شيء لا تحدث إلا لوجود شيء آخر في البين. فكيف يكون في تلك الجنة أحد سواه. والكل هالك إلا وجهه ذو الجلال والإكرام. ولهذا كانت هذه الحضرة محل نظر الله تعالى بالأصالة، وسرّ بهجته، باعتبار

كونها مظهراً تامّاً لعظمته. فلا يكون أحد من أهلها وسكّانها إلا وهو مظهر ذلـك الاسم الأعظم: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾. فهم في روضة معرفة الذّات يُحبرون.

وإذا كان العالم كلّه قد وجد لأجل إظهار عظمة الله والثّناء عليه بجميع ألسنــة الوجود ومراتبه، فــلا يُعقل أن تكون عصــارة العوالم وخلاصتها وغايتها ـ التي هي جنّة الله ـ أرض الغفلة عن أعظم الثّناء وأفضل التمجيد وأعلى التكبير! كيف؟ والثّناء على الله وذكره هو أعظم كرامة وأعلى كمال وأشــدّ لذّة. وإنّما غفل من غفل عن هذا المعنى الرائع لحقيقة الجنة ولذّاتها، لأنّــه لم يجرّب في حياته من الذّكــر إلا لقلقة اللسان، ولم يحصل له منه سوى العناء والتّعب.

"فممّــا يوجب الأسف الشديد لأهل الله أنّ باباً من المعرفة الذي يمكن أن يُقال أنّه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء قد سدّوه على الناس بحيث يُعدّ التفــوّه به كفراً محضاً وصرف الزندقة. إنّ هؤلاء يرون معارف الأنبياء والأولياء فيما يختص بذات الحقّ تعالى وأسمائه وصفاته مساوية لمعارف العوام وربّات الحجال فيه، بل يظهر من هؤلاء أحياناً ما هو أعظم من ذلــك فيقول أحدهم: إنّ لفلان عقائد عامية حسنة فيا ليت لنا مثلما له من العقيدة العامية. وهذا الكلام منه صحيح لأنّ هذا المسكين الذي يتفوّه بهذا الكلام قد أضاع حتى العقائد العامية". [معراج السالكين].

فجنّة الله هــي الجنّة المنسوبة إليه لأنه المرضيــة عنده والغاية من كل الخلق. وبالرغم من أن كلّ حضرة أو أرض أو مكان هي لله تعالى، ما فيها مــن شيء إلا ويسبّحه ويعبده. ﴿وَإِنْ مِنْ شَــيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَليماً غَفُوراً﴾﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ

وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

إلّا أنّ الجنّة التي نسبها الله إلى ذاته هي التي تعبده وتذكره كما يحبّ ويرضى. ولا مرضيّ عند الله إلّا اسمه الأعظم الذي يمثّل الغاية القصوى لجميع الحركات الوجوديّة.

لقد خُلقت الأشياء كلّها لتنال شرف ذكر الله. فالاشياء مخلوقة للأنس والجن. وما خلق الله الجن والأنس إلا ليعبدوه. وليست العبادة إلا لذكر الحق تعالى. أما الجنّة فهي عبارة عن وصول الكائنات إلى مستقرها وغايتها؛ فلهذا كانت محل الذكر السنيّ. وفيها يبلغ الذكر أعلى مراتبه (حيث لا غفلة عن الأسماء الإلهيّة والشؤونات الربّانيّة أبداً). ﴿والذين آمنوا أشد ذكرا لله﴾.

إنّ معرفة الله لا يمكن أن تبلغ غاية تتوقف عندها، لأنّ شؤونات وتجليات عظمة الله لا نهاية لها ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ولأنّ عجائب عظمته لا تنقضي. فالسّير في هذه المعرفة، رحلة غير متناهيّة. ولهذا كان البقاء في الجنة والخلود!

ورُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: "أَطْيَبُ شَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ وَأَلَذُّهُ حُبُّ اللَّهِ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".[المستدرك].

ولكي يستحقّ الإنسان هذه الكرامة العظمى، ينبغي - في أقلّ تقدير وأضعف الايمان - أن يتمنّاها ويرغب بها ويرجوها؛ حتى إذا سنحت له وفُتحت أبوابها دخلها راغباً مسروراً. وما دام نظر الإنسان إلى الجنّة مقصوراً على لذّات النّفس ومشتهياتها، فإنّ وجهة سيره لا تكون إلى الجنّة، بل إلى النّفس، وربما إلى الشيطان. فليس الشيطان سوى الدعوة إلى الفقر والوصول إلى الحرمان والخسران كما قال تعالى: ﴿الشيطان

يعدكم الفقر﴾. ولن تكون النفس بمعزل عن كرامة قرب الحق تعالى سوى عين الفقر والعجز والنقص.

إنّ تفسير النّفوس النّاقصة للّذائذ الأخرويّة كمتع مادية ناشيء من استغراقها في المعاني الحسية؛ ولعلها تعرض عن هذا العرض الأدنى وتيمّم شطر وجودها نحو الوعود الإلهيّة. وهناك ستبدأ بالمتاجرة والمعاوضة مع ربّ العالمين. فهي تقدّم العبادة والعمل الصّالح، وهو عزّ وجلّ يعطي السّعادة الأبديّة واللذات الكبيرة. وفي ظلّ عبادة الله وطاعته والتوجّه إلى الفضائل واتّباع أنبيائه، يكتشف النّاس لذّة أرقى وأعلى من لذّات الأبدان وشهواتها. فهذه التّجربة كفيلة بنشوء توجّه آخر، هو المقصد الأعلى من بعث الأنبياء وإرسال المرسلين، تجربة التوجّه إلى الله وذكره والانقطاع إليه.. وهي تجربة تعلّمنا أنّ حقيقة الجنّة والجنّة الحقيقيّة هي الحضرة التي نعيش فيها أعلى السّعادات المعنويّة وهي لذّة معرفة الله وذكره وحبّه وعبادته.

"هدفنا الأساسي هو توجيه قلوب عباد الله لما خلقوا له وهو معرفة الله سبحانه التي هي فوق جميع السعادات، وكل شيء مقدّمة لها." [معراج السالكين].. ولعل ما ورد في بعض النصوص الشريفة من أنّ في الجنّة مقاماً ليس فيه حور وقصور بل ركوع وسجود، إشارة إلى هذا المعنى.

وفي حديثه عن الإخلاص الكامل الذي هو غاية الدين والعبادة، يقول الإمام الخميني: "وهو عبارة عن تصفية العمل من الوصول إلى لذّات جمال الله والوصول إلى بهجات أنوار السبحات غير المتناهية وهي جنّة اللقاء. وهذه المرتبة، أي جنّة اللقاء، هي من أهم مقاصد أهل المعرفة وأصحاب القلوب وأيدي آمال النوع عنها قاصرة، والأوحديّ من أهل المعرفة يتشرّف بشرف هذه السعادة، وأهل الحبّ والجذبة من كمّل أهل الله وأصفياء الله". [معراج السالكين].

إنّ المعنـى الواقعـيّ لطلب الجنّة هو طلب لقاء الله: ﴿فمـنْ كانَ يَرْجُوا لقاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّه أَحَداً﴾. وإنّ هذا الطّلب سيتجلّى في حياة الإنسان اليوميّة بالسّعي إلى معرفته. ولهذا، كانت المعرفة أفضـل مؤشّر على سير الإنسان التكامليّ. ولأنّ هذه المعرفة عنوان الحياة الأبديّة وروحها وأجمل لذاتها وبهجاتها، فإنّ صناعة الآخرة ليست موقوفة على المـوت والانتقال من هذا العالم الأدنى بحركـة الأجساد؛ بل هي في الإعراضـ عمّا سوى الحق تعالى، أي الإعراضـ عن هذا العرض الأدنى والدنيـا الدنية. وقـد روي عن نبيّ الله عيسى بن مـريم روح الله أنه قال: "موتـوا قبل أن تموتوا". فالموت عن الدّنيا، الـذي هو إماتة النّفس الطالبة للدنيا، يؤدي إلى تحقق الحياة الحقيقيّة حيث العيش في قرب الله وذكره.

وإذا كانت جهنّم والنّيران مظهر الشّقاء الأعظم، فمن الواضح أن أشدّ ما فيها هو البعد عن الله والذي لا يمكن لأحد أن يطيقه. وهذا هو أمير المؤمنين ومولى الموحدين عليه السلام يعتبر الأمر فوق طاقة الكاملين الواصلين: "فهبني يا إلهي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك". وإن وجود الإنسان قد امتزج بفطرة عشق الله وطلبه، وليست معرفته وحبّه سوى التعبير عن هذه الجبلة؛ و لهذا، سيكون هذا الانسان في منتهى العذاب والشقاء ما لم يدرك هـذا الحبّ واللقاء. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾.

إنّ إدراك المأمـول هو الذي يجلـب السّعادة. والشقاء الواقعيّ ليس إلا في مخالفـة ما تقتضيه فطرة عشق الله والوصـول إليه. وإنّ جميع الآمال والأمـاني البشريّـة هي أوهام حصلت من جـرّاء التّربية الباطلة والتلقين الخاطئ؛ إلّا أمل الوصول إلى الله، فإنّه يمثّل حقيقة وجوده وأصل خلقته.

فعندما تزول متعلّقات الآمال والأماني الكاذبة بهلاك كلّ شيء إلّا وجه

الله، لا يبقى من تلك الآمال إلّا مطلب واحد هو الله. ولأنّ هذا المقام هو مقام يوم القيامة حيث لا سعي ولا عمل، فإنّ حسرات الذين انتقلوا من هذا العالم عمياً عن الاسم الأعظم، هي حسرات تستوجب الإسراع بهم إلى عذابات الجحيم: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾. أمّا الذين شاهدوا في هذه الحياة بعض مظاهره، وتمنّوا الوصول إليه، ولكن لم تبلغ بهم أرجلهم العرجاء وعنانهم المرخيّ مقام قربه، فإنّهم يوشك أن ينالوا فيض رحمته ونور شفاعته.

ويجب أن نعلم أنّ تشكّل وجودنا الأولي على صورة القابليات والاستعدادات المحضة، إنّما كان على قابلية التحقق بالاسم الأعظم ولا غير. وما لم يتحقق القابل الكلي والطلب الاصلي بالفعلية والكمال، فإنّ صاحبه يكون كمن لم يدرك شيئاً من حظّ وجوده؛ وهذا هو الحرمان المبين وأصل أصول جميع الشّقاوات.

ولعل الأشقياء سيرون بعض الحجارة أو الحديد قد وصلت إلى مقام الاسم الأعظم، بعد مرورهما بأطوار التّكامل في ظل هداية ولاية الإنسان الكامل (الذي هو المظهر الأتمّ للاسم المقدّس) في حين أنهم لم يصلوا إلّا إلى ﴿سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾. فهؤلاء قد فرغت أوعية وجودهم من كل خير، حينما أعرضوا عن الله، وعن رضوانه الأكبر، فصارت ﴿أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾.

ولو تأمّلنا قليلاً في تشكّل السبب الجوهري للإعراض عن الله تعالى، لوجدناه متمثلاً في أمر واحد هو الشّرك. ولذلك كان كلّ ذنب مغفوراً إلّا هو، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً﴾، فالشرك توجّه إلى غير الله. وهو في النظر الساذج توجّه إلى الله وإلى غيره، لكنّه في الحقيقة نفيٌ لله وجهلٌ به. لأنّ من عرف

الله وآمن بأنّه تعالى متفرّد في الوجود وكمالاته، كيف يرى لغيره تأثيراً أو نفعاً أو وجوداً أو كمالاً؟!

إنّ معرفة الله على الحقيقة تنفي هذا الشّرك وتجتث جذوره، ولكي يصل السالك إلى حقيقة التوحيد وينفي كل أشكال الشرك والظلم، فعليه أن يستمر في طلب العلم ويتكامل في درجات المعرفة حتى يصل إلى المعرفة الراسخة التي يواجه بها كل أباطيل الشرك وأهواءه. هناك لن يبقى للشرك دعوة تقحمه في الظلم والفساد وتعميه عن طريق الرشاد.

"اعلم أيها العزيز أنه إذا علم السالك في طريق المعرفة أنّ المحامد والمدائح بتمامها مختصّة بذات الحقّ، وعلم أنّ قبض الوجود وبسطه منه، وعلم أنّ أزمّة الأمور في الأوّل والآخر والمبدأ والمنتهى بيد مالكيّته، وتجلّى لقلبه توحيد الذّات والصّفات والأفعال، فإنّه يحصر العبادة والاستعانة بالحقّ، ويرى جميع دار التحقّق خاضعة لذاته المقدّسة طوعاً وكرها، ولا يرى قادرًا في دار التحقّق حتى ينسب الإعانة اليه".[معراج السالكين].

إنّ الشّرك ينبع من التوجّه إلى غير الله، باعتبار أن هذا الغير مصدر الخير أو النّفع أو تحقيق الطّلبات. ويتجلى هذا الشرك في الحياة الدنيا ويتأطر في منظومة عقائديّة يحميها النّظام الاجتماعيّ-السياسيّ. فالأخير يقوم عليها، ولكي يدوم يرى وجوب المحافظة عليها بشتى السبل. وإنّما يبقى النّظام السياسيّ في أيّ مجتمع لأنّ أبناء هذا المجتمع يرون فيه حفظ مصالحهم. فهم عابدون له وخاضعون، لأنّهم عبدوا مصالحهم وأهواءهم.

إن عبادة الأنا التي تنبع من رؤية النفس مقابل ذات الحقّ تعالى، هي التي تفضي إلى تشكّل ذلك النّظام الاعتقادي الباطل. ولأنّ التجلّي الأعظم لذات الحقّ تعالى هو الاسم الأعظم، فإن شهوده هو الأمر الوحيد الذي يعبّر عن شهود الذات الإلهية والتوحيد الذاتي، وبالتالي يمنع من شهود النفس

ورؤيتها الذي يعد أصل كل القــذارات. وإذا أردنا أن نقتلع شجرة الشّرك الخبيثــة التي تستمد من رؤية النفس والإنية، فعلينا أن نثبّت مطلباً واحداً وتوجهاً فارداً، هو طلب الاسم الأعظم الذي ارتضاه الله لنا ووجّه فطرتنا نحــوه. يقول الإمام الخميني: "وكلما كان النظــر إلى الإنّية والأنانية ورؤية النفــس وحبّها في الإنسان غالباً كان بعيداً عن كمال الإنسانية ومهجوراً من مقام القرب الربوبيّ، وأنّ حجاب رؤية النفس وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها، وخــرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميــع الحجب التي يُعدّ خرقها مقدّمة له. بل إنّ مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانيّة هو خرق هذا الحجاب. والخروج من هذا المنزل هو أوّل شــرط للسلوك إلى الله بل هو الميزان في حقانية الرياضة وبطلانها. فكلّ سالك يسلك بقدم الأنانية ورؤية النفس ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنيّة وحبّ النفس تكون رياضته باطلة. ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس (نفسك هي أمّ الأصنام) (مصراع بيت للعارف الرومي المشهور) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾". [معراج السالكين].

إنّ معرفة الله تعالى بالنحو الصحيح والدرجة المرضية ستتجلّى في ظل إدراك "لا شيئيّــة" النّفس وفقر كل ما سوى الله تعالى. وهذا هو التوحيد الخالص الــذي ينبع من نسبة كل كمال وخير إلى اللــه بالإصالة. ولهذا، كان التوحيــد أعزّ اسم عند الله تعــالى، لأنّه يجمع الحقيقة كلّها. وإذا كان حصول مقام المعرفة المرضيّة وتحقّقها الواقعيّ في حالة الشّهود والمعاينة، فكيف يجتمع في مشهد واحد شهودُ نور الله المطلق ورؤية ما سواه؛ حتى لــو أدعى الرائي أنه يشهد نوراً! لأن كل نور مهما بلغ لن يكون سوى ظل وفيء عند تجلي نوره الأعظم! فمقام الشّهود ـ الذي هو المعرفة الحقّة ـ أفضل

تعبير عن بلوغ الإنسان مقام العبوديّة المطلقة لله. لأنّ العبوديّة عبارة عن حالة الاعتراف ـ بكلّ مراتب الوجود ـ بالمملوكيّة لله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمينَ﴾. وفي ظلّ هذه العبوديّة يدرك العبد جوهر الرّبوبيّة.

وإذا كان على "السالك إلى الله أن يبدّل أوصافه وأخلاقه السيّئة إلى الأوصاف الكاملة ويفنى في بحر الأوصاف الكماليّة للحقّ، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي، ويبدّل الأرض المظلمة الشيطانية بأرض بيضاء مشرقة" [معراج السالكين]، فلا يتحقّق هذا المعنى إلا عندما يعيش العبد تلك الحقيقة النّابعة من معرفة الله. ولهذا حصر الله تعالى أهل الخشية له بالعلماء به: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾. فهناك تزول كل الحجب ويتّسع القلب الذي هو القابل الأعظم حيث لم تسعني أرضي ولا سمائي، ويصبح "القلب إلهيّاً لاهوتياً وتتجلّى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظاهر. وفي هذه الحالة، تفنى العبودية كليّاً وتختفي وتظهر الرّبوبيّة وتتجلّى. فيعرض على قلب السالك في هذه الحالة الطمأنينة والأنس، ويصبح العالم كله محبوبه وتأخذه الجذبات الإلهيّة وتُغفر خطاياه وزلّاته وتستتر، في ظلّ التجلّيات الحبّية، وتحصل له بدايات الولاية ولياقة الورود إلى محضر الأنس". [معراج السالكين].



"ظَهَرَت الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِه، وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِه، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلاً عَلَيْه، وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلاَلَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ".



إلى أي مدي يمكننا معرفة الله؟

إلى أي مدى يمكننا معرفة الله؟

إنّ قضيّة معرفة الله تعالى في حياة البشريّة هي القضيّة المحوريّة، التي تقسّمهم إلى فئات وطوائف متمايزة تمايزاً حقيقيّاً. ولا يوجد من قضيّة في هـذه الحياة تحتّم على الإنسان أن يتّخذ منها موقفاً واضحاً كهذه القضية، حتى لو ادّعى البعض أنها لا تعني لهم شيئاً. ففي أعماق كلّ إنسان موقف فكري ما تجاه خالقه وربّه ربّ العالم كلّه.

إنّ إبليس اللعين، الذي يهـدف إلى إلقاء العداوة والبغضاء بين النّاس، مـن أجل حرمانهم من مقام الخلافة الإلهيّة، يسعى إلى إخفاء هذا التّمايز الذي يقوم على أساس الموقف من حضور الحق في الحياة. كل ذلك لكي لا تصبح قضيّة الله قضيّة محوريّة وجدية في حياة الناس وشؤونهم؛ ولكي لا يدفعهم هذا الأمر إلى التفكير الجاد والبحث العميق.

فلـو أعلن البشر أنّ خلافاتهم كلّها ترجع إلى اختلاف عقائدهم وتمايز نظرتهـم إلى إله العالم، لحسمت القضيّة في اليوم نفسه لمصلحة الحقيقة!! وفي المقابل، فإن عدو الإنسانية الملعون كلّما تمكّن من تعمية القضيّة واخفاء سبب جميع مشكلات البشر، استطاع أن يغري العداوة بينهم أكثر فأكثر.

يثبت لنا البرهان أنّ نور الله ساطع إلى الدّرجة التي يستحيل معها أن لا يكون مشهوداً، فهو ﴿نور السموات والأرض﴾. وكل ما نراه ونشاهده من أشياء، فهو بفضل سطوع نوره عليها. ولا شك بأن شهود النور المبين سابق على شهود المرئي به، وإن غفل المشاهد عن ذلك. إن عظمة نور الله وفرط شدته تكون سبباً لأن لا يُرى إلا في حجاب المرائي؛ لكن عدم القدرة على شهود النور المطلق شيء، والغفلة عنه شيء آخر. ولا ينبغي أن ننسى أنّ الله قد خلق من نوره المطلق نوراً، ومن هذا النور المخلوق، خلق نوراً متنزلاً به بحسب عوالم الوجود، حتى صار في درجة قابلة للرؤية والاستدلال بالنسبة للمحجوبين. فما لم نرَ نور الله في حياتنا فنحن عميٌ بإرادتنا؛ وسوف تكون العاقبة أن نُحشر عمياً، ﴿وَمَنْ كانَ في هذه أَعْمى فَهُوَ في الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾. وبفضل هذا النّور المتنزّل تتمّ هداية كلّ موجود إلى النّور المطلق وإلى منبع الأنوار. "فزمام الأمر بيدك ولله الحجة البالغة قد هدى سبيل السعادة والشقاوة وأعطى التوفيقات الظاهرية والباطنية. فما منه تعالى ومن أوليائه قد تمّ." [معراج السالكين].

وهذا العمى عن نور الله في الحياة الدّنيا مع بقاء رؤية الأشياء بتغايرها وامتيازها عن ربّها، سيتحوّل إلى عمى مطلق حين تفنى الأشياء ويبقى وجه ربّها! وقد علمنا أنّ لكلّ شيء جهتين: جهة انتساب إلى ربّه، وهي حقيقته؛ وجهة انتساب إلى نفسه وهي قيوده العدميّة التي تفنى عند تجلّي الرّبّ باسمه الأعظم. وهناك سيكتشف جميع النّاس أنّهم كانوا يعيشون قضيّة واحدة في حياتهم الدنيا ولا غير. وإنّما زيّن الشيطان لهم غفلتهم هذه لكي لا يتساءلوا حولها ويتفكّروا بشأنها، فتُتاح للأنبياء عندئذ فرصة إيصال كلمة الله إليهم، واسماعهم صوت الدّعوة إلى الله وإلى معرفته.

هناك سيتمايز النّاس بحسب هذه المعرفة ويتحقّق الفصل التّامّ بينهم،

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، لأنّ الوزن يومئذ الحقّ المطلق وهو الله تعالى، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فالناس في هذه الدنيا فيما يتعلق بمعرفة الله أصناف:

1. فمنهـم الجاحدون الذين يعيشـون اليقين بحضـور الله من جهة، ويعاندون حضوره من جهة أخرى ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

2. ومنهم الذين غفلوا عن حضوره تعالى بعد أن أسلموا قيادهم لأئمّة الكفر، وجعلوا حياتهم ومصيرهم تبعاً لهم.

3. ومنهم الذي يعيش درجة من حضوره تجعل مسار حياته العام متّجهاً نحو إدراك المزيد من حضوره ولو بعد الموت. وهؤلاء في خطرٍ أن يصبحوا من الفئة الثانية.

4. ومنهـم من يلتفت إلى حضور الربّ المتعال، بحيث يجعل تفاصيل حياته مبنية على أساس هذا الحضور. لكنّه قد يغفل هنا أو هناك.

5. ومنهم من صار حضور الله تعالى في قلبه بإدراك حضور الله في كل ما يحيط به. وهذا الذي يرى الله في كلّ شيء. فلا يمكن أن يغفل عنه أبداً.

إنّ دعوة الطائفة الأولى إلى معرفة الله تعالى لن تزيدهم إلّا كفراً وعناداً ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾. والتعامل المطلوب مع هذه الطّائفة يقتضي كسر شوكتهم؛ لأنّ أساس جحودهم هو الاستعلاء والظّلم، وبفضل سيطرتهم على من دونهم يتوهمون أنهم يزدادون سلطة وقدرة.

أمّـا الطائفة الثانيـة، فلو تحرروا من التّبعيّـة للمستكبرين والخضوع للظالمين، سواء من الناحية الاقتصاديّة أو الناحية السياسيّة، فقد تُتاح لهم

فرصة الاستماع إلى كلام الله الذي سيقرع قلوبهم الغافلة ويوقظها للنّداء الإلهيّ المغروز في أعماقهـا. وهؤلاء هم المستضعفون في بعض الجّهات، الذين أمرنا الله تعالى بالقتال في سبيلهم ﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾.

ويُعلم من هذه القضيّة أنّ من يتبع كافراً أو مجرماً لتأمين رزقه، سيتبعه في النّهاية في عقيدته؛ وقد قيل: "أن النّاس على دين ملوكهم".

ولأنّ الطّائفة الثالثة في خطر الوقوع في الغفلة التامّة، فيجب تذكيرهم وتنبيههم من خـلال توضيح المسارات وبلـورة الاتّجاهات وإتمام الحجة وقطـع الأعذار؛ لأنّهم قد يبدّلوا مسارهـم دون شعور منهم. وهؤلاء هم طمع إبليس الكبير. ولا شكّ بأنّ الفارق الجوهريّ بين مسارات الحياة هو الفـارق الاعتقاديّ المتمحور حول معرفة الله والتوجّه إليه. فلو استطعنا أن ننقل هؤلاء إلى مرحلة المواجهة العقائديّة والاهتمام بالمعارف الربّانية لضمنّا تمايزاً أساسيّاً يحقّق انتقالة هادئة إلى الطّائفة الرابعة كحدّ أدنى. ولأمثـال هؤلاء كان الوعظ والتذكير والتعليم والتبليغ؛ بشرط أن تتوجّه كل هـذا الأعمال نحو تفكيك المسـارات وبلورتها. ومن هنا يُعلم أهميّة التولّي والتبرّي في الفرائض الدينيّة.

ولأنّ الشياطين وأعوانهم يسعون إلى خلط الحقّ بالباطل، لكي لا يظهر الحـقّ جلياً، تراهم يتظاهرون بإعلان الأسف من وجود هذا التمايز الدينيّ أو المذهبـيّ وينسبـون كل حرب أو قتال بين البشـر إلى القضايا الإلهية. إن هـؤلاء في الواقع لا يريـدون إيقاف العداوات، ولا يهمهم كم يقتل من الناس بسبب الصراعـات والنزاعات، وإنّما يريدون تضييع الحقّ واخفاءه.

فقضيّة معرفة الله وتوحيده هي أكبر ما يجمع الناس وأمتن ما يحقق اللحمة بينهم. وللأسف، لقد استطاع أئمّة الكفر أن يفرضوا علينا إخفاء الفروقات العقائديّة إلى الدّرجة التي بتنا معها أمام خيارٍ ندفع معه أثماناً باهظة، فيما لو أردنا جعلها محوراً للنقاش والحوار البنّاء. ومما ساعدهم على ذلك غلبة النزعة الجدلية في طرح الفكــر الديني، وقلة الطروحات التي تعتمد على العرض الإيجابي والتصوير الجمالي للمعارف الإلهية.

إنّه لمن الصعب على أية ثقافة بُنيت على الجدال والمخاصمة في الفكر والعقيدة أن تكتشف جمال الحقّ وجاذبيته، وإن كان كامناً فيها!

لقد استطاع إبليس أن يجعل ساحــة الخلافات والفروقات العقائديّة ساحــة منفّرة وغير جاذبة من خلال جرّ أهــل العلم في كثير من الأحيان إلى الجدال. وكأنّ معرفة الله الذي لا منتهى لعظمته وجماله، وكأن الحديث عن آلائه وأسمائه، أصبحا منحصريــن في إثبات وجوده أو إثبات بعض صفاته. ولو أنّنا استبدلنا الخوض في المعارك العقائديّة بالحديث عن جمال الله وحضوره لظهــرت الفروقات والتمايزات دون عداء أو تنفير ولتحوّل هذا الأمر إلى أفضل ساحة للدّعوة إلى الله.

أجل، إنّ هذا الأمر لن يروق للجاحدين وسيسعون بكلّ ما أمكنهم لمنعه كمــا فعلوا دوماً. لكنّ الله تعالى قضى أنّ من يقذف بالحقّ الجميل منتصر لا محالة، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

إن الطّائفة الرّابعة التي غلبت التوجهات الإلهية على حياتها تعلم جيّداً أنّهــا إذا لم تمضِــ وراء الطّائفة الخامسة فلن تبلغ أجلها ولن تدرك غايتها من معرفة الله. وقد كانت تقوى هذه الطائفة سبباً لصفاء سرائرهم بحيث استطاعوا أن يميزوا الأصل من الفرع، والهدف من الوسيلة. ولمثل هؤلاء تحلو

المباحث الإلهيّة وتتزيّن المعارف الربّانيّة. ولأجلها خُلقوا وإليها سيُبعثون.

والطّائفة الخامسة هم العلماء الربّانيّون الذين هم الأدلّاء على الله والدّعاة إليه. فبهم عُرف الله، وبهم يُعبد الله. وإنّما صاروا كذلك لشدّة حضور الله في وجودهم. فلا تقدر كل الموانع أن تحجب انعكاس نوره من قلوبهم الصافية الواسعة. ولذلك اختارهم الله واصطفاهم لتبليغ رسالاته.

إنّ الحركة التي يقوم بها هؤلاء الثابتو القدم، تهدف إلى جعل تعليم المعارف الربانية محوراً لحركة الناس في مجتمعاتهم؛ وهم يدركون أن بلوغ هذا المنال لا يتم إلا بعد مرحلة القضاء على الموانع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، أو الحد من قوّتها ونفوذها. ولأنّ الواقعين في وسط ساحة الصّراع ما زالوا أسرى بيان الطّاغوت وكلماته، فإنّ دعوتهم ينبغي أن تكون بالمنطق والعقل والبرهان والدليل. وإنّما أسرهم الطواغيت في قوالب المغالطات والشبهات فأعموا عليهم مشاهدة الحقّ السّاطع، ولبّسوا عليهم أوهامهم. وقد أشار الإمام الخميني قدس سره إلى هذه المرحلة باعتبارها أوّل مقام أو مرتبة على طريق التّكامل المعرفيّ، وهي في الحقيقة بداية القطيعة مع إبليس وجنوده، فقال: "اعلم أنّ لأهل السلوك في هذا المقام وسائر المقامات مراتب ومدارج لا تُحصى. ونحن نذكر بعض هذه المراتب على النحو الكلّي. وأما الإحاطة بجميع الجوانب وإحصاء جميع المراتب فخارج عن عهدتي أنا اللاشيء، فإنّ "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق".

فمن تلك المراتب مرتبة "العلم". وهي أن يثبت بالسلوك العلمي والبرهان الفلسفي ذلّة العبودية وعزّة الربوبيّة. وهذا من لباب المعارف حيث اتّضح في العلوم العالية والحكمة المتعالية أنّ كل ما في دار التحقّق وتمام دائرة الوجود إنّما هو صرف الرّبط والتعلّق ومحض الفقر والفاقة. أمّا العزّة والملك والسلطان فمختصّة بذاته المقدّس الكبريائي وليس لأحد نصيبٌ من

حظوظ العزّة والكبرياء. [معراج السالكين].

لكنّ طول المكوث في هذه المرحلة يدل على أنّه ما زال للجاحدين صوت يُسمع؛ فبقاء الحاجة إلى الدليل بعد الاستدلال فرع وجود الشكّ. وقد علمنا أن التشكيك هو فنّ الطواغيت الأكبر. وقيل أنّ الشكّ بمقدار ما هو جسرٌ جيّد للوصول إلى اليقين، فهو منزلٌ سيّئ. لهذا، يجب عبور هذه المرحلة بسرعة، وعدم الاستغراق فيها. وخصوصاً إذا التفتنا إلى ما يمكن أن تستلذ به النفس هنا من الانتصار على المعارضين والتفوق على الطالبين، وإثبات الـذّات والأنا. يقول الإمام الخميني قدس سره: "فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبودية إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلميّ ومركب السير الفكري، يقع في حجاب العلم ويكون قد وصل إلى المقام الأوّل للإنسانية. ولكن هذا الحجاب من الحجب الغليظة وقد قالوا أنّ العلم هو الحجاب الأكبر. وعلى السالك ألا يبقى في هذا الحجاب بل يخرقه. ولعلّه إذا اقتنع بهذا المقام وسجن قلبه في هذا القيد يقع في الاستدراج. والاستدراج في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات العلمية الكثيرة، ويشغل فكره في البحث عن البراهين الكثيرة لهذا المقصد، فيحرم من المنازل الأخر، ويتعلّق قلبه بهذا المقام، ويغفل عن النتيجة المطلوبة وهي الوصول إلى فِناء الله، ويصرف عمره في حجاب البرهان وشعبه. وكلّما كثرت الفروع يزداد الحجاب ويشتدّ الاحتجاب عن الحقيقة. فعلى السالك ألاّ يغترّ بمكايد الشيطان في هذا المقام، فيحتجب بكثرة العلم وغزارته وقوّة البرهان عن الحقّ والحقيقة ويتأخّر عن السّير في الطّلب. بل يشمّر ذيل همّته، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقي حتى ينال المقام الثاني." [معراج السالكين]. ويقول: "ولا بد أن يعلم أن مجرّد العلم البرهاني والسير التفكّري في باب التوحيد الفعلي لا ينتج النتيجة المطلوبة، بل ربما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانية سبباً

لظلمة القلب وكدورته، وتمنع الإنسان من المقصد الاعلى." [معراج السالكين].

إنّ طبيعة الحياة وتحدّياتها تكشف لنا أنّ المرحلة الثانية من المعرفة ـ التي تدور حول عملية تثبيتهـا في القلب، والانتقال بها من التصوّرات الكليّة إلى المعايشـة اليوميّة، وجعلها مفسّرةً لكلّ تفاصيـل الحياة ـ هي المرحلة الأساسيّة، التي يمكن عدّها مرحلة البناء الحقيقيّ. فالايمان هو ثبات المعرفة في القلـب، بحيث يقدر صاحبه على استحضار معنى وجود الله وتدبيره للقضايا الكبرى في حياته بالحد الأدنى؛ مما يجعله مستعداً للاستفادة من هـذه القضايا والوقائع استفادة معنوية جيـدة. فيكون بذلك قد بلغ المرتبة الأولى منـه؛ ومن ثمّ تقوية هذا الحضور في القضايا الوسطى ثانياً وتالياً؛ فيكون الايمان في مراتبه الوسطى؛ حتى يصل إلى مرحلة يتمكّن معها من ملاحظة حضور الله في أبسط قضايا حياته، فيبلغ الايمان فيها درجته العليا. ومعه تزول الحاجة إلى الدليل! لا لتعارض الايمان مع الدليل، بل لأنّه صار أقوى منه. وتُسمّى هذه المرتبة بمقام الطمأنينة.

يقـول الإمـام الخميني قدس سره: "وهـو أن يكتب كل ما أدركـه عقله بقوة البرهان والسلـوك العلمي بقلم العقل على صحيفة قلبه، ويوصل حقيقة ذل العبودية وعزّ الربوبية إلى القلب، ويتحرر من القيود والحجب العلمية، وسنشير إلى ذلك المقام عما قريب إن شاء الله. فنتيجة المقام الثاني إذاً هي حصول الايمان بالحقائق. والمقام الثالث هو مقام الاطمئنان وطمأنينة النفس، وهـو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الايمان. قال تعالى مخاطبا خليله ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي﴾". [معراج السالكين].

ويقـول قدس سره: "وابراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام شامخ الايمان والعلم الخاص للأنبيـاء فقـال: "ربّ أرني كيف تحيي الموتى". فـأراد أن يرتقي من الايمان القلبي إلى مقام الاطمئنان الشهودي. وأعظم من ذلك أنّ الله تبارك وتعالى

يأمر نبيّه الخاتم ـ وهو أعرف خلق الله مطلقاً ـ في الكريمة الشريفة ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾". [مقام السالكين]

فإذا استقرّت قدم السّالك في طريق المعرفة ولاحظ ربّه في كلّ شؤونه عنــت له خلسات تصير لمعات وبوارق من مبدأ الغيب؛ وهي لا تزال تكثر وتكــثر حتى تصبح نوراً دائماً. قــال أمير المؤمنين عليه السلام: "قَــدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَــاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَــرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ الإِقَامَــةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِــهِ فِي قَرَارِ الأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ." [نهج البلاغة].

يقــول الإمام الخميني قدّس سرّه: "المقام الرابع مقــام المشاهدة. وهو نور إلهيّ وتجلٍّ رحماني يظهر في سرّ السّالك تبعاً للتجلّيات الأسمائيّة والصّفاتية، وينوّر جميع قلبه بنور شهوديّ. وفي هذا المقام يبرز أنموذجٌ من قرب النّوافل المعبّر عنه بـ "كنت سمعه وبصره". ويرى السّالك نفسه مستغرقاً في البحر اللامتناهــي ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر. ولكلّ مــن هذه المقامات استدراج يختصّ به، وللسالك فيه هلاك عظيم" [معراج السّالكين].

إنّ النّوع الرّابع من الإدراك والمعرفة هو الذي يشير إلى الدّرجة المطلوبة والمرضية، لأنّها:

1. تليق بشأن حضور الله وتتناسب مع ظهوره.
2. تنسجم مع حقيقة خلقة الإنسان وقابليّاته.
3. تدلّ على التغلب على تأثير الشيطان ووساوسه.

وفي هــذا المسير تكون المعرفة قد تكاملت واشتــدت حتّى تصل إلى الشّهود. ونظــراً إلى الفارق الكبير بين الشهود وما دونه، فكأنّ المعرفة فيه

تتبدّل نوعاً وكيفيّة. والسّالك البالـغ مقام الشّهود يدرك حينها أنّ ما كان يحصل في حركتـه التكامليّة هذه، ليس في ازديـاد التجلّيات الإلهيّة أو الـواردات القلبيّة، بل في ارتفاع الحجب وبطـلان الأوهام. "ينال السالك بمقتضى سبق الرّحمة وغلبة جهة "يلـي اللّهي"، الامداد الغيبي، ويحرق بالجـذوة الإلهيّـة ما بقي من الأنانيّة إن بقيت. ولعـلّ في كيفية تجلّي الحقّ للجبل واندكاكه وصعق موسى إشارة لما ذُكر." [معراج السّالكين].

وإذا كان التجلـي عبارة عن ظهور فعلية الصفات، فإنه يكون بالنسبة للــه تعالى كالأمر الواحد: ﴿وما أمرنـا إلا واحدة﴾. لأن أمره فعله. وإنما أمره كن فيكون. فليس عند الله حين بعد حين ولا تجل بعد آخر. وإنما هي قلوب العباد ترى التجليات بحسب المقامـات. فالسالك المسافر من عالم الخلق (وهم حجاب الحق) إلى الحق، ومن الكثرة الناشئة من ملاحظة الأغيار إلى الوحدة الحقة، فإن رؤيته للأشياء من جهة "يلي الخلقي" بعد خرق الحجاب تجعله يرى إشعاعات أنوار الذّات في كثرة ما شاء الله.

إنّ سلوك طريق التّكامل بقدم المعرفة هو الوسيلة التي ارتضاها الله لعباده ﴿يَرْفَعِ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيـرٌ﴾، لا لأنّها توصـل إلى الإحاطة به ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، بل لأنّها الطريقـة المثلى لاكتشاف الحقيقة. حقيقة عجزنا المطلق عن الإحاطة بكنه ذاته. ولهذا، عُدّ التفكّر في ذاته مذموماً، لأنّه يحكي عن الجّهل التامّ بحقيقته. أمّا إذا عرفنا الله تعالى بالدرجة التي تنسجم مع الابتهاج الذاتي، ولم نرم ما وراء ذلك، فلن نكون من الهالكين. إن الجهل بالمسؤولية تجاه معرفة الله تعالى قد يكون أصل جميع المهلكات. وقد سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ إِلَى قَوْلِهِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ

الصُّدُورِ فَمَنْ رَامَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ". [الكافي].

وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: "فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ". وفي مكان آخر قال عليه السلام: "وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلَى التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالزَّيْغِ وَالشِّقَاقِ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ". [نهج البلاغة]

إن الذي يعبّر عن العلاقة الأصيلة الوجودية التي تربط المخلوق بالخالق عز وجل هو العجز والفقر والذلّ الإمكاني للمخلوق، والعزّ والكبرياء والغنى والوجوب للخالق؛ وهي مختصرة في ذلّ العبودية وعزّ الربوبية. ولأنّ المعرفة بالشيء هي نوع من أنواع التسلّط عليه، لما فيها من إحاطة للعالم بالمعلوم، فلا يُتصوّر أن تبلغ معرفتنا بالله هذه الدّرجة أبداً، لأن وجوده تعالى قد أحاط بكل شيء، ولا يحيطون به علما. هذه هي المعرفة التي تعصمنا من جهالة تصور الإحاطة بالخالق وإن كنّا في كثير من الأحيان ننفي وقوعنا بها. فالمعصومون المطهرون من إدعاء الإحاطة ليسوا سوى الراسخين في العلم، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: "رأس الحكمة مخافة الله". وقال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾. فأهل الحكمة الراسخين في المعرفة هم الذين يخافون مقام الله ولا يعتدون عليه.

من الممكن أن يسلك الإنسان طريقاً عبادياً لا يدور حول المعرفة، ويدرك في نهايته مدى عجزه عن الاحاطة بالله؛ لكن قدم المعرفة هي الأشد ثباتاً ورسوخا.

وفي الحركة العلمية الصحيحة يكون للعقل الدور المحوري. فبواسطته تفاض حقائق الوجود وتستقر في القلــوب المستعدة، وبدونه لا تكون إلّا الجهالة والضياع. "ربّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه".[نهج البلاغة]. ومن وصية رسول الإسلام العظيم ﷺ لعلي عليه السلام: "يا عليّ! إذا تقرّب العباد إلى خالقهم بأنواع البرّ فتقرّب إليه بالعقل تسبقهم". [مشكاة الأنوار]. يعلم أن من يسبق هم القدوة. وأهل العقل هم القدوة. والعقل هو واسطة العلم حتما.

وإنّما يزيد العقل ويكمــل بواسطة اشتغال النفس بمبادئ المعرفة الحقة والتوجه إلى معطياتها، التي هي عبارة عن تجلّيات الاسم الأعظم ومظاهره.

فانظــر إلى حال أكمل الخلق في المعرفة؛ وبالرغم مــن أنهم كانوا أشدّ النّاس ارتباطاً بالتجلّيات الإلهية ومعرفة بها، فقد كانوا أكثر النّاس اعترافاً بالعجــز عن إدراك كنه الذّات. وعليه لا تكــون غاية المعرفة الإحاطة بالله تعالى، بل عمق التوجّه إلى الذّات وشدته التي هي حبّ الله وعشقه.

يقــول الإمام الخمينــيّ قدس سره: "... فتجلّى بالتجلّــي الأزليّ بأعلى مراتب التجلّيــات في حضرة الذّات للذّات. وهــذا التجلّي وإظهار ما في المكنون الغيبيّ والمقارعة الذاتيّة هو الكلام الذاتيّ الذي وقع بلسان الذّات في حضرة الغيــب، ومشاهدة هذا التجلّي الكلاميّ هو سمع الــذّات، وثناء الذّات هذا على ذات الحقّ هو ثناء الحقّ الذي تعجز سائر الموجودات عن إدراكه. كما أنّ الذّات المقدّسة للنبيّ الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، ومعلوم أنّ إحصــاء الثّناء فرع المعرفة بالكمال والجمال، وحيــث أنّ المعرفة التامة للجمــال المطلق لا تحصل، فالثناء الحقيقي لا يقــع وغاية معرفة أصحاب المعرفة عرفان العجز." [معراج السّالكين].

وفي موضــع آخر يقــول قدس سره: "إنّ التسبيح هــو التنزيه عن التوصيف

بالتحميـد والتهليل. وهـو من المقامات الشاملة، والعبـد السّالك لا بدّ أن يتوجّه إليه في جميـع العبادات ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف والثناء على الحقّ ولا يظنّن أنّ في إمكان العبد القيام بحقّ العبوديّة فضلاً عن القيام بحـقّ الرّبوبيّة الذي انقطعت عنه أعين آمـال كمّل الأولياء وتقاصرت عن ذيله أيدي الأعاظم من أصحاب المعرفة (عنقا شكاركس نشود دام بازكير) فلهذه الجّهة قالوا إنّ كمال المعرفة لأهل المعارف عرفان عجزهم. نعم حيث أنّ الرّحمة الواسعة للحقّ جل وعلا شاملة لنا نحن العباد الضّعاف فرخّص لنا نحن المساكين بالدّخول إلى جناب خدمته بسعة رحمته. وتفضّل بإجازة الورود في مثل هذا المقام المقدّس المنزّه الذي انقصمت ظهور الكروبيين عن الدنّو منه. وهذا من أعظم تفضّلات وأيادي الذّات المقدّسة لوليّ النّعمة على عباده يعرف قدره أهل المعرفة والأولياء الكمّل وأهل الله على قدر معرفتهم وأمّا نحن المحجوبون المتأخّرون عن كلّ مقام ومنزلة والمحرومون البعيدون عن كلّ كمال ومعرفة فعنه غافلون كليّا." [معراج السالكين].

"فيا أيّهـا الضّعيف، ففي الوقت الذي يعترف فيـه رسول الله بالعجز والتقصير ويقول: "ما عرفناك حقّ معرفتك وما عبدناك حقّ عبادتك"، وهو أعرف خلق الله، وعملـه أنور من أعمال جميع الناس وأعظم من جميعها وكـذا الأئمّة المعصومون يظهرون ذاك النحـو من القصور والتقصير في المحضر المقدّس؛ فماذا يتأتّى من بعوضة هزيلة." [معراج السالكين].

فالعـارف الحقيقيّ هو الذي أوصله عرفانه وعلمـه بالله إلى الاعتراف الحقيقي باستحالة معرفة الـذّات بما هي هي. وهو الذي يدرك مؤدى القول بإمكانية الإحاطة بالذات الإلهية المقدسة، في ضياع معنى الألوهيّة التي هي الفارق الجوهريّ بين الخالق والمخلوق. فانظر إلى كلمات هذا العارف الكبير كيف يبين لنا هذه المسألة، فلا يسد باب معرفة الله، الذي هو غاية الخلق، ولا

يوقعنا بالجهل والتقصير الذي هو أصل الشقاء:

"أمّا عظمة متكلّمه ومنشئه وصاحبه فهو العظيم المطلق الذي كانت جميع أنواع العظمة المتصوّرة في الملك والملكوت وجميع أنواع القدرة النّازلة من الغيب إلى الشهادة رشحة من تجلّيات عظمة فعل ذاته المقدّسة ولا يمكن أن يتجلّى الحقّ تعالى بالعظمة لأحد، وإنّما يتجلّى من وراء آلاف الحجب والسرادقات، كما في الحديث: "إنّ لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه دونه"". [معراج السالكين].

"إنّ تلك الآيات الكثيرة الراجعة إلى لقاء الله ومعرفة الله، والروايات الكثيرة في هذا الموضوع مع كثير من الإشارات والكنايات والصّراحات في الأدعية والمناجاة للأئمّة عليهم السّلام بمجرّد ما تصطدم بتلك العقيدة ـ التي نشأت في هذا الميدان وانتشرت من العوام بأنّ طريق معرفة الله مسدود بالكلّية حيث يقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب التفكّر في الذات على الوجه الممنوع بل الممتنع ـ فإمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيات والروايات، وكذلك الإشارات والكنايات والصّراحات في أدعية الأئمّة ومناجاتهم، وإمّا ألاّ يدخلوا في هذا الميدان أصلاً ولا يفتحوا على أنفسهم تلك المعارف التي هي قرّة عين الأنبياء والأولياء." [معراج السالكين].

إنّ الذين وصلوا إلى مقام المعرفة المرضيّة قد عبّدوا لنا الطّريق، وأكدّوا على أنّ البداية السليمة لسلوكه تكون في تحديد الموقف الواضح ـ معرفيّاً ـ من الذّات الإلهيّة. ولهذا، نجد الإمام الخمينيّ قدس سره يفتتح كتابه العرفانيّ المشهور بمصباح الهداية بالحديث عن معرفة الذّات، فيقول: "إنّ الذّات الإلهيّة في غيب وكمون لا اسم لها في عوالم الذّكر الحكيم ولا رسم، ولا أثر لحقيقتها المقدّسة بما هي هي. لا تتعلّق بها آمال العارفين،

وقلوب الأولياء الكاملين عن ساحة قدسها محجوبة، بل هي غير معروفة لأحــد من الأنبياء والمرسلين، ولهذا فهي غـير معبودة من قبل العابدين والسّالكين لأنّ العبادة فرع التوجّه والتوجّه فرع المعرفة حتّى قال أشرف الخليقــة أجمعين: ما عرفناك حقّ معرفتك ومــا عبدناك حقّ عبادتك. وقد ثبــت هذا في مدارك أصحاب القلوب حتّى قالــوا: إنّ العجز عن المعرفة غايــة معرفة أهل المكاشفة. ويعبّر أهــل الاصطلاح عنها بالهوية الغيبية الأحدية، وعنقاء المغرب."[لطائف عرفانية].

"هــذه الحقيقة الغيبية بذاتها لا تنظر نظر لطف أو قهر ولا تتوجّه توجّه رحمة أو غضب إلى العــوالم الغيبية والشهادتية من الروحانيين القاطنين في حضرة الملكوت والملائكة المقرّبين الساكنين في عالم الجبروت، بل هي بذاتهــا، أي بلا توسّط شيء لا تنظر إلى الأسماء والصفات، ولا تتجلّى بما هي هي في صورة أو مرآة بحيث يمكن الإشارة إليها. فالذات غيب مصون من الظهور، مستور غير مكشــوف عن وجهها حجاب النّور، فهو الباطن المطلق والغيب الذي لا يكون مبدأً لأي اشتقاق." [لطائف عرفانية].

وفي معراج السالكــين من آداب الصلاة يقول{{قدس سره}}: "إعلم أيها السالك سبيل المعرفة والتوحيد والعارج معارج التنزيه والتجريد أنّ الذات المقدّسة للحقّ تعالى من حيث هي منزّهة عــن التجلّيات الظاهرة والباطنة ومبرّأة عن الإشارة والرّسم والاسم والصّفة، فأيدي آمال أهل المعرفة قاصرة عن ذيــل كبريائه، وأرجل أصحاب القلــوب في السلوك عاجزة عن الوصول إلى محفــل قدسه. إنّ غاية معرفة الأولياء الكمّل هي: "ما عرفناك" ونهاية سير أصحاب الأسرار هي: "ما عبدناك"؛ ورئيس سلسلة أهل المعرفة وأمير أصحــاب التوحيد يقول في هذا المقام الرفيــع: "وكمال الإخلاص له نفي الصفــات عنه"، وإمام أهل السّلــوك وسيّد السّاجدين والعارفين يترنّم في

هــذا الجناب المنيع قائلاً: "ضلّت فيك الصّفات وتفسّخت دونك النّعوت"، وأصحاب السّلوك العلميّ والاصطلاحات يسمّون الذّات المقدّسة الغيب المصون والسرّ المكنون والعنقاء المُغرب والمجهول المطلق، ويقولون:

إنّ الذات بلا حجاب الأسماء والصّفات لن تتجلّى في مرآة من المرائي ولن تظهر في نشأة من نشآت الوجود أو في عالم من عوالم الغيب والشهود؛ ولكــن بحسب كلّ يوم هــو في شأن. أنّ للــذّات المقدّسة أسماء وصفات وشؤون جمالية وجلالية ولها أسماء ذاتية في مقام الأحدية الذي هو مقام الغيب، ولابدّ أن يقال لتلك الأسماء الأسماء الذاتيّة، وبتعيّن الأسماء الذاتية تتجلّى بالفيض الأقدس، وبهــذا التجلّي في كسوة الأسماء الذاتية يتعيّن ويظهر مقام الواحدية وحضرة الأسماء والصّفات ومقام الألوهيّة، فعلم أنه بعد الذّات المقدّسة من حيث هي، ثلاث مقامات ومشاهد أُخر: مقام الغيب الأحديّ، ومقام التجلّي بالفيض الأقدس، ولعلّ العماء الواردة في الحديث النبويّ تكون إشارة إليه ومقــام الواحدية الذي هو الاسم الأعظم بأحديّة الجمع، ومقام الأسماء والصّفات بالكثرة التفصيلية. وتفصيل هذه المقامات يحتاج إلى بسط خارج عن نطاق هذه الأوراق." [معراج السالكين].

ومن جهــة أخرى فإن العلم بأي تجلٍّ من تجلّيات الذّات المقدّسة، ما لم يكن متّصلا وموصلاً إلى الذّات الأحدية فلا يكون معرفة مرضيّة، بل هو شرك عند أهل المعرفة. ولكي يكون التجلي تجلياً فينبغي أن يكون دليلاً على ذات المتجلي؛ وفي الوقت نفسه لا يمكن إدراك كنه هذا التجلي الذي يرجع في الحقيقة إلى العجز عن إدراك الذات.

إنّ لــذات الحق تعالى حضوراً شاملاً مــع كلّ الأشياء؛ قال تعالى: ﴿هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ وما لم يكن له هذه المعية القيومية فهو معزول عن خلقه ومحــدود بهم. ومثل هذا لــن يكون إلها. ولهذا قال تعــالى: وهو الذي في

السماء إله وفي الأرض إله. "لَيْسَ في الأشْيَاء بِوَالِج، وَلاَ عَنْهَا بِخَارِج". [نهج البلاغة]، "لَمْ يَحْلُلْ في الأشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُوَ فيها كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا، فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ". [نهج البلاغة].

إنّ السـرّ وراء جذب الخلق إلى معدن الذّات قـد سبقت الإشارة إليه، ولا ينبغـي أن يغيـب عن بالنا ونحن نبحث عن علاقـة المعرفة بذات الله تعـالى ومدى إمكانيتها. وعليه، فإنّ إنكار هذه الحركة الرّجوعيّة العروجيّة إلى الـذات بحجة استحالة إدراك كنهها لهو من أدق حالات الجهل بالله تعالى. وهو يخفي في باطنه شركاً ينبغي أن نستعيذ منه. لأنّه تمييز للذّات في قبال الخلق وتقييد لها وتحديد؛ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا.

فليس في الوجود كلّه إلّا حركة واحدة تنتهي إلى الذّات (حبّاً وهيماناً وعبودية وقرباً) بالعجز عن معرفتها. فالعجز المطلق هنا هو مؤشّر الوصول! وسالك طريق المعرفة، ما لم يبلغ مقام معرفة الاسم الأعظم، بل التحقّق به، فإنّه سيكون في قرارة نفسه وفي أعماق ذاته معتقداً بإمكانية الإحاطة بالله، ولـو لم يشعر. ولهذا، يجب أن نستعيذ بالله مـن هذا الشرك ونسأل الحق تعالى أن يطهر قلوبنا منه لتصل إلى مقام القلب السليم حيث لا يوجد فيه إلا الله. ولعل النّاس في هذه القضيّة فئات ثلاث:

1. فئة بلغت مقام الاسم الأعظم.
2. فئة أعرضت عن معرفة الاسم الأعظم.
3. وفئة ظنّت أنّها تعرف الله، وهي لا تعرف شأن الاسم الأعظم.

فالأولى تكون معرفتهم مرضيّة عند الله تعالى، لأنّهم سيتمكنون بفضل معرفـة أعلى التجلّيـات من تكبير الذّات عن الوصـف؛ ويكون اعترافهم بالعجزعن المعرفة مع حصول الفناء التامّ (الذي هو أعلى توجّه إلى الذّات).

والفئة الثانية محرومة محجوبة.

والفئة الثالثة إن لم تدركها العناية الإلهية وتستيقظ من غفلتها، فإنها لن تحفظ ما عرفته من ربّها من تجليات؛ لأن جميع التجليات هي بالحقيقة إشعاعات حقيقة الاسم الأعظم.

فمن تصوّر أنّ مقام الاسم الأعظم هو مقام الذّات المقدّسة بمعزل عن التسميات، وحصر معرفة الله بمعرفة أسمائه الكثيرة، ولم يدرك معنى جمعية الأسماء في مقام التجلي الأعظم، فقد وقع في حجاب الكثرة الأسمائية وتكثير الذات. يقول الإمام الخميني قدس سره: "فالقاطنون في هذا المنزل الأدنى والدّرك الأسفل والأرض السفلى والساكنون في هذه القرية الظالم أهلها والبلد الميّت سكّانه لا يتجلّى لهم الحقّ إلاّ من وراء ألف حجاب من الظّلمة والنّور متراكمة بعضها فوق بعض. (فإنّ اللّه تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنتم في آخر العوالم وأسفلها) (وللّه سبعون ألف حجاب من نور، وسبعون ألف حجاب من ظلمة) والمستخلصون عن هذا السّجن وقيوده والطبيعة وحدودها، والمنزّهون عن قذارة الهيولى الجسمانيّة وهيئتها وظلمة عالم المادة وطبقاتها، الواصلون إلى عالم الملكوت يشاهدون من وجهه وجماله وبهائه أكثر من هؤلاء ألف ألف مرّة، ولكنّهم أيضاً في حجب نورانيّة وظلمانيّة.

والمتجرّدون عن هيئات عالم الملكوت وتعلّقاته وضيق عوالم الخيال والمثال، والقاطنون في البلد الطيّب ومقام القدس والطهارة يشاهدون من البهاء والجمال والوجه الباقي لذي الجلال: ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا وهمٌ أحاط به ولا فكرٌ حام حوله ولا عقلٌ بلغ إليه، من الأسرار والأنوار والتجلّيات والكرامات. ولكنّهم أيضاً في حجب التعيّنات والماهيّات. والواصل إلى باب الأبواب والمشاهد لجمال المحبوب بلا حجاب والمتحقّق بمقام الولاية المطلقة هم الذين خرجوا عن الدنيا والآخرة وتجرّدوا عن الغيب

والشهادة ولم يخلطوا العمل الصالح بالسّيئ.

بيني و بينك إنّيي ينـازعني   فارفع بلطفك إنّيي من البيـن

وهو مقام استهلاك جهة الخلقيّ في جهـة الربّي، وخلع نعلي الإمكان والتعيّن. ولا مقام فوق هذا إلاّ مقام الاستقرار والتمكين والرّجوع إلى الكثرة مـع حفظ الوحدة، فإنّه أخيرة منازل الإنسانيّـة. وليس وراء عبادان قرية. وللإشـارة إلى هذا المقـام ورد: "إنّ لنا مع اللّه حالات هو هو ونحن نحن".

[شرح دعاء السحر].

ولعـلّ أجمل كلام قيل بشأن هذا المقـام ما ورد عن الإمام الرّضا عليه السلام: "قـال رسول الله صلى الله عليه وآله: "ما خلـق الله أفضل منّي ولا أكـرم عليه منّي. قال علـيّ عليه السلام: فقلت يا رسول أنت أفضل أم جبرائيل؟ فقال: يا عليّ إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين والفضل بعدي لك يا عليّ وللأئمّة من بعدك، وإنّ الملائكـة لخدّامنا وخدّام محبّينا. يا عليّ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا. يا عليّ لولا نحن ما خلق الله آدم عليه السّلام ولا حوّاء ولا الجنّة والنّار، ولا السّماء والأرض، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربّنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه؟ لأنّ أوّل ما خلق الله عزّ وجل أرواحنا فأنطقها بتوحيده وتمجيده"." [لطائف عرفانية].

فانظر كيف أنّ ملائكة الله مع ما لهم من مقام معرفة الله (بما هم ملائكة)، كادوا أن يخلطوا بين نور الإنسان الكامل والذّات الإلهيّة، لو لم تتداركهم رحمة الله، حيث سبّح هذا الإنسان. فعُلّموا بهذا التسبيح، الذي هو تنزيه للذّات عن التوصيف، حقيقةَ المعرفة.

بتعليـم الإنسان الكامل وإنبائه خرجت ملائكـة الله إلى الوجود، لأن وجودهـا لا يمكـن أن ينفصل عن التسبيح والتمجيـد والمعرفة الحقيقية؛

وبفضله صار لها المنزلة الرّفيعة بعد أن تعلمت منه حقيقة التسبيح والتهليل والتمجيد. فحيثيّة وجود هذه الموجودات الشّريفة وسرّها هي في ما لها من مقــام المعرفة التي تتجلّى بهذا الثّنــاء. وكأنّ الحديث يقول: لولانا لما كانت الملائكة ملائكة؛ لأنها بالمعرفة الحقة صارت ملائكة الله.

إن أهــل البيــت العصمة، الذيــن أذهب الله عنهــم الرجس وطهّرهم تطهــيرًا، وهــم أفضل خلفاء الله في العالم، قد تحققــوا بمقام عظيم، من لم يعرفه لن يعرف معنى العجز عن معرفة الذّات المقدّسة. وبالعجز عن المعرفة نبلغ غاية المعرفة ويتحقق لنا مقام القرب وكمال الوصال. إلا أنّ الله تعالى قد تفضّل على ملائكته أوّلاً، وعلى خلقه ثانياً، وأنطق هذا المقام بالاعتراف بالعجز عن معرفة الله من خلال التّسبيح والتّحميد. فعلم أهل الله بفضلهم أنّ لربّهم مقاماً أسمى وأعلى من أن يدركه أحد.

إنّ الصّــلاة هي معراج المؤمن وأعظــم وسيلة جعلها الله تعالى تعبيراً عن عرفاننا. ولهذا، اختلفت صلاة كلّ إنسان بحسب معرفته. أمّا الصّلاة التي ارتضاها الله لنفسه فهي التي يُستحضر فيها مقامه الأسنى الأعظم، وينطلق المصلّي فيها من هذا الحضور للثّناء عليه بكلّ تجلّياته، فيبلغ بهذا الثّناء وتلك الصّلاة المقام عينه. يقول الإمام الخميني قدس سره: "المقامان - أعني مقــام عزّ الرّبوبيّــة الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبوديّــة الذي هو رقيقته - مرموزان في جميع العبادات وبالأخصّ في الصلاة التي لها مقام الجامعيّة، ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الاسم الأعظم بل هي عينه." ويقول قدس سره: "فالكمال المطلق إذاً وهو الوصول إلى فناء الله والاتصال بالبحــر الوجوبي غير المتناهي وشهود جمــال الأزل والاستغراق في بحر النّور المطلق يحصل في الصــلاة." [معراج السالكين].



بتشعيره المَشَاعرَ عُرِف أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وَبمُضَادَّته بَيْنَ الأُمُور عُرِف أَنْ لاَ ضدَّ لَهُ، وَبمُقَارنَته بَيْنَ الأَشْيَاء عُرِف أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بالظُّلْمَة، وَالْوُضُوحَ بالْبُهْمَة، وَالْجُمُودَ بالْبَلَل، وَالْحَرُورَ بالصَّرَد مُؤَلِّف بَيْنَ مُتَعَاديَاتها، مُقَارنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِداتهَا، مُفَرِّقٌ بيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. ".



مصادر العرفان:
أين نحصل على معرفة الله؟

مصادر العرفان:
أين نحصل على معرفة الله؟

" وليُعلم أنّ المعارف، من معرفة الذّات إلى معرفة الأفعال، قد ذُكرت في هذا الكتاب الجامع الإلهيّ على نحو تدركه كلّ طبقة على قدر استعدادها."

[معراج السالكين].

إذا كنا نبحث عن مصادر معرفة الله تعالى، فعلينا أن نتوجه إلى محالّ تجلّياته. إنّ الله عزّ وجلّ قد تجلى باسمه الأعظم في جميع حضرات الوجود ومراتبه، ولم يكن ثمّة شيء إلّا وهو يدلّ عليه. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد جعل الله تعالى لهذا الإنسان من قوة الإدراك ما يتناسب مع تلك الحضـرات، فلم يكن من شيء يـدل على ذاك التجلي الأعظـم إلا وكان للإنسان ما يدركه به:

أتحسب أنّك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبـين الذي بأحرفه يُقرأ المضمر

ولكــي تتحقّق المعرفة لا بد من وجود سنخيّة وجهة اشتراك بين العالم والمعلوم. ولما كانت مظاهر الاسم الأعظم غير متناهية، ولمّا أراد الله سبحانه لهــذا الإنسان أن يتعــرّف إليه في كلّ شيء، حتى لا يجهله في شيء، فقد جعل بينه وبين كلّ شيء نسبة وجودية.

لقــد تجلّى الله في كتابه، وفي أوليائــه الذين هم مرائي جماله وجلاله، وفي خلقه، وفي الكائنات والحوادث؛ وما على الإنسان إلا أن يتّصل بهذه المجالي اتصالاً لا حجاب فيه أو احتجاب، حتّى ينال شرف شهود تجلّيات الاسم الأعظم.

وعليه فإن أشهر مصادر معرفة الله تعالى هي هذه المصادر الأربعة:

1. كتاب الله.

2. أولياؤه (في مقاماتهم وسيرتهم العلميّة والعمليّة).

3. عالم التكوين(بكلّ مراتبه).

4. حوادث الحياة الاجتماعية (بكلّ تفاصيلها).

1. كتاب الله

يقــول الإمام الخميني قدس سره معرّفاً هذا المصدر العظيم للعرفان: "وحقيقة القرآن الإلهيّ الشّريف قبل تنزّله إلى المنازل الخلقيّة وتلبّسه بالأطوار الفعليّة هي من الشــؤون الذاتيّة والحقائق العلميّة للحضرة الواحديّة، وهو حقيقة الكلام النفسيّ الذي هو مقارعة ذاتيّة في الحضرة الاسمائيّة". [معراج السالكين].

عظمة القرآن الكريم تكمن في احتوائه على جميع مراتب التجلّي الإلهيّ؛ وهو المعنى المرموز في الدّعاء "وفيه اسمك الأعظم"؛ وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى بقوله: "إنّ الله تجلّى لخلقه بكتابه ولكن لا يبصرون".

ويؤكد الإمام قدس سره أنه لولا القرآن لانسد باب معرفة الله إلى الأبد. ومن

المناسب أن نشير إلى القضايا التالية:

1. في معنى انطواء القرآن على جميع مراتب التجلّيات.

2. في سرّ انسداد باب المعرفة لولا القرآن.

3. في كيفيّة الاستفادة العرفانيّة من كتاب الله.

إن جامعية القرآن الكريم لكل مراتب التجلي تتضح من خلال الالتفات إلى معنى بطون القرآن وكون حقيقته أعلى وأرقى وأعمق من المعاني التي ندركها من وراء الألفاظ. كما أن البحث في معنى الاسم الأعظم ـ والذي سيفصل لاحقاً ـ يشير إلى حقيقة كونيّة وجوديّة هي أعظم من أي موجود سوى الله تعالى. فلئن كانت الأرض والسموات تجلّيات إلهيّة، ولئن كانت الملائكة مظاهر ربانيّة، فإنّ الاسم الأعظم أعظم منها وأكبر. ولو كان تعريفنا لأي موجود بأنه منشأ الآثار، فإن آثار الاسم الأعظم هي أكبر من آثار جميع موجودات العوالم. فقولنا أن في كتاب الله حقيقة الاسم الأعظم يعني أن لهذا الكتاب الشريف حقائق وجودية، وقد كانت الألفاظ صورتها النازلة في آخر التعينات.

إن آيات الله المبثوثة في كل أرجاء السموات السبع (التي تمثل كليات العوالم الغيبية) لهي مطوية في الحقيقة القرآنية: ﴿وكل شيء أحصيناه في كتاب مبين﴾. وما في القرآن أعظم مما في هذه السموات والمراتب الوجودية!

"إن الكتاب التكويني الإلهي والقرآن الناطق الربّاني أيضاً نازل من عالم الغيب والخزينة المكنونة الإلهية مع سبعين ألف حجاب لحمل هذا الكتاب التدويني الإلهي وخلاص النفوس المنكوسة المسجونة عن سجن الطبيعة وهداية غرباء هذه الديار الموحشة إلى أوطانها، وإلاّ فإن تجلّي هذا الكتاب المقدّس والمكتوب السبحاني الأقدس بإشارة من إشاراته وتغمّز من غمزاته برفع بعض الحجب النورية على السموات والأرضين لأحرقت

أركانها أو على الملائكة المقرّبين لاندكت إنّياتها".[شرح دعاء السحر].

وإحـدى الدّلالات على هذا المعنـى حديث شريف يبيّن احتواء القرآن على جميع درجـات الجنّة، "إذا جاء يوم الحساب قيل لقـارئ القرآن إقرأ وأرقَ. فلا يكون في الجنة من الدرجات إلا بعدد آيات القرآن الكريم"، ومنها مـا رُوي عن الإمـام الصّادق عليه السّلام: "ما زلـت أردّد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها". وغيرها كثير يصرّح أو يشير إلى للقرآن حقيقة فوق تصور أي مخلوق.

أمّـا ما يتعلق بانسداد باب المعرفة لولا القرآن، فيعلم من خلال ارتباط سائـر المظاهر الإلهيّة بدور القرآن المحـوريّ في عملية التعبير عن الاسم الأعظم والنطق به:

فأمّا أهل بيت النبوّة ﷺ، فلا شك بأنّ كل تعاليمهم وهدايتهم-التي كانت جميع مساعيهم من أجلها - قد كانت من أجل تعليم كتاب الله، وإنّما بُعثوا وأنزلوا إلى النّاس ليبيّنوا لهم حقائقه: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِـمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فمن لم يدرك حقيقة هذه الرّابطة ومحورية هذا الدور، وعزل الكتاب عن العترة، فلن ينتفع من الكتاب ولا العترة؛ فينسدّ أمامه باب معرفة الله على الحقيقة. فكتاب الله موقوف فهمه على وجودهم وتعليمهم. وكلماتهم لا تُفهم إلّا إذا ظهر دورها في تعليم الكتاب الإلهيّ.

وأمّـا عالم التكوين، فإنّه لن ينتظم ليكون مظهر الاسم الأعظم، إلّا إذا أُقيم الكتاب كله وطبّقت معارفه عليه. وما دام الفساد ظاهراً في برّ التكوين وبحره، فإنّ مشهد الاسم الأعظم لن يتحقّق. وفي كتاب الله برنامج إصلاح العالم التكوينيّ. حتّى إذا صلُح بتطبيق الكتاب، ﴿أشرقت الأرض بنور ربّها،

وجاء ربّك والملك صفّاً صفّا﴾؛ هناك سيأتي الرب بحكومة الاسم الأعظم.

وأمّا حوادث الحياة الاجتماعية ومجرياتها، فهي، منذ أن نزل القرآن، تدور حول القرآن. فقد بُعث رسول الإسلام وانطلقت بفضله حركة اجتماعيّة ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا. وكل ما حدث ويحدث منذ صدر الإسلام قد كان في الواقــع انفعالاً وردّ فعل على دعوته المباركة. فما لم نفسّر أحداث الصّدر الأوّل تفسيراً قرآنيّاً، وما لم نتمكّن من قراءة الدّعوة منذ بدايتها على أنّها جهاد قرآنيّ وتفاعل معه، سنعجز عن قراءة أحداث العصور اللاحقة من خلال القرآن. وسيغلق باب معرفة الأحداث الاجتماعية الدالة على الله وقدرته العظيمة.

وتشــير العديد من الشواهد الرّوائيّة إلى هــذا الأمر، وتؤكّد وفقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾. إنّ التأويل عبارة عــن إرجاع كلّ الأحداث الاجتماعيّة والكونيّــة إلى القرآن الكريم. وهناك سيخبرنا الكتاب ـ بما لا يترك مجالاً للشكّ ـ عن كل ما جرى ويجري.

وفي حديث مروي عَنِ فُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ هَذه الرِّوَايَة: مَا مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، قَالَ: ظَهْرُهُ [تَنْزِيلُهُ] وَبَطْنُهُ تَأْوِيلُهُ وَمِنْهُ مَا قَدْ مَضَى وَمِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْرِي كَمَا تَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلَّ مَا جَاءَ تَأْوِيلُ شَيْءٍ يَكُونُ عَلَى الْأَمْوَاتِ كَمَا يَكُونُ عَلَى الْأَحْيَاءِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ نَحْنُ نَعْلَمُهُ﴾". [وسائل الشيعة]

إنّ فهم أحداث الحياة الاجتماعيّة الكبرى من خلال تأويل القرآن وتطبيقه عليها، لهو الطّريق الوحيد لمشاهدة حضور الله الأعظم فيها.

وفي القضيّــة الثالثة، يمثّــل الإمام الخميني في تراثــه العرفاني أنموذجاً

متقدماً في مجال الاستفادة المعرفية من كتاب الله المجيد. ويبدو أن الإمام قدس سره كان يواجه تيارين منحرفين أثّرا كثيراً في سدّ باب المعرفة؛ الأوّل: يتّهم أصحابُه كلَّ من يسعى للتدبّر في القرآن بأنّه يفسّره برأيه، وانطلاقاً من الحديث المرويّ عن نبيّ الإسلام أنّ "من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار"، ينهى هؤلاء عن جميع أشكال إبداء الرأي والاستنتاج من القرآن، فيصبح كتاب الله وفق هذه العقيدة مجرد كلمات وألفاظ للتبرّك والثواب. يقول الإمام متسائلاً انطلاقاً من بديهيات الفكر الديني: "اذا استفاد أحد من قوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، الذي يحصر جميع المحامد بالله ويخصّص جميع الثناءات بالحقّ تعالى، التوحيد الأفعالي، وقال بأنّه يستفاد من الآية الشريفة أنّ كلّ كمال وجمال وكلّ عزّة وجلال الموجودة في العالم وتنسبها العين الحولاء والقلب المحجوب إلى الموجودات هي من الحقّ تعالى وليس لموجود من قبل نفسه شيء، ولهذا تكون المحمدة والثناء خاصّة بالحقّ ولا يشاركه فيها أحد، فأيّ ربط لهذا بالتفسير حتى يسمّى بالتفسير بالرأي أو لا يسمّى؟". [معراج السالكين].

والتيار الآخر هو تيار التفسير الاعتباطيّ، الذي أضاع المنهج القائم على نظام القرآن اللغويّ، وابتعد عن دوره في التطبيق والتطابق مع النّظام التكوينيّ.

وكان الإمام يرى القرآن في جميع سياقاته اللغويّة محاكياً للنّظام التكوينيّ الذي يُفترض أن يكون تنزّلاً أو مطابقاً لمقام الاسم الأعظم. فكما أنّ عوالم الوجود مترتّبة ضمن سياق نزولي بدءاً من أعظم الحضرات والتجلّيات إلى منتهى نهاية الظّلمات، كذلك هو القرآن. يقول الإمام: "وبالجملة، فإنّ الله تبارك وتعالى لسعة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه وتنزّل به على حسب ما يناسب العوالم حتّى وصل إلى هذا

العالم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الالفاظ وصورة الحروف لخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم ونجاة المغلولين بأغلال الآمال والأماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوّة الإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين بل الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم، فمن هذه الجهة إنّ هذا الكتاب هو كتاب الدعوة إلى الحقّ والسعادة". [معراج السالكين].

وفي كتاب الله التدويني تمت رعاية هذا التدرّج التكويني، فصار معلماً ملحوظاً لكل من اتّبع قرآنه. لهذا نجد الإمام يتّبع هذا السّياق سعياً منه لإدراك حقائق الوجود التي لا تُعرف إلّا في انتظامها الوجوديّ. وعلى سبيل المثال، يقول الإمام: "اعلم أنّ سورة الحمد المباركة كما أنّها مشتملة على جميع مراتب الوجود، كذلك هي مشتملة على جميع مراتب السّلوك، ومشتملة بطريق الإشارة على جميع مقاصد القرآن. والغور في هذه المطالب وإن كان يحتاج إلى بسطٍ تام ومنطقٍ غير هذا المنطق، ولكن الإشارة إلى كلّ واحد منها لا تخلو من فائدة، بل فوائد، لأصحاب المعرفة واليقين. فنقول في المقام الأول: أنّه يمكن أن يكون بسم الله الرحمن الرحيم إشارة إلى دائرة الوجود بتمامها وقوسي النّزول والصّعود، فاسم الله مقام أحديّة القبض والبسط والرّحمن مقام البسط والظهور وهو قوس النزول. والرحيم مقام القبض والبطون وهو قوس الصّعود. والحمد لله يمكن أن يكون إشارة إلى عالم الجبروت والملكوت الأعلى التي حقائقها المحامد المطلقة. وربّ العالمين بمناسبة التربية وبمناسبة العالمين التي هي مقام السوائية والغيرية يمكن أن يكون إشارة إلى عوالم الطبيعة التي تكون بجوهر ذاتها متحرّكة ومتصرّمة وتحت التربية. ومالك يوم الدين إشارة الى مقام الوحدة والقهّارية ورجوع دائرة الوجود. وإلى هنا يختتم دائرة

الوجود بتمامها نزولاً وصعوداً". [معراج السالكين].

وفي مورد آخر نجده ﷺ يبيّن هذا المطلب بالصّراحة فيقول: "إنّ للسان والتكلّم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتب الوجود. وحيث أنّ الحمد في كلّ مورد على جميل والمدح على جمال وكمال، فالحقّ جلّ وعلا بحسب علمه الذاتيّ شاهد جماله الجميل في حضرة غيب الهويّة بأتمّ مراتب العلم والشهود فكان مبتهجاً بذاته الجميلة بأشدّ مراتب الابتهاج. فتجلّى بالتجلّي الأزليّ بأعلى مراتب التجلّيات في حضرة الذّات للذّات. وهذا التجلّي وإظهار ما في المكنون الغيبيّ والمقارعة الذاتيّة هو الكلام الذاتيّ الذي وقع بلسان الذّات في حضرة الغيب، ومشاهدة هذا التجلّي الكلامي هو سمع الذّات، وثناء الذّات هذا لذات الحقّ هو ثناء الحقّ الذي تعجز سائر الموجودات عن إدراكه. كما أنّ الذّات المقدّسة للنبيّ الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، ومعلومٌ أنّ إحصاء الثّناء فرع المعرفة بالكمال والجمال، وحيث أنّ المعرفة التامّة للجمال المطلق لا تحصل، فالثناء الحقيقيّ لا يقع وغاية معرفة أصحاب المعرفة عرفان العجز. ويقول أهل المعرفة: إنّ الحقّ تعالى يحمد ويمدح نفسه بالألسنة الخمسة وهي لسان الذّات من حيث هي، ولسان أحدية الغيب، ولسان الواحدية الجمعيّة، ولسان الأسماء التفصيليّة، ولسان الأعيان. وهذه الألسن غير لسان الظهور الذي أوّله لسان المشيئة الى آخر مراتب التعيّنات التي هي لسان الكثرات الوجوديّة. واعلم أنّ لجميع الموجودات حظّاً بل حظوظاً من عالم الغيب الذي هو الحياة المحضة، والحياة سارية في جميع دار الوجود." [معراج السالكين].

ويظهر هذا المنهج التفسيريّ في سعي الإمام لفهم سرّ تقديم الربّ في

قوله ﴿ربّ العالمين﴾ من سورة الفاتحة المباركة وذكر الرّحمن الرّحيم بعده، وفي تأخير المالك حيث يقول: "لعلّ في تقديم الرّب وذكر الرّحمن والرّحيم بعــده وفي تأخير المالك، إشارة لطيفة إلى كيفيّة سلوك الإنسان من النشأة الملكيّة الدنيويّة حتّى الفناء الكلّي أو حتّى مقام الحضور عند مالك الملوك. فالسّالك ما دام في مبادئ السّير فهو تحت تربية ربّ العالمين التدريجية؛ لأنّه أيضــاً من العالمين وسلوكه تحت تصــرّف الزمان والتدرّج. فاذا انسلخ عن عالم الطبيعة المتصرّمة بقدم السّلوك تتجلّى في قلبه مرتبة الأسماء المحيطة التــي لا تتعلّق بالعالم الذي يغلب عليه جانب السوائية، وحيث أنّ للاسم الرّحمن الشريف مزيد اختصاص بين الأسماء المحيطة فلهذه الجّهة قد ذكر، وحين أنّ الرّحمن ظهور الرّحمة ومرتبة البسط المطلق فقد قدّم على الرّحيم الأقرب الى أفق البطون. ففي السلوك العرفانيّ تتجلّى أوّلاً الأسماء الظاهرة وبعدها الأسماء الباطنة لأنّ سير السّالك من الكثرة إلى الوحدة حتّى ينتهي إلى الأسمــاء الباطنة المحضة التي منها اسم المالك. ففي التجلّي بالمالكيّة تضمحلّ كثرات عالم الغيب والشهــادة ويحصل الفناء الكلّي والحضور المطلق". [معراج السّالكين].

ويتجاوز الإمام تلك النّكات اللغويّة الدّائرة على لسان أهل اللغة، ليؤكّد مرّة أخرى على الانطباق بين كتــاب الله وعوالم الوجود، وكيف أنّ القرآن سبيــل الارتقاء فيها فيقول: "قد تبيّن من مقاطع هذه الرّسالة نكتة العدول عــن الغيبة إلى الخطاب، وهذا وإن كان بنفسه من محسّنات الكلام ومزايا البلاغــة وكثيراً ما يقع في كلام الفصحاء والبلغاء ويوجب حسن الكلام، ونفســ الالتفات من حــالٍ الى حال يرفع السأمة عــن المخاطب ويعطي روحــه نشاطاً جديدا، ولكن حيث أنّ الصّلاة معراج الوصول إلى حضرة القدس ومرقاة حصول مقام الأنس، فهذه السّورة الشريفة تقدّم لنا حكم

الترقّي الرّوحاني والسّفر العرفاني. وحيث أنّ العبد في بدء السّلوك إلى الله محجوب في الحجب الظلمانية لعالم الطّبع والحجب النورانيّة لعالم الغيب ومحبوس فيها، والسفر إلى الله هو الخروج من هذه الحجب بقدم السّلوك المعنويّ، وفي الحقيقة المهاجرة إلى الله هي الرّجوع من بيت النّفس وبيت الخلق إلى الله وترك الكثرات ورفض غبار الغيريّة وحصول التوحيدات والغيبة عن الخلق والحضور لدى الرّب، فإذا رأى في الآية الشريفة مالك يوم الدّين الكثرات منطوية تحت سطوع نور المالكيّة والقاهريّة، فتحصل له حالة المحو عن الكثرة ويحصل له الحضور في الحضرة، ويقدّم العبودية بالمخاطبة الحضوريّة ومشاهدة الجمال والجلال ويعرض مشاهداته لله وطلبه على محضر القدس ومحفل الأنس.

ولعلّ النّكتة في أنّ العبد يؤدّي هذا المقصد بضمير إيّاك هي أنّ هذا الضّمير راجع إلى الذّات مضمحلّةً فيها الكثرات. فيمكن أن تحصل للسّالك في هذا المقام حالة التوحيد الذّاتيّ وينصرف عن كثرة الأسماء والصّفات أيضاً وتكون وجهة القلب حضرة الذّات بلا حجب الكثرات. وهذا هو كمال التوحيد الذي يقوله إمام الموحّدين ومقدّم حلقة العارفين وقائد العاشقين ورأس سلسلة المجذوبين والمحبوبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده المعصومين: "وكمال التوحيد نفي الصفات عنه"، لأنّ للصّفة وجهة الغيريّة والكثرة. وهذا التوجّه إلى الكثرة الأسمائيّة بعيد عن سرائر التّوحيد وحقائق التّجريد، ولهذا فلعلّ سرّ خطيئة آدم عليه السلام كان التوجّه إلى الكثرة الأسمائية التي هي روح الشجرة المنهيّة."

إنّ في ألفاظ القرآن وبيانه حكاية عن تنزّل الحقيقة العظمى طوراً بعد طور، مثلما أنّ فيه بيان طريق الارتقاء إلى هذه الحقيقة بحسب مراتب الوجود. فمن نزل القرآن على قلبه دفعةً واحدة سيتدرّج في حركته

النّزوليّـة، لأجل خلاص المسجونين في سجن الطبيعـة المظلم: " فهذا الكتاب الإلهيّ العظيم الذي نزل من عالم الغيب الإلهيّ والقرب الرّبوبيّ، ولأجل مصلحتنا نحن المهجورين وخلاصنا نحن المسجونين في سجن الطّبيعة والمغلولين في سلاسـل أهواء النّفس والآمال قد صار في صورة اللفظ والكلام هو من أعظم مظاهر الرّحمة الإلهيّة المطلقة. ونحن الصمّ العمي لم نستفد منه بشيء ولا نستفيد. وإنّ الرّسول الخاتم والوليّ المطلق الأكـرم ـ الذي قدم من محضر القدس الرّبوبيّ ومحفل القرب والأنس الإلهيّ إلى منزل الغربـة والوحشة، وابتُلي بمعاشرة أمثال أبي جهل ومن هو شرّ منه وأنينه ليغان على قلبي قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية وما زال ـ هو الرّحمة الواسعة والكرامة الإلهيّة المطلقة، التي كان قدومها إلى هذه الدويرة لرحمة موجودات وسكنة العالم الأسفل وإخراجهم من دار الغربة والوحشة هذه. فهو صلى الله عليه وآله كالحمامة المطوّقة التي تلقي بنفسها إلى الشباك لتنجي رفقاءها منه.". [معراج السّالكين].

أمّا بالنسبة للمحجوبين أمثالنا، فلا سبيل لهم إلا باكتشاف نهج القرآن في العـروج والارتقاء المعنويّ من خلال نهجه اللغـوي، فإذا قرأوه واتّبعوا بيانه، سلك بهم طريقاً في العروج إلى الجنّة!

ومـن أبعاد المنهج التفسيريّ للإمام، والـذي يصبّ في خزانة المعارف الإلهيّة ويفتح باب العرفان الأصيل، نظرته إلى الألفاظ والكلمات القرآنيّة ودلالاتها على المعاني المطلقة المجـرّدة. وبهذه الطّريقة يوجّهنا الإمام إلى نقطـة البدء والانطلاق في رحلة العروج بالقـرآن؛ فيقول قدّس سرّه: "قال علماء الظّاهـر أنّ الرحمـن والرحيم مشتقّة من الرّحمـة ومأخوذ فيها العطوفة والرقّة. ورُوي عن ابن عبّاس: "أنّهما اسمان رقيقان أحدهما أرقّ من الآخر فالرّحمن الرقيق والرّحيم العطـوف على عباده بالرّزق والنّعم". وحيث أنّ

العطوفة والرقّة يلزمها الانفعال، فمن هذه الجهة قالوا بالتأويل والتوجيه في إطلاقهما على الذّات المقدّسة وذهبوا إلى أنّه مجاز، وبعض قالوا بإطلاق هذا النّحو من الأوصاف من قبيل: خذ الغايات واترك المبادئ. فإطلاقها على الحقّ بلحاظ الآثار والأفعال لا بلحاظ المبادئ والأوصاف، فمعنى الرّحمن والرّحيم في الحقّ أي من كان يعامل عباده بالرّحمة بل عدّ المعتزلة جميع صفات الحقّ من هذا القبيل أو ما يقرب منه. وبناءً عليه، فإطلاقها أيضاً على الحقّ مجاز، وعلى كلّ حال فكونها مجازاً بعيد وخصوصاً في الرّحمن، فإنّه بناءً على المجازيّة لا بدّ أن يلتزم بأمرٍ عجيب وهو أنّ هذه الكلمة قد وُضعت لمعنًى لا يجوز الاستعمال فيه ولا يجوّز، وفي الحقيقة هذا مجاز بلا حقيقة، فتأمّل. وقال أهل التّحقيق في الجواب على هذا النّوع من الإشكالات أنّ الألفاظ موضوعة للمعاني العامّة والحقائق المطلقة، فبناءً على هذا فالتقيّد بالعطوفة والرقّة ليس داخلاً في الموضوع له، وفيما وضع له لفظ الرّحمة كذلك، وهذا التقييد هو مخترع الأذهان العامّية وإلّا فلا دخل له في أصل الوضع، وهذا المطلب بعيد عن التّحقيق ظاهراً، لأنّه من المعلوم أنّ الواضع أيضاً هو أحد هؤلاء الأشخاص العرفيين، ولم يلاحظ في حين الوضع المعاني المجرّدة والحقائق المطلقة، نعم لو كان الواضع هو الحقّ تعالى أو الأنبياء بالوحي أو الإلهام الالهيين لكان لهذا المطلب وجه، ولكن هو أيضاً غير ثابت. وبالجملة، فظاهر هذا الكلام مخدوش. ولكن ليس من المعلوم أن يكون هذا الظّاهر أيضاً مقصوداً لأهل التّحقيق. بل يمكن أن يُقال في بيان هذا المطلب أنّ واضع الألفاظ وإن لم يلاحظ في حين الوضع المعاني المطلقة المجرّدة، ولكن ما وضعت له الألفاظ بإزائه هو المعاني المجرّدة المطلقة، فمثلاً لفظ النّور إذا أراد الواضع أن يضعه فما كان في لحاظه من الأنوار وإن كانت هذه الأنوار الحسّيّة العرضيّة لأنّه ما كان يدرك ما وراء هذه الأنوار؛ ولكن ما وقع لفظ النّور في إزائه هو الجّهة النّوريّة لا جهة اختلاط النّور

بالظلمـة بحيث لو قيل له بأنّ هذه الأنـوار العرضية المحدودة ليست نوراً صرفاً بل هي نورٌ مختلط بالظّلمة والفتور، فهل وضعت لفظ النّور بإزاء تلك الجّهة النوريّـة أو بإزاء النّورية والظّلمانية، فبالضّرورة كان الجواب أنّه في إزاء جهة النّورية، وأمّا جهة الظّلمة فليس لها دخل في الموضوع له بوجه من الوجوه. كما أنّا كلّنا نعلم أنّ الواضع حينما وضع لفظ النّار ما كان في نظره غير النيران الدنيوية وما كان سبباً لانتقاله إلى هذه الحقيقة هو النّيران الدنيويّة وكان غافلاً عن نار الآخرة ونار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، خصوصـاً اذا لم يكن الواضع معتقداً بعالم الآخرة، ومع ذلك لا تكون هذه الوسيلـة للانتقال موجبة للتقييد في الحقيقة، بل النّـار وقعت بإزاء الجّهة الناريّـة فلا نقول أنّ الواضع جرّد المعاني حتـى يكون أمراً مستغرباً بعيداً بـل نقول أنّ الألفـاظ وقعت في إزاء تلك الجّهات للمعاني من دون التقييد بقيد، فبناءً على هذا ليس ثمّة جهة للاستبعاد في الأمر، وكلّما كان المعنى خالياً من الغرائب والأجانب فهو إلى الحقيقة أقرب ومن شائبة المجاز أبعد، مثلاً كلمة نور وهي موضوعة لما فيه جهة الظاهريّة بالذّات والمظهريّة للغير وإن كان إطلاقهـا على هذه الأنوار العرضيّة الدنيويّة لا يخلو من الحقيقة لأنّ في إطلاقهـا عليها لم تلاحظ جهة المحدوديّة والاختلاط بالظّلمة، بل الملاحظ هو الظهور الذاتيّ والمظهريّة، ولكن إطلاقها على الأنوار الملكوتية التـي ظهورها أكمل وإلى أفق الذاتية أقـرب ومظهريتها أكثر كمّاً وكيفاً، واختلاطها بالظّلمة والنّقص أقل، إلى الحقيقة أقرب. وإطلاقها على الأنوار الجبروتية بهذا البيان أقرب إلى الحقيقة وإطلاقها على الذّات المقدّسة جلّ وعلا وهو نور الأنوار والخالص من جميع جهات الظّلمة وهو صرف النّور والنّور الصّرف إطلاقٌ حقيقيّ محض وخالص؛ بل يمكن أن يُقال أنّ النّور لو كان موضوعاً للظاهر بذاته والمظهر لغيره فإطلاقه على غير الحقّ تعالى حقيقـة عند العقول الجزئيـة، وأمّا عند العقول المؤيّـدة وأصحاب المعرفة

فمجـاز، وفقط إطلاقه على الحقّ تعالى حقيقة. وهكذا جميع الألفاظ التي وُضعت للمعاني الكمالية، أي تلك الأمور التي من سنخ الوجود والكمال."

[معراج السالكين].

إنّ تقييد الكلمات القرآنيّة بالمعـاني العرفيّة هو الفاجعة الكبرى التي حلّـت بالمسلمين والتي مهّدت لظاهـرة الاعتباط اللغـويّ في كلّ شيء؛ فضاعت المعاني في لجّة الكنايات والمترادفات وحصل التّناقض في الآراء والتفسـيرات. وبدل أن يكون كتاب الله تبياناً لكلّ اختلاف ومرجعاً لكلّ تنازع صار الاختلاف فيه نفسه. ومن المتوقّع والحال هذه، أن يكون مبحث معرفة الله، الذي هو جوهر القرآن وروحه، أكبر الضّحايا.

إنّ ضمير "هو" في السّور القرآنيّة هو عند العارف مبدأ لمعارف لا حصر لها. فعندما يأتي الحديث عن الله بهذا الضّمير، فهذا يعني أنّه إشارة إلى الـذّات الإلهيّة والهويّة الغيبيّة التي لا يحيط بهـا أحد. لكنّ الله تعالى يحدّثنا عن تجلّياتها بحسب التدرّج في مراتب الوجود. ولنأخذ عيّنة من كلام الإمام توضح كيفيّة استفادة أهل الحكمة والعرفان من ترتيب الألفاظ القرآنيّة وسياقاتها اللفظية: "يمكن أن يكون لسورة التوحيد المباركة التي نزلت للمتعمّقين في آخر الزمان تفسيرٌ حكميّ موافق للموازين الحكميّة والبراهين الفلسفيّـة وهذا ما استفدته من الشيـخ الجليل العارف الشاه آبـادي (مدّ ظلّه) فـ (هو) إشارة إلى صـرف الوجود والهوية المطلقة. وهو برهان على ستّة مطالب حكمية شامخة أثبتت في السورة المباركة للحق تعالى". [معراج السالكين].

فسورة التّوحيد تتضمّن دلالات وبراهين تثبت ستّة مطالب حكميّة هي:

1. مقام الألوهيّة.
2. مقام الأحديّة.

3. مقام الصمديّة.

4. عدم انفصال شيء منه.

5. عدم انفصاله عن شيء.

6. عدم الكفؤ والمثل.

فكيف يتوقّع قارئ عاديّ أن يكون هذا الضّمير المؤلّف من حرفين مفتاحاً لأعظم المطالب الحكميّة. والجواب أنّه الترتيب والسياق القرآنيّ الخاصّ الذي يعتني به الإمام الخمينيّ ومن مثله من العرفاء أشدّ الاعتناء. يقول الإمام: "المطلب الأول: مقام الألوهيّة؛ وهو مقام استجماع جميع الكمالات وأحديّة جمع الجمال والجلال. فإنّه قد ثبت في محلّه من المسفورات الحكميّة أنّ صرف الوجود والهويّة المطلقة هو صرف الكمال وإلا لزم ألّا يكون صرف الوجود أيضا. وحيث أنّ بيان هذا المطلب يطول ويحتاج إلى مقدّمات فأكتفي منه بالإشارة." [معراج السالكين].

1. بناءً على أنّ "هو" إشارة إلى صرف الوجود الذي لا يدرك كنهه أحد. ولأنّ العدم المطلق الذي يقابله ليس بشيء حتّى يكون منشأ لشيء. فإنّ كلّ كمال يرجع إلى صرف الوجود. فتحقّق أنّ له مقام الألوهيّة الذي يجمع كلّ الكمالات.

ويقول الإمام: "الثاني: مقام الأحدية وهو إشارة إلى البساطة التامّة العقلية والخارجية والماهوية الوجودية، والتنزّه عن مطلق التركيبات العقلية سواء أكانت جنساً وفصلاً أو مادّة وصورة عقلية أو خارجية، أو مادّة وصورة خارجية أو أجزاء مقدارية. والبرهان على هذا المطلب أيضاً هو برهان صرف الوجود والهويّة المطلقة لأنّ الصّرف إذا لم يكن أحديّ الذّات يلزم أن يخرج عن الصّرفية وينسلخ عن ذاتيته". [معراج السالكين].

2. فصرافة الوجود منزّهة عن أي تعيّن وتحديد؛ ولا بدّ أن تكون متفرّدة

بالوجود أيضاً. ولهذا قيل "صرف الوجود لا يتثنّى ولا يتكرّر". وقوله تعالى: "أحــد" إشارة إلى عدم وجود ثانٍ له. فقد يُقال أنّ الواحد يليه "اثنان" أمّا الأحد فليس له ثانٍ أو ثالث. وإذا ثبت للهويّة الإلهيّة والذات الغيبيّة صرافة الوجود، فهذا يعني أنّها متفرّدة به ولها مقام الأحديّة.

يقول الإمام: "الثالث: مقام الصمديّة: وهو الإشارة إلى نفي الماهية وعدم الجوف له؛ وكونه غير مجوّف يشير أيضاً إلى أنّه ليس له ماهيّة ويستحيل أن يعرضــ له النقص الإمكاني. لأنّ جميع الممكنات في مرتبة ذاتها التي هي بمنزلة باطنها وجوفها مجوّفة وخالية، وحيث أنّ الذّات المقدّسة صرف الوجود وهويّة مطلقة، فلا يعرض له النقص الإمكاني الذي أصله الماهية، لأنّ الماهيــة منتزعة من حــدّ الوجود، واعتبارها يكون مــن تعيّن الوجود. وصرف الوجود منزّه ومبرّأ عن الحدّ والتعيّن، لأنّ كل محدود هو هوية مقيّدة ووجود مخلوط لا مطلق ولا صرف". [معراج السالكين].

3. وإذا كان صــرف الوجود، فلا يُتصــوّر فيه أو إلى جانبه فراغ. فهو علــى هذا الأساس صمد. لأنّ الفراغ فرع الوجــود. وقد علمنا أنّ العدم المطلــق ليس بشيء. وما يقابل الوجود المطلق هو العدم المطلق لا الفراغ والجوفية. وعندما نشير إلى فراغ ما، فإنّنا نشير إلى حيّز وجوديّ ولا يمكن أن يكون تجلياً للعدم المطلق. فالفراغ أمرٌ وجوديّ ناقص من أحد مظاهر الوجود. وعليه، لمّا كانت الهويّة الغيبيّة صرف الوجود فلا يُتصوّر الفراغ فيها من الوجود.

يقــول الإمام: "الرابع: عدم انفصال شيء منــه لأن انفصال شيء عن شيء مستلزم للهيولائية بل للأجزاء المقدارية؛ وهذا ينافي الهويّة المطلقة وصرافــة الوجود. ووجود المعلولات مــن العلّة ليس بطريق الانفصال بل بطريق التجلّي والظهور والتّشوّن والصدور وهو أنه لا ينقص من صدورها

شيء من العلّة ولا يضاف برجوعها شيء إليها." [معراج السالكين].

4-5. وإذا ثبت عدم الفراغ وعرفنا معنى الصّمديّة انطلاقاً من فهم الهويّة الغيبيّة. فلا يُتصوّر فراغ لينفصل من الذّات شيءٌ يملأه أو فراغ ليخرج إليه. ولهذا، فهو لم يلد (أي يخرج شيئاً من ذاته إلى فراغ خارجه)، ولم يولد (أي يخرج من ذات أخرى ليملأ فراغاً). يقول الإمام: "الخامس: عدم انفصاله عن شيء وهذا مضافاً إلى المفسدة السّابقة ينافي صرافة الوجود وإطلاق الهوية من طريق آخر، لأنّه يلزم أن يتقدّم على صرف الوجود شيء آخر، وقد ثبت في الفلسفة العالية أنّ الصّرف أقدم الأشياء والمتعيّن متأخّر ويأتي بعد عن المطلق." [معراج السالكين]. ويقول: "السادس: عدم الكفؤ والمثل ونفي المثل والشّبيه وهو أيضاً ثابت ببرهان "صرف الوجود لا يتكرّر"، فلا تُتصوّر هويّتان مطلقتان، وليس المقيد للمطلق صنواً ونظيرا." [معراج السالكين].

6. ولمّا كان الحقّ تعالى بذاته صرف الوجود، فلا مجال لأن يكون إلى جانبه أحد يشبهه أو يماثله، لأنّه تعالى لم يترك لغيره في الوجود مجالاً. فالوجود كلّه له والعدم ليس بشيء حتّى يصدر منه شيء.

والبعد الآخر في الاستفادة العرفانيّة من القرآن، بحسب نهج الإمام، أن تكون قراءتنا له بعد التدبّر والفهم، تلقيناً للقلب بحقائقه. وهذا هو المعنى الكامن في الذّكر. يقول الإمام: "وأمّا للمتوسّطين وأمثالنا النّاقصين فالأدب أن نسمَ القلب بسمة العبوديّة وسمتها عند التسمية ونخبر القلب عن سمات الله والآيات والعلامات الإلهيّة ولا نكتفي بلقلقة اللسان، فلعلّ من العنايات الأزلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منّا وينفتح لقلوبنا طريق إلى تعلّم الأسماء ويحصل سبيل إلى المقصود". [معراج السالكين].

إنّ عقل العارف ينطلق تارةً من اكتشافاته المباشرة للوقائع، فيلجأ إلى القرآن باحثاً عن الشواهد المؤيدة لما وصل إليه. وقد يكون عقله

محاطــاً ببعض الشوائب التي لم تتمكن الرياضــة المعنويّة من القضاء عليهــا وتصفيتهــا، فيصحّح له القــرآن ما وصل إليــه. فهو لا يعرض القــرآن علــى عقله، وإنّما يعرض عقلــه على القرآن، فيتعــرّف منه على حقائق وجوديّة مــا كان ليصل إليها بعقله أبداً. وإنّما كانت هذه العطايا العرفانيّة جوائز إلهية لرسوخه وتعبّده وتسليمه لربّه في كتابه، وتسليم عقله وفكره وقلبه لكلّ ما نزل به.

2 . مقامات الأولياء وسيرتهم

ويعبّر الإمام عن اتّصاله بالمقامات المعنوية والسنّة المطهّرة لأهل بيت النبوّة (صلّــى الله عليهم أجمعين)، واستمداده منهم في بحثه عن المظهر الأتمّ الأعظم في العديد من المناسبات. ومن الطبيعيّ لفقيه متبحّر كالإمام الخمينــيّ أن يكــون قد جال في آفاق ما جاء عنهــم وغاص في أعماق ما ورد منهم، فيكون عرفانه رشحة من بحار أنوارهم. على أنّ شرحه لدعاء السّحر يمثّل أنموذجاً بارزاً لكيفيّة استفادة عارف حكيم من نصّ معصوم، إيماناً منه بأنّ فيه ضالّته. يقول الإمام: "لمّا كان من أعظم النعم على العباد والرّحمة الواسعة في البلاد الأدعية المأثورة من خزائن الوحي والشّريعة وحملــة العلم والحكمة لأنّها الرابطة المعنويّة بين الخالق والمخلوق والحبل المتّصــل بين العاشــق والمعشوق والوسيلة للدخــول في حصنه الحصين والتمسّك بالعروة الوثقى والحبل المتين. ومن المستبين عدم إمكان الوصول إلى هذا الغرض الأقصى والمقصد الأعلى، إلّا مع التوجّه بقدر الاستطاعة إلى معناهــا وبمقدار القدرة إلى سرّها ومغزاها، ورأيت أنّ الدعاء المشهور الموسوم بالمباهلــة المأثور من الأئمّة الأطهار للتوسّل به في الأسحار إلى نور الأنوار من أجلّ الأدعية قدراً وأرفعها منزلةً لاشتماله على الصّفات الحسنى الإلهيّة والأمثال العليا الربوبيّة وفيه الاسم الأعظم والتجلّي الأتمّ

الأقدم فأردت أن أشرحه من بعض الوجوه بمقدار الاستعداد مع قلّة الباع وقصــور الاطّلاع فيا له من حرباء أراد أن يصف البيضاء وخفاش قصد أن ينظر إلى إشراق الضياء." [شرح دعاء السحر].

ويقــول قدس سره: "ولعمر الحبيب إنّ عليّ بن الحسين من أعظم النّعم التي مــنّ بها ذات الحقّ المقدّس على عباده، وأنزلــه من عالم القرب والقدس لأجل تفهيم عباده طرق العبودية، ولتُسألنّ يومئذ عن النعيم. وإذا سُئلنا لماذا لم نقدّر هذه النّعمة ولم نستفد من هذا الرّجل العظيم؟ فلا نحير جواباً إلا أن ننكّـــس رؤوسنا ونحترق بنار النّدامــة والأسف، ولا ينفع حينذاك الندم." [معراج السالكين].

وها نحن نعرض لبعض النّماذج التي تشير إلى منهج الإمام في استنطاق سنّتهم المعصومة المبثوثة في النّصوص الشّريفة الواردة عنهم عليهم السلام.

يقول الإمام: "قول الدّاعي "إني" لم يكن هذا في الحقيقة إثبات الأنانية، لأنّ الأنانيّة تنافي الســؤال، والدّاعي يقول: "إنّي أسألك". وهذا نظير قوله تعالى:﴿أنتم الفقراء إلى اللّه﴾". [شرح دعاء السحر].

وعند ذكر الحديث المرويّ في الكافي عن أبي الحسن الرّضا عليه السّلام: "إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول "طوبى لمن أخلص للّه العبادة والدعاء ولم يشغــل قلبه بما ترى عينــاه، ولم ينس ذكر اللّه بما تسمــع أذُناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره". يقول الإمام: "هذا، فتبّاً لعبد يدّعي العبوديّة ثم دعا سيّده ومولاه بالأسماء والصفات التي قامت بها سماوات الأرواح وأراضي الأشباح، وكان مسؤوله الشهوات النفسانيّة والرذائل الحيوانيّة والظلمات التي بعضها فوق بعض والرياسات الباطلة وبسط اليد في البلاد والتسلّط على العباد".[شرح دعاء السحر].

إنّ دعاء السّحر كما أشار الإمام مشتمل على الصّفات الإلهيّة الحسنى.

فكيف تمّ ذكر هذه الأسماء فيه، وكيف استفاد الإمام من هذا البيان؟ فلنلاحظ ـ مثلاً ـ أنّ الإمام عليه السّلام يصف كلمات الله بالتّمام. وهنا سينفتح على قلب الإمام الخميني قدس سره بحث حول هذا المعنى، يصف فيه تجلّيات كلمات الله في عالم الوجود.

وكذلك عندما يصف في دعائه ملك الله تعالى بالفاخر، أو منّه بالقديم. وتـــراه يقف عند سرّ بدء الدّعاء واختتامه بالاســـم الله، فيقول: "ولمّا كانت الأسماء الإلهيّة كلّهـــا من مظاهر الاسم الأعظم المحيط عليها المستجمع لجميعها بنحو الوحدة والبساطة الحاكـــم عليها وله الغلبة والسّلطنة على كلّها وانكشف ذلك على قلب السّالك المتحقّق بمقام الاسم الأعظم الفعليّ رأى أنّ مجيبه في الحقيقة هو الاسم الأعظم بمظاهره ابتداءً وبنفسه في آخر السّلوك. فقال: اللّهم إني أسألك بما تجيبني حين أسألك، من الأسماء الإلهيّة التي ترجع كلّها إلى الاسم الأعظم، ولذا عقبه بقوله: فأجبني يا اللّه. فطلب الإجابة من اسم اللّه الأعظم، فإنّه مجيبه وحافظ مراتبه ومربّيه والمانع من قطّاع طريقه ومـــن الموسوس في صدره وللإشـــارة إلى أنّ الاسم الأعظم الإلهيّ محيطٌ على كلّ الأسماء وهو المجيب في الأوّل والآخر وهو الظاهر والباطن افتتح كلامه بذكره فقال: اللّهم واختتم به أيضاً وقال: فأجبني يا اللّـه." [شرح دعاء السحر].

ومثل هذه النّماذج، وإن كانت تشير إلى شدّة عناية الإمام بنصّ المعصوم من حيث الكلمـــة واللفظ والأسلوب والتّرتيـــب، إلّا أنّ التعرّف إلى عمق النّهج يحتاج إلى دراسة مستوفية لشرح الإمام هذا الدّعاء الشّريف. وأكثر مـــا يذهلنا هو العمق الذي يغوص فيه من بحـــار معارف أهل البيت عليهم السلام، وعظمة ما يستخرجه منها من لطائف!

نموذج يبيّن كشف الإمام عن مقامٍ إلهيّ من خلال تحليل حديث شريف:

"قـد جـاء في الحديث أنّ رسول اللـهﷺ سُئل: "أيـن كان ربّنا قبل أن يخلـق الخلق؟ فقال ﷺ ما حُكي عنـه: "كان في عماء". وقد اختلفت كلمة الأصحـاب في حقيقة العمـاء. فقيل هي الحضرة "الأحديـة" لعدم تعلّق المعرفـة بها، فهي في حجاب الجلال. وقيـل هي "الواحديّة" لأنّ العماء هو الغيـم الرقيق الحائل بين السّماء والأرض، وهذه الحضرة واسطة بين سماء الأحديّة وأرض الكثرة. ونحن نقول: يشبه أن تكون حقيقة "العماء" حضرة الفيضـ الأقدس والخليفة الكبرى، فإنّهـا الحقيقة التي لا يعرفها بمقامها الغيبيّ أحد، ولها الواسطة بين حضرة الأحديّة وحضرة الواحديّة التي تقع فيها الكثرة اللامتناهيـة. وإنّما لم نحملها على الحقيقة الغيبيّة لأنّ السّؤال عن الرّبّ. وهذه الحقيقة غير موصوفة بصفة كما عرفت. ولا على الحضرة الواحديّة لأنّها مقام اعتبار الكثرة العلميّة. قال المحقّق القونوي في "مفتاح الغيب": "العماء الذي ذكره النبيّ صلّى الله عليه وآله مقام التنزّل الرّبانيّ، ومنبعث الجود الذّاتيّ الرّحمانيّ من غيب الهويّة وحجاب عزّة الإنّيّة. وفي هذا العماء تتعيّن مرتبة النّكاح الغيبيّ الأوّل الأزليّ الفاتح لحضرات الأسماء الإلهيّة بالتوجّهات الذّاتيّة الأزليّة". وهذا الكلام، وإن كان فيه بعض النّقد، إلا أنّه لا يخلو من تأييد لما ذكرنا." [لطائف عرفانية].

ونمـوذج آخر سيظهر عند حديث الإمام عن مقـام الاسم المستأثر من خلال تحليل الرّوايات الصّادرة حوله.

3. عالم التكوين

إنّ استفـادة الإمام من عالم التكويـن تظهر في بعض المناسبات، كما في حديثه عن عظمة الله تعالى. فهو يبني على بعض الاكتشافات الحسية والتجربية، في الوقت الذي لا تتعارض مع معطيات العقل والحكمة. يقول الإمام: "وكفى في عظمة فعله أنّه من المقرّر أنّ عوالم الأشباح والأجساد بما

فيها بالنسبة إلى الملكوت، كالآن في قبال الزمان، وهي بالنسبة إلى الجبروت كذلك، بل لا نسبة بينهما. وما ثبت إلى الآن من النظام الشمسي يبلغ أربعة عشر مليوناً، كلّ كنظام شمسنـا بأفلاكها وكراتها السيّارة حولها التّابعة لها أو أعظم بكثـير. حتى أنّ نظامنا الشمسي سيّارة حول واحد منها، مع أنّ كـرة نبتون أبعـد السيّارات عن شمسنا حسب ما استكشف يبلغ بعده 27465 مليون ميل حسب الآراء الحديثة. ولعلّ ما لم يُستكشف أكثر بكثير مما استُكشف إلى الآن". [شـرح دعاء السحر]. ومن ثمّ ينقل عن السيّد هبة الدّين الشهرستـاني وصفاً فلكيّـاً للأنظمة الشمسيّة والمجـرّات. ليعقّب قائلاً: "وإيراده مع طوله يجلب توجّه الدّاعي إلى عظمة ملك اللّه وكلماته ﴿قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مداداً لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفَدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنْفَدَ كَلِماتُ ربّي ولَوْ جِئْنا بِمْثْله مَدَدَا﴾(الكهف:109)، فإذا كان أسفل العوالم وأضيقها كذلك فكيف الحال في العوالم المتّسعة العظيمة الّتي لم تكن العوالم الأجساد وما فيها بالنسبة إليها إلاّ كالقطرة بالنسبة إلى البحر المحيط، بل لا نسبة بينهما وليست هذه العوالم في جنبها شيئاً مذكوراً".[شرح دعاء السحر].

4. حوادث الحياة الاجتماعية

أما الشقّ المتعلّق بالحياة الاجتماعية وأحداثها الكبرى. فلقد كان للإمام فيهـا جهادٌ كبير ظهـرت منه ثمرات عرفانيّة عظيمـة توزّعت في كلماته وخطبه وبعض أشعـاره ومواقفه. ويحتاج هذا البعـد إلى دراسة مستقلّة وتحليل مقارن يأتي في محلّه إن شاء الله.

ويبقى أن نشير إلى مصـدر أساسيّ لعرفان الإمام وهو التّراث الكبير لأهـل العرفان الذين ورثـوا الأنبياء والأوليـاء، كلٌ بحسب جهده وسعة وجـوده وسطّروه كتباً ومسفورات ستبقى شعلة مضيئة في البيئة العلميّة التي تزداد على العرفان إقبالاً يوماً بعد يوم.



"لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ؟! إذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ" .



أعظم التجليات الإلهية
أو الاسم الأعظم

أعظم التجليات الإلهية أو الاسم الأعظم

إنّ ظهــور عظمة الذّات المقدّسة وتجلّيها للذّات نفسها هو المفسّر لكلّ ظاهرة وجوديّة. وبمقتضى "وكل عظمتك عظيمة"، لا يمكن أن يظهر من ذات الحقّ تعالى أيّة عظمة يمكن أن يكون ما هو أعظم منها. فكل مظاهر العظمة من جانب الله تعالى هي في الإطلاق وفوق الإطلاق. ولو تأمّلنا قضية الخلق والإيجاد على أساس أنّها حصلت من أجل ظهور عظمة الذّات، فلن يكون عالم الخلــق كلّه (جميع المخلوقات مأخوذة ككيان واحــد) إلا مظهراً تامّاً لعظمة الله سبحانه. ولا يمكن أن نبرّر لأي صانع إيجاد ما هو أقل من عظمة علمه وقدرته إلّا بالعجز.

فالمهندس حينما يرى النقص في صناعته، يقول كان بودّي أن أصنع ما هو أفضل، أو أوجد ما ليس فيه هذا العيب، لكن إمكاناتي لم تسمح. وقد يخفى العيب أو النقص عليه، فيأتي من هو أعلم منه ويكشفه.

فهل نتصوّر أن يكون في صنع الله المطلق (الذي هو عبارة عن تمام دائرة الموجودات) جهل أو عجز؟!

إننــا نعبّر عن أعظم صنع إلهي بالتجلّي الأعظم أو الاسم الأعظم، لأنّ الاسم ـ كما سيتّضح ـ ليس سوى تجلّي الذّات بصفة أو شأن. فما ثمّة شيء عند الله تعالى إلّا وهو مظهر تام لعظمته المطلقة. فكلّ صنعه ـ والحال هذه ـ متحقّق بالاسم الأعظم.

وأي نقص نراه في دائرة الوجود والصنع إنّما هو بسبب نظرتنا المحدودة أو النّظر إلى الأشياء منقطعة عن النّظام الكلّي المترابط. إنّ النقائص التي نراها ليست سوى تلك النّقاط السوداء التي يحتاجها الرسّام لإضفاء الرونق على لوحته؛ فهي الظّلال التي نرى بسببها جمال انعكاس النّور فيها.

يقــول الإمام الخمينــي: "ظهر الوجــود ببسم الله، وهــذا على حسب مسلــك أهل المعرفة وأصحاب السّلوك والعرفان، حيث يرون ظهور جميع الموجودات وذرّات الكائنات وعوالم الغيب والشهادة بتجلّي الاسم الإلهيّ الجامع أي الاسم الأعظم". [معراج السالكين].

وعندمــا ننظر إلى النّاقصين في عالم الطبيعة المتبدّل، ونشاهد فيه هذه الحركــة التكامليّة (أي من النقص إلى الكمال)، نعلــم في قرارة أنفسنا أنّ الكل متّجه إلى الاسم الأعظم وراجع إليه. بيد أنّ هناك من سيكون له شرف السبق والرّيادة، وهناك من سيكون تحت لواء السابقين؛ أما الكثيرين فسوف يكونون كالنّقاط السوداء في تلك اللوحة البديعة التي تظهر جماله.

إنّ كل إنســان قد دُعي ليكون في المقدّمة. فالصّورة الإنسانيّة شاهدة على أن من أوجدها وخلقها يريد لصاحبها أن يكون من المتحقّقين بمقام الاســم الأعظم. ولكي يصل الإنسان إلى هذا المقــام عليه أن يرتقي في مراتب المعرفــة. لأن العلم هو أفضل تعبير عن كمال الوجود في العوالم. ومتى ما استقرت المعرفة في النفس، جعلت نفس العالم متحدة مع المعلوم ومتحققة به.

ففي البداية تكون المعرفة أمراً مغايراً للنّفس أو مستودعة فيها، لكنّها إذا طوت مراتب تكاملها واشتدادها اتّحدت مع النّفس واستقرت فيها. فالناس في هذا مستقر ومستودع.

وبالنسبة لسالك طريق الكمـال والمهاجر من بيت النفس المظلم، فإنّ أوّل مراتب التحقّق هي التحقّق بالآيات. ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾، إشارة إلى هـذا المقام. ومن بعدها مرتبة التحقّق بالأسماء التي تحصل في السفر الثـاني من الأسفار الأربعة في الحقّ بالحـقّ، إلى أن يصل إلى مقام الاسم الجامع لكل الأسماء والصفات. إنّها مسيرة معرفيّة ـ لكن المعرفة فيها ليست مجـرّد حصول صور أو ارتسام ماهيّـات في الذّهن. وفي هذه المسيرة فإن تجلّي الحق تعالى على قلب العبد يعني حصول المعرفة؛ وهما في هذا المجال كالحقيقة والرقيقة.

فليس التجلّي من جانب الحقّ تعالى ـ والذي يُعدّ شرطاً لحصول المعرفة ـ سوى ما يراه أهل الشهود. وبعبارة أخرى، إنّ التجلّيات الإلهيّة، إذا كانت على نحو الحوادث (كما يحصل من انبعاث الضوء من المصباح آنا بعد آن)، فلا يُعقل نسبتها إلى الله تعالى؛ لأنّه لا طريق للحدوث إلى ذاته؛ وإنّما هي قلوب أهل الشهـود تشاهد من عظمة الله بحسب سعتها. ففي بدء الأمر تشاهد مظاهر الأسماء المبثوثة في عالم الخلق وهي آثار التجلّيات الفعليّة؛ ثمّ تشاهـد الأسماء وترتقي وتتّسع حتّى تشاهد أعظم مظهر يمكن لها أن تشاهده. فللقلوب مهما بلغت سعة ما؛ وسوف تبقى قاصرة عن إدراك حقيقة (لا تعين لها في أي عالم أو حضرة) وهي المعبّر عنها بالاسم المستأثر؛ فهو التجلّي الذي استأثره الله لنفسه. ولعلّ التعبير بالاسم إشارة إلى رأي بعض أهـل العرفان بإمكانيّة شهـوده؛ وإن كان هذا الشهود خاصّاً بمحمّد وعليّ

لقول النبيّ: "يا علي، ما عرف الله إلّا أنا وأنت".

يقـول الإمام الخميني في هـذا المجال: "إنّ هذا الترتيب لا يرجع إلى حقيقة كل اسم، بل إلى ظهـوره. وبعبارة أخرى، إنّ العارف المكاشف أثناء صعوده ذرى الشهود تتجلّى لـه الذّات في مظاهر الأسماء، فيرى بعضها حاكمـاً والبعض محكومـاً، وقد تظهر له بصورة الجمـال فيستتر الجلال، أو بصـورة الجلال فيختفي الجمال، حتى يصـل إلى شهود الاسم الأعظم بصورة لا يغلب الظهور على البطون ولا البطون على الظهور، ولا الجلال على الجمال ولا الجمال على الجلال. ولعلّه بسبب هذا الشهود الأخير حُفظ لكلّ اسم مقامه. فإنّ مظهرية كل شيء للاسم "الله" الأعظم، مع اختصاص كلّ مربـوب باسم، ليس إلّا من جهة أنّ كل اسم يستكنّ فيه كلّ الأسماء والحقائق." [لطائف عرفانية].

وإذا كان الإنسـان مخلوقـاً للمعرفة: فلا بدّ لـه أن يصل إلى شهود التجلّي الأعظم مـا دام إنساناً ـ لأنّ إنسانيّة الإنسان وكرامته وقيمته في تفاعله الإيجابيّ مع مظاهر عالم الخلق التي جعلها الله دلائل وآيات إليه. وهذا التفاعل إذا كان موجوداً، فإنّه يأخذ بيد صاحبه، ويوصله إلى أعلى مراتب الشهود.

فالاستعـداد موجـود ـ ما دام إنساناً ـ والتجلّي موجـود لأن الحق دائم الفيض؛ فلا مناص من الحركة العلميّة التكامليّة. ولا معنى لوصول الإنسان إلى مقام معرفيّ والتوقّف عنده. لأنّ العلّة التامّة للتكامل المعرفيّ موجودة، إلّا أن يخرج هذا الإنسان من إنسانيّته؛ وهو السقوط في أسفل سالفين.

إنّ قيمة الأبحاث العرفانيّة، التي تدلّنا على الغاية وعلى أعلى مراتب المعرفة، تكمن في أمر واحد؛ وهو بث العزيمة، فينا لنخرج من القرية الظالم أهلها، ونهاجر إلى الله تعـالى. فكلّ فتور عند أصحاب الاستعداد مردّه

إلى الرّكـون إلى النّفس وإلى المنازل، والرّضا عن النّفس الذي هو أصل كلّ شقاء.

والحديث عن الاسم الأعظم له فائدة عظيمة، وهي جعلنا في سلام مع مظاهـره الجلاليّة؛ فنكون بذلك مسلمين حقّاً. لأنّ شهود جمال الحقّ تعالى متلازم مع شهود جلاله. فمن لم يكن مستعدّاً لقبول الجلال لن يقبل الجمال. وإنّما كان الجلال ـ في فلسفة تربية العالمين ـ من أجل إيصال الكائنات إلى معدن العظمة والجمال.

وليس الاسم الأعظم سوى المظهر الجامع لكلّ مراتب الجمال والجلال، فاستحـقّ أن يكون أعظم تعبير عن التوحيـد. وعندما يعجز الإنسان عن إدراك جـلال الله في عالم الخلق، ولا يقدر على نسبتـه إلى الإله الواحد، فسوف يتجه نحو الضلال المبين!

فالشيطان الرّجيم الذي هو مظهر كبير لجلال الله ونقمته كما في قوله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، يعتمد في غوايتـه على تثبيت مبدأ الشرك وإيهام النّاس بأنّ حاجاتهم موجودة عند غير الله. ولو تأمّلنا في جميع الرّذائل والقبائح والجرائم لوجدنا أنّها ترجع إلى الشرك، أي الاعتقاد بوجود أكثر من مبدأ للخير والشر في العالم.

إنّ أوليـاء الله يؤمنون بأنّه ليس لإبليس مـن سلطان أو تأثير مقابل قدرة الحقّ وسلطانه. ولهـذا، فإنّهم يستعيذون بالله لدفع شرّه ويلجؤون إلى اللـه لمنع تأثيره. وليس هذا إلّا الفـرار من الله إلى الله: "هاربٌ منك إليـك"؛ أي: أعوذ بجمال الله من جـلال الله. وهو عبارة عن الدّخول في حصـن لا إله إلّا الله، وهو حصـن الاسم الأعظم. وفي المقابل هناك من يستنكر مبدأ الحق للجلال بكل ما فيه من نقمة وقهر، لأنه ما آمن باتحاد صفات الجمال والجـلال؛ أي لم يؤمن بالاسم الأعظم الذي يعد كل عالم

الوجود مظهراً له أو ظهوراً لسلطانه.

إنّ عملية التنكير تظهر في اللحظات التي تلي الموت على يديّ ملَكين معروفين بمنكر ونكير. ولعلّ سبب تسميتهما بهذين الاسمين أنّهما من المظاهر الإلهيّة التي ينكرها النّاس. فهما من مظاهر الجلال لإقبالهما على العصاة والمقصّرين من موقع الذود عن حرم الذّات الإلهيّة المقدّسة. ومن لم يحذر الله في حياته وتجاوز حرم الحقّ وحدوده، فإنّ للحقّ تعالى عليه أن يؤدّبه. وها هما عمّال اللطف الإلهي ينكران على الإنسان ذلك الظلم وهذا التقصير. فإذا اعترف بظلمه وتقصيره شهد منهما كل لطف ورحمة؛ فينقلبان إلى مبشّر وبشير، ويعلمانه بمقعده في جنّة الجمال. وهذا يعني أنّ كل ما خلق الحقّ تعالى، وإن كان في مظهر الجلال فهو في الحقيقة في عين الجمال؛ والعكس صحيح أيضاً. ومثل هذا الاتّحاد والجمع هو من معاني الاسم الأعظم. فنعلم من مثل هذه الواقعة الحتمية أنّ أوّل ما يواجه الإنسان ـ بعد الانقطاع عن الدنيا وحصول اليقظة ـ هي قضية الاسم الأعظم جلّ برهانه.

وأهل المعرفة قد أولوا بحث الاسم الأعظم اهتماماً فائقاً لهذا السبب؛ ووجدوا فيه محوراً لجميع المعارف الأخرى وباباً لمعرفة كلّ الحقائق الوجودية، ومدخلاً لعرض كل المسائل العلمية. ففيه تجتمع كل المتفرّقات، وبه تُحلّ جميع العقد، ومنه تُفهم كل القضايا.

ففي بحث الاسم الأعظم أربع جهات أساسيّة؛ هي: جهة العجز وجهة المعرفة وجهة التحقّق وجهة البدء.

1. أمّا جهة العجز: فلأنّ الاسم الأعظم هو الذي يحفظ الحدّ بين الخالق والمخلوق. فهو تجلّي الذات، وقد كان يُظنّ أنّه المقام الذي لا يمكن لأحد أن يدركه. فلأنّه قابل للتصوّر الكلّي أو الإجمالي من جهة، ولأنّ الأذهان

قد تظـنّ أنّه المقام الممنوع، فلا يمكن أن تشعر بالعجز، وإن أقرّت باللسان. وبانتفاء العجز عن معرفة الذّات لا يعلم الحد بين الخالق والمخلوق، فيتعدّى الإنسان حدوده ويظلم نفسه.

2. وأمّا من جهة المعرفة: فلأنّ معرفة الأسماء الإلهيّة على حقيقتها يعني أنّها مجتمعة في حقيقة واحـدة، وأنّها عين بعضها البعض. وهذا هو مقام الاسم الأعظم. فمن لم يدركه وقع في حجاب التكثير الأسمائي والتركيب في الذات الإلهيّة وإن لم يعلن ذلك.

3. ومن جهة التحقّق: فـلأنّ غاية المعرفة العرفانيّة أن يتحقّق السّالك بالمعرفة. ومـا دام الإنسان يتصوّر أنّ معرفة الله عبارة عن ارتسام الصّور وحصـول المفاهيم في الأذهان، فهو محجـوب عن الحقيقة وواقع في أسوأ الحجب والقيود. فللاسم الأعظم تحقّق في عالم الأعيان، وهو قدوة السّالكين والمقام الذي تصبو إليه نفوسهم.

4. ومن جهة البدء: فإنّ أوّل خطوات السّير العرفاني هي الفهم والإدراك الذهنـي ـ وهذه الخطوة تبدأ من اللغة. وقد أنـزل الله تعالى هذا الاسم في كسوة الحروف والألفاظ.

يقول الإمام الخميني: "واعلم هداك اللّه إلى الاسم الأعظم وعلّمك ما لم تكن تعلم، أنّ للّه تبـارك وتعالى اسماً أعظم إذا دُعي به على مغالق أبواب السّماء للفتح بالرّحمة انفتحـت وإذا دُعي به على مضائق أبواب الأرض للفرج انفرجت، وله حقيقة بحسب الحقيقة الغيـبيّة ❶ وله حقيقة بحسب المقـام الألوهيـة ❷ وحقيقة بحسب مقام المألوهيّة ❸ وحقيقة بحسب اللفظ والعبارة ❹". [شرح دعاء السحر].

فقد حان الحين لمزيد بيان وكشف عيان حول هذه الحقيقة التي هي لبّ لباب المعارف الإلهيّة، وبفضلها عُرف الله، وبها عُبد الله.

جهة العجز، وفيه سرّ التوجه:

يقول الإمام: "وأمّا الاسم الأعظم بحسب الحقيقة الغيبيّة التي لا يعلمها إلا هــو ولا استثنــاء فيه، فبالاعتبار الذي سبق ذكــره، وهو الحرف الثالث والسّبعون المستأثر لنفسـه في علم غيبه. كما في رواية الكافي في باب ما أعطوا من اسم اللّه الأعظم بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: "إن اسم اللّه الأعظـم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنّما كان عنـد آصف منها حرفٌ واحد فتكلّم بـه وخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السّرير بيـده، ثم عادت الأرض كما كانـت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند اللّه تعالى استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم". ومثلها رواية أخرى. وفيـه أيضاً عن أبي عبداللّه عليه السلام يقول: "إنّ عيسى بن مريم أعطي حرفين كان يعمـل بها، وأعطى موسى أربعة أحرف، وأعطى إبراهيم ثمانية أحرف، وأعطـى نوح خمسة أحرف، وأعطى آدم خمسـة وعشرين حرفاً، وإنّ اللّه تعالى جمع ذلك كلّه لمحمّد صلّى اللّه عليه وآله. وإنّ اسم اللّه الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً أعطي محمّد صلّى اللّه عليه وآله اثنين وسبعين حرفاً وحجب عنه حرف واحد." انتهى". [شرح دعاء السحر].

فالبيان اللطيف لأهل العصمة حول الحرف الثالث والسبعون يدلنا على الجهة الغيبية المستـتر للإسم الأعظم؛ وهي التي تدل على عجز الممكنات مهمـا بلغوا من إدراك حقيقة العظمة ومعدنها. ولا شك بأن الأمر ليس في عـالم الكم أو الحروف. بل هو نوع بيان لتقريب المعنـى إلى الأذهان. وأنت تعلم أن الاسم لا يعطي المعنى من دون تمام حروفه. وهكذا يكون مقام الاسم الأعظم بالنسبة لما استأثره الله لنفسه كلاشيء. فكيف بالنسبة لكنه الذات. وهل يمكن لشيء مهما علا وعظم أن يقارن بذات الله. تعالى الله عن ذلك

علـوًّا كبيرًا. ولو جمعنا كل الصفات لما استطاعت أن تعبّر عن ذلك البعد الغيبي، لأنه لا اسم له ولا رسم.

"إنّ الأسماء والصّفـات الإلهيّة أيضاً بحسب كثراتها العلميّة، أي بما هي مشهودة للسّالك كأسماء وصفات غير مرتبطة بهذا المقام الغيبيّ، غير قـادرة على أخذ الفيض من حضرته بلا توسّط شـيء. بل إنّ اسم "الله" الأعظم بحسب أحد مقاميه الذي يكون فيه مستجمعاً للأسماء استجماع الكلّ للأجزاء، أي مقام ظهوره في مرائي الصّفات والأسماء، فإنّ بينه وبين تلك الحقيقة الغيبيّة حجاباً نوريّاً مقهور الذّات. هذا الحجاب النوريّ معدوم التعيّن مندكّ الإنّيّة في الهويّة الغيبيّة، غير موصوف بصفة. ويُعدّ أيضاً المقام الآخر للاسم الأعظم، ويُسمّى بالحجاب الأكبر، وهو الفيض الأقدس من شوائب الكثرة والظهور. وسر تسميته بالحجاب الأكبر عُلم من المقدّمات."

[لطائف عرفانية].

جهة المعرفة وكمالها

"وأمّا الاسم الأعظم بحسب مقام الأُلوهيّة والواحديّة فهو الاسم الجامع لجميع الأسماء الإلهيّة جامعيّة مبدأ الأشياء وأصلها لها، والنّواة للأشجار من الفرع والأغصان والأوراق، أو اشتمال الجملة على أجزائها كالعسكر على الأفـواج والأفراد، وهذا الاسم بالاعتبـار الأوّل، بل بالاعتبار الثاني أيضـاً، حاكم على جميع الأسماء، وجميعها مظهـره، ومقدّم بالذّات على المراتب الإلهيّة، ولا يتجلّى هذا الاسم بحسب الحقيقة تامّاً إلّا لنفسه، ولمن ارتضى من عباده وهو مظهره التامّ؛ أي صورة الحقيقة الإنسانيّة، التي هي صورة جميع العوالم، وهي مربوب هـذا الاسم. وليس في النّوع الإنسانيّ أحدٌ يتجلّى له هذا الاسم على ما هو عليه إلّا الحقيقة المحمّدية، صلى الله عليه وآله، وأوليائه الذين يتّحدون معه في الروحانية، وذلك هو الغيب الذي

استثنى منه من ارتضى من عباده. وفي رواية الكافي: "واللّه لمحمّد، صلى اللّه عليه وآله، ممّن ارتضاه".[شرح دعاء السحر].

ولأنّ جوهــر العبادة عبارة عن صــرف التوجّه إلى الذّات الإلهيّة لخرق جميــع الحجب الظّلمانيّــة والنّورانيّة وتحقيق كمال الانقطــاع إليها؛ ولأنّ الأسماء الإلهيّة هي حجب نورانيّة للذّات المقدسة، كما قال الإمام في شرح دعــاء السّحر: "اعلم يا حبيبي وفقــك اللّه لمعرفة أسمائه وصفاته وجعلك من المتدبّرين في أسرار آياته أنّ الأسماء الحسنى الإلهية والصّفات العليا الرّبوبيّــة حُجُب نوريّة للــذّات الأحديّة المستهلك فيهــا جميع التعيّنات الأسمائيّة المستجنّ في حضرتها كل التجلّيات الصّفاتية"، فإنّ الوصول إلى شهود الاسم الأعظم لهو دليلٌ على خرق تلك الحجب وتحقّق التوجّه المطلق وكمال الانقطاع المرضيّ عند الله تعالى، والذي يتولّى أمر صاحبه فيما بعــد. ونحن نردد في الدعــاء عن الأئمة المعصومــين عليهم السلام: "إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنــا معلقة بعزّ قدسك". ولهــذا، أشار الإمام الخميني قدس سره إلى الحركة المعنويّة لأصحاب الأسرار الغيبيّة، الذين استقبلوا التجلّيات الربّانيّة بالقلب والــروح، وأدركوا معنى حجاب الأسماء والصفات، وصار شهود التجلي الأعظم للذّات المقدســة مقصدهم الأسنى: "وأصحــاب الأسرار الغيبيّة يصرفــون باطن الرّوح عــن الجّهات المتشتّتة لكثرات الغيــب والشّهادة، ويجعلون جهة سرّ الــرّوح أحديّة التعلّق، ويجعلون جميع الكثرات فانية في سرّ أحديّة الجمع. فإذا تنزّل هذا السرّ الرّوحيّ في القلب، يظهر الحقّ في القلب بظهور الاسم الأعظم الذي هو مقام الجّمع الأسمائيّ، وتفنى الكثرات الأسمائيّة وتضمحل في الاسم الأعظم، وتصبح وجهة القلب في هذا المقام إلى حضرة الاسم الأعظم. فإذا ظهرت هذه من باطن القلب إلى ظاهر الملك،

كانت صورة إفناء الغير في الانصراف عن غرب عالم الملك وشرقه، وصورة التوجّــه إلى حضرة الجّمع في التوجّه إلى مركز بسط الأرض الذي هو يد الله في الأرض".[معراج السّالكين].

وكما أنّ كلّ مقام من مقامات الألوهيّة ومراتب الواحديّة متّصل بالذّات المقدّسة (بحسب ما يدركــه أهل المعرفة والشهود) بواسطة الاسم الأعلى الذي يحيط به. فيكون عرفان هذا الاسم طريقاً إلى المعرفة الحقّة كذلك. وما لم يشهد العارف هذا الارتباط القيّوميّ بين الاسم المحيط والاسم المحاط، لا يكون قد عرف ربّه. "وقد عرفتَ أن ارتباط الأسماء الحسنى والصّفات العليا بهــذا الخليفة ارتباط افتقار ووجود، كما أنّ ارتباط الخليفة بها ارتباط تجلٍّ وظهور. وذلك لأنّ الحقيقة الإطلاقيّة الغيبيّة لا ظهور لها بحسب حقيقتها، وكلّ ظهور في عالم الوجود وإن كان منها إلّا أنّه ليس هي، فلا بدّ لظهورها مــن مرآة تتجلّى فيها. فالتعيّنات الصّفاتيــة والأسمائية مرائي ذلك النّور العظيم ومحلّ ظهوره."[لطائف عرفانية]. ولنعــطِ مثالاً يقرّب المعنى إلى الذّهن. وهو لو أنّنا أردنا أن ندرك المعنى الدّقيق للعلَم أو القدرة، فما لم نرَهما تجلّيات الحياة وفروعها، فهذا يعني أنّنا ما زلنا نجهل أهم ما فيهما من معنىً. وقد قيل أنّ القدرة والعلم يرجعان إلى الحياة. ولّما كنّا قد حصرنا معنى الحياة بالنموّ والحركــة، فقد عجزنا عــن إدراك أهمّ ما فيها من معانٍ؛ وهكذا أغلقنا على أنفسنا باب معرفة الصّفات المتفرّعة عنها أو المتحدة فيها أيضاً. فالأسماء تعــرف ببعضها، لأنهــا متحدة في الحقيقة وإن اختلفــت بحسب الاعتبار المفهومي وتباينت. وهذا الاتحاد هو المحقق لمعنى الاسم الأعظم. فبه عرفت الأسماء الإلهية وظهرت.

"كلّ اســم كان أُفقه إلى أُفقِ الفيض الأقدس أقرب، كانت وحدته أتمّ، وجهة غيبــه أشدّ وأقــوم. لأنّ أُفق الفيض الأقدس هــو الغيب والوحدة،

ولهذا تكون جهــات الكثرة والظهور فيه أنقص وعــن أُفقها أبعد. وعلى سبيـــل التّعاكس، كلّما بعُد عن حضرتــه ورفض مقام قربه، كانت الكثرة فيــه أظهر وجهــات الظّهور أكثر. ومن هذا، ينكشف لقلــب كل عارف أنّ الاسم الأعظــم المستجمع لجميع الأسماء والصّفات مع اشتماله للكثرات واستجماعــه للرّسوم والتعيّنات فإنّه أقرب إلى الوحدة. وأنّ هذا الاشتمال منزّه عن الكثرة الحقيقيّة من وجه، بل حقيقته متّحدة مع الفيض الأقدس الذي هو مقام الغيب المشوب مقابل الغيب المطلق الذي هو للهوية الغيبيّة. وعليه يكون اختلاف الاسم الأعظم مع الفيض الأقدس بمحض الاعتبار، كاختــلاف المشيئة والفيض المقدّس مع التعــيّن الأوّل المعبّر عنه في لسان الحكماء بـ"العقل الأوّل"." [لطائف عرفانية].

ويثبــت الحكماء أنّ الذّات الإلهيّة لمّــا كانت واحدة لا يُتصوّر لها ثانٍ، وأنّها بسيطة لا يُعقل فيها التركيب (لأنّ التركيب فرع الاحتياج والاحتياجُ من صفات المخلوق)، فإنّ كل صفة لها أو اسم ينبغي أن يكون عين الاسم الآخر حقيقةً ومفهوماً. وإنّما تكثّرت الأسماء من حيثيّة النّظر وزاوية الفهم. فنحن الذين جعلناها متباينة الذات بإضافة القيود والحدود إلى المعاني. ولو أدركنا حقيقة العلم لما رأيناه مبايناً للقدرة أبداً. ومثل هذا الإدراك يمثّل الغاية القصوى والمرتبة العليا من معرفة الأسماء، وهي معرفة الاسم الأعظم.

"أوّل مــن يستفيض من حضرة الفيض الأقدس والخليفة الكبرى هو حضرة الاسم "الله" الأعظم بحسب مقام تعيّنه، باستجماع جميع الأسماء والصّفــات ومقام ظهــوره في جميع المظاهــر والآيات. فإنّ التعــيّن الأوّل للحقيقة اللامتعيّنة هو كلّ التعيّنات والظهورات مستجمعةً. ولا يرتبط أي واحــد من الأسماء والصّفات بالفيض الأقدس إلا بتوسّط الاسم الأعظم على التّرتيب المنسّق: كلّ حسب مقامه الخاص به." [لطائف عرفانية].

جهة التحقق

والاعتبــار الآخر للاسم الأعظم هو بحسب الحقيقة العينيّة المتنزّلة في ملابس كثرات عالم الطّبيعة التي هي منزل أسفل سافلين. فللاسم الأعظم إحاطة بجميع الحضرات والعوالم، ومن هنا فإنّه ظاهر الرّحمة التي وسعت كلّ شيء. "أول ما ظهر من مظاهر الاسم الأعظم مقام الرحمانيّة والرحيميّة الذاتيّتين: "ورحمتي وسعت كل شيء". وهما من الأسماء الجماليّة الشّاملة لكلّ الأسماء. ولهذا سبقت رحمته غضبه. وبعدهما الأسماء الأخرى من الأسمــاء الجلاليّة على حسب مقاماتها." [لطائف عرفانية]. والتي لبست لباس أشرف الخليقة الذي أرسله الله رحمةً لجميع العوالم الوجوديّة ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاّ رَحْمَــةً لِلْعالَمينَ﴾. وبفضل هذا التجلّي والاعتبار فُتح باب معرفة الله. ولــولاه لما عرف أحــد ربّه، "هذه الخلافة هــي روح الخلافة المحمدية وربّها وأصلها ومبدؤها. منها بدأ أصل الخلافة في العوالم كلّها. وقد ظهرت تمام الظّهور في حضــرة الاسم "الله" الأعظــم، رب الحقيقة المحمدية المطلقة وأصل الحقائق الإلهية الكلية. فهي أصل الخلافة والخلافة ظهورها، بل هي الظّاهرة في هذه الحضرة لاتّحاد الظاهر والمظهر، كما أشار إليه الوحي الإلهيّ إشــارة لطيفة لقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلــة القدر﴾. حيث قال العارف الكامل الشاه آبادي: "إنّ "هاء" أنزلناه إشارة إلى الحقيقة الغيبيّة النازلة في البنية المحمّدية التي هي حقيقة ليلة القدر". [لطائف عرفانية]. وسوف يأتي الحديث مفصّلاً عن هذا المعنى في فصل الإنسان الكامل ودوره المحوريّ في معرفة اللــه تعالى. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "وأما الاسم الأعظم بحسب الحقيقة العينيّة فهو الإنسان الكامل خليفة اللّه في العالمين، وهو الحقيقة المحمّدية صلــى اللّه عليه وآله التي بعينها الثّابت متّحدة مع الاسم الأعظم في مقام الإلهيّة وسائر الأعيان الثابتة بل الأسماء الإلهيّة من تجلّيات هذه الحقيقة، لأنّ الأعيان الثابتة تعيّنات الأسماء الإلهيّة والتعيّن عين المتعيّن في العين غيره

في العقل. فالأعيان الثابتة عين الأسماء الإلهيّة، فالعين الثّابت من الحقيقة المحمديــة عين الاسم اللّه الأعظم وسائر الأسماء والصّفات والأعيان من مظاهــره وفروعه، أو من أجزائه باعتبــار آخر. فالحقيقة المحمّديّة هي التي تجلّت في العوالم من العقل إلى الهيولى، والعالم ظهورها وتجلّيها؛ وكلّ ذرّة من مراتب الوجود تفصيل هذه الصّورة. وهذه هي الاسم الأعظم وبحقيقتها الخارجيــة عبارة عن ظهور المشيئة التي لا تعيّن فيها، وبها حقيقة كل ذي حقيقة وتعيّن كلّ متعيّن: "خلق اللّه الأشياء بالمشيئة والمشيئة بنفسها". وهذه البنيــة المسمّاة بمحمد بن عبداللّه، النّازلــة من عالم العلم الإلهي إلى عالم الملك لخلاص المسجونين في سجن عالم الطبيعة، مجملة تلك الحقيقة الكلّيّة؛ وانطــوى فيها جميع المراتب انطواء العقــل التفصيليّ في العقل البسيط الإجمالي". [شرح دعاء السحر].

جهة البدء والانطلاق

وقد تجلّى الاسم الأعظم في ملابس الحروف والألفاظ على نحوٍ فريد لا يشبه أي أسلوب لغويّ اتقنه البشر. فعليك أن تطلبه من اللغة، لكن لا على النّحو الذي تتصوره من تراكيب الألفاظ. وإذا تحقق التوجّه التام والانقطاع الكامل أثناء قراءة بعض الآيات أو السّور، فقد تدرك مقام الاسم الأعظم. ولفهــم هذه الإشارة، نتذكر أنّ من أهم منطلقات الارتقاء المعنويّ: الارتقاء الفكريّ. وهو عبارة عن السير في فضاء المعاني والغوص في بحر الأفكار. فمن اصطاد ـ أثناء سيره وغوصه ـ المعاني الجليلة والأفكار البديعة، حقق الاستعداد للوصول إلى الأحوال القلبيّة. وإن من سعة رحمة الله تعالى أن جعل اللغة والبيان، وسيلةً للارتقاء الفكريّ ومنه إلى المعنويّ. حيث يفتح بــاب التكامل الــذي لا نهاية لها. فمفتاح المعرفــة موجود عند كل عاقل، وباللغــة والبيان يصنع الإنسان ويتكامل العقل. وإلى هذا السفر العرفاني

الإشـارة في حديث الإمام الصّـادقعليه السلام: "ما زلـت أردّد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها".

إنّ مقـام الاسم الأعظم حقيقة وجوديّة يمكن إدراكها من خلال السير المعنـويّ. والارتقاء المعنـويّ قابل للتحقّق بالارتقاء الفكـريّ الذي يمكن تحقيقه من خلال قراءة مجموعة من الألفاظ والحروف بشرط التوجّه التام. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "وأما حقيقته بحسب اللفظ والعبارة فعلمها عند الأولياء المرضيّين والعلماء الراسخين ومخفيّة على سائر الخلق. وما ذُكر من حرف الاسم الأعظم أو كلماته في كتب القوم من العرفاء والمشايخ، إمّا من الآثـار النبويّة أو من أثر الكشف والرياضة عند الخلوص عن دار الوحشة والظلمة؛ كما نقل عن الشيخ مؤيّد الدين الجنديّ أحد شرّاح الفصوص أنّ من أسماء هذا الاسم هو اللّه المحيط والقدير والحيّ والقيّوم ومن حروفه "أ، د، ذ، ر، ز، و". قال" ذكره الشيخ الكبير في سؤال الحكيم الترمذي".

وقـال الشيخ الكبير في الفتوحات: "الألف هو النّفس الرّحماني الذي هـو الوجود المنبسط؛ والـدال هي حقيقة الجسم الكلّـي؛ والذال المتغذّي، والـرّاء الحسّاس المتحرك، والزاء الناطـق، والواو حقيقة المرتبة الإنسانية. وانحصرت حقائق عالم الملك والشهادة المسمّى بعالم الكون والفساد في هذه الحروف". انتهى كلامه.

وقال الشيخ المحدّث الجليل الحاج الشيخ عباس القمّي سلّمه اللّه تعالى في كتاب مفاتيح الجنان بهذه العبارة: في ذكر بعض الآيات والأدعية النافعة المختصرة التي اخترتها من الكتب المعتبرة.

الاول، ما نقله السيد الأجلّ علي خان الشيرازي رضوان اللّه عليه في كتاب الكلم الطيّب من أن الاسم الأعظم لله تعالى هو الذي يكون افتتاحه "اللّه" واختتامه "هو"؛ وليس في حروفه نقطه؛ ولا يتغير قراءته أعرب أم لم

يعرب. وهو في القرآن المجيد في خمس آيات مباركات من خمس سور هي: البقره، وآل عمران والنساء وطه والتغابن. قد قال الشيخ المغربى في كتابه: اجعــل كل من هذه الآيات الخمس وردا لك واقرأها كل يوم إحدى عشرة مــرة فسوف يسهل كل صعب وعسير وكل هــام إن شاء الله تعالى؛ وهي: 1.﴿اللّـه لا إلهَ إلاّ هو الحي القيــوم﴾ إلى آخر آية الكرســي. 2. ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُــوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ﴾. 3. ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾. 4. ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى﴾. 5. ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. انتهى." [شرح دعاء السحر].

إنّ حديث العرفاء عن صــور الاسم الأعظم وتجلياته يهدف إلى ربطنا بالوسائــل التي توصلنا إليه. فعندما نعلم أنّ كتاب الله فيه اسمه الأعظم، سوف نتمسّك به ليأخذ بأيدينا إلى هذا المقام المرضيّ، على طريقته وأسلوبه. وعندما نعلم أنّ أهل بيت العصمة والطّهارة قد أعطوا الاسم الأعظم فسوف نتمسّــك بهم حتّى يوصلونا إليه. وإنّما اتّسعت رحمة الله بعباده بإنزال هذه الحقيقــة العظيمة في قوالب الأبدان والأشخاص والألفاظ ليُعلم أنّ الاسم الأعظم قادر على مدّ يده إلى أدنى العوالم وأبعدها عنه، ليرجعها إليه راضيةً مرضيّة، كي لا ترجع مقهورة معذّبة.

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: "وبعبارة أخرى هذه الصّحيفة النورانيّة صورة الاسم الأعظم كما أنّ الإنسان الكامل أيضاً صورة الاسم الأعظم؛ بل حقيقة هذيــن في حضرة الغيب واحدة؛ وهما في عــالم التفرقة متفرّقان بحسب الصّورة، ولكن بحسب المعنى أيضاً لا يفترقان. وهذا أحد معاني "لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض". وكما أنّ الحقّ تعالى خمّر طينة آدم الأول والإنسان

الكامل بيدي الجلال والجمـــال، كذلك أنزل الكتاب الكامل والقرآن الجامع بيـــدي الجمال والجلال، ولعلّه لهذه الجّهة أيضـــاً يُقال له "القرآن" لأنّ مقام الأحدية جمع الوحدة والكثرة؛ ولهذه الجّهة ليس هذا الكتاب قابلاً للنّسخ والانقطاع، لأن الاسم الأعظم ومظاهره أزلية وأبدية، وجميع الشرائع دعوة إلى هـــذه الشريعة والولاية المحمدية، ولعلّ الذكـــر في الآية الشريفة ﴿إنّا عرضنا الأمانة﴾ بصيغة الجمع لمّا ذكرنا من النّكتة في ﴿إنّا أنزلنا﴾ لأنّ الأمانة بحسب الباطن هي حقيقة الولاية وبحســـب الظاهر هي الشريعة أو دين الإسلام أو القرآن أو الصلاة". [معراج السالكين].



"يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً".



التجلي الذي استأثره الله لنفسه: سرّه ومن يعرفه؟

التجلي الذي استأثره الله لنفسه: سرّه ومن يعرفه؟

"الحمد لله وسبحانك اللهمّ، صلّ على محمد وآله مظاهر جمالك وجلالك وخزائن أسرار كتابك الذي تجلّت فيه الأحديّة بجميع أسمائك حتّى المُستأثر منها، الذي لا يعلمهُ غيرك. واللعن على ظالميهم أصل الشجرة الخبيثة". [الوصية السياسية].

لمّا كانت الذّات الإلهيّة عين الوجود، ولا وجود إلّا لها. وكلّ موجود فهو بوجوده ظلّ وجودها.

ولمّا كانت الذّات الغيبيّة في عين الوحدة والبساطة. فإنّ كلّ موجود في حقيقة وجوده هو عين الموجود الآخر، وإن اختلفت الماهيات. فالكلّ متّحدٌ بالكلّ في الحقيقة وإن اختلف في الظّهور والتعيّن.

فلو اطّلعت في عين الشّهود على حقيقة أي شيء - مهما اشتدّت مظهريّته أو ضعُفت - فلن ترى سوى حقيقة واحدة هي الذّات المقدّسة.

إلّا أنّ هذا الشهود، لو حصل، فإنّه يحصل متدرّجاً على المنوال التالي:

إذا عبرت حجاب الكثرات، وتخلصت من قيود الماهيات التي هي الاسماء التي ابتدعها الناس، فسوف تشاهد أعيانها الثابتة وهي عبارة عن حقائقها في العلم الإلهيّ. وهو العلم بالأشياء كما هي.

وإذا عبرت حجاب الأعيان الثابتة ترى الأسماء الإلهيّة، لأنها بمنزلة العلل لتلك الأعيان.

وإذا خرقت حجاب الكثرة الأسمائية، فسوف تشاهدها في عين الجمع المسمّى بالاسم الأعظم.

وإذا عبرت الاسم الأعظم، تشهد جهة غيبه وانتسابه إلى الذات المعبر عنها بالاسم المستأثر.

وإذا عبرت حجاب الاسم المستأثر فما ثمة شيء سوى الذّات دون حجاب.

على أنّ الثابت بالبرهان والمنقول بعمق البيان أنّه ليس للإنسان لعبور الاسم الأعظم من إمكان.

وأنت لو كان لك تلك العين وأمعنت النّظر في أيّ شيء من الأعيان الخارجية، لشاهدت فيه عينه الثابتة في الحضرة العلميّة بعد سقوط القيود الزمانية وانمحاء الحدود المكانية.

ولو زاد إمعانك في النّظر في الشيء نفسه، لسقط حدّ العين الثابتة رغم عظمته، وشاهدت فيه الاسم الذي يربّيه.

فزد الآن في حدّة النّظر، وسوف ترى في هذا الشيء الاسم الأعظم وليس وراء الاسم الأعظم سوى احتراق العين.

أمّا الفكر الثاقب فإنّه يعطي معنى ما ذكرنا، لأنّه سيرٌ علميّ شرّفه الله تعالى وجعله أحبّ الخلق إليه. فهو الذي يثبت حقيقة ما ذكرنا من أنّه ما ثمّة

وجــود إلا وجود الذّات. يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: "بل نقول: إنّ الوجودات بمراتبها السّافلة والعالية كلّها مرتبطة بالوجه الخاصّ باللّه تعالى بلا توسّط شيء، فإنّ المقيّد مربوط بباطنه وسرّه بالمطلق؛ بل هو عين المطلق بوجه يعرفه الراسخون في المعرفة. وكان شيخنا العارف الكامل أدام اللّه ظلّه على رؤوس مريديه، يقول: إنّ المقيّد بباطنه هو الاسم المستأثر لنفسه؛ وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا هو؛ لأنّه باطنه المطلق، وبتعيّنه ظهر لا بحقيقته. فالكلّ حاضر عند اللّه بلا توسّط شيء. ومن ذلك يُعرف نفوذ علمه وسريان شهوده تعالى للأشياء؛ فيرى بواطنها كظواهرها، وعالم الملك كالملكوت، والعالم الأسفل كالأعلــى، بلا توسّط شيء كما يقول المحجوبون. ولا تفاوت شدّة وضعفاً في الظهــور والحضور عنده. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام على ما في الوافي: "علمــه بالأموات الماضين كعلمه بالأحيــاء الباقين، وعلمه بما في السموات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى". فليتدبر في قوله: ﴿ونَحنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْكُم﴾(الواقعة:85).﴿ونَحْــنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْ حَبْلِ الوَرِيــد﴾(ق:16). وهو ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيء مُحيطٌ﴾(فصلت:54). بل لا وجود لشيء على الحقيقة، ولا هوية على الإطلاق لموجود من الموجودات، فهو هو المطلق والقيّوم التام. فانتبه من نوم الغفلة وكن من المؤمنين والموحدين." [شرح دعاء السحر].

وإذا كان الاسم الأعظم هو عصارة التجليات والمصحح لمقامات الشهود، فإن الاسم المستأثر هو المصحح لحقيقة التوجّه الفطري إلى الذات المقدسة. فمن تصور الذات على رأس سلسلة الكائنات، فقد وقع في حجاب الجهل والشرك، حتى لو قال أنها أعظم وأكبر من كل شيء، أو قال أنها خالقة كل شيء ومصدر كل خير وكمال. فالهوية الغيبية وإن لم تكن مشهودة لأحد، فهي مع كل شيء. وقوله هو معكم في الإشارة إلى الذات، لا يعني أنكم معه في هذا المقام. وهي المقصودة بقولنا الله أكبر من أن يوصف. وهذا التكبير هو روح كل عبادة؛ والتي هي عبارة عن التوجّه الفطري إلى ذات الحق، وإن

لم تكن معروفة أو قابلة للشهود.

فمعيــة الذات، مع احتجابها بما لا يتناهى من الحجب هي الجهة الغيبية لــكل شيء، والتــي لا يمكن لأحد أن يعرفها أو يشهدهــا. وهذا هو الاسم المستأثــر. فهو غيب كل شـــيء. بل غيب الغيــوب. لأن الكثير من الغيب مشهود. إلى أن ينتهي إلى غيب لا يمكن لأحد شهوده.

ويظهر الاسم المستأثر في بعض مواطن كلمات الإمام العرفانيّة، وكأن الإمام له رأيان فيه. فهو تارة غير معروف لأحد بشهادة الرواية المنقولة عن الإمــام الباقر عليه السلام، والتي يشير فيهــا إلى أنّ حرفاً من الاسم الأعظم هو عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده. أو الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فيها: "وَإِنَّ اسْمَ اللَّه الأَعْظَمَ ثَلاثَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَرْفاً وَحُجِبَ عَنْهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ". [الكافي].

لكنّ كلامه في الوصيّة السياسيّة الإلهيّة يبيّن أنّ خزانة الأسرار كلّها مستودعة في قلوب أهل بيت النبوّة بما فيها الاسم المستأثر!

والذي تبادر إلى ذهني ـ أنا اللاشيء ـ أنّ الاسم المستأثر هو الدّرجة التي أدركها هؤلاء الأطهار بنزولهم إلى عالم الطبيعة وكفاحهم وجهادهم فيها. كما ورد بشأن الإمام الحسين عليه السلام أنّه رأى في منامه جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله يخبره أنّ له عند الله درجة لن ينالها إلا بالشهادة أو القتل في سبيل الله.

إن ما يفضي إليه النظر العميق فيما ورد عن مقاماتهم عليهم السلام، إن مقام الاسم الأعظم كان لهم دون الحاجة إلى عبور بلاءات الدنيا. بمعنى أن صفاء أوعيتهم واكتمال عقولهم وطهارة أنفسهم كانت متحققة في الأيام الأولى التي تفتحت فيها عيونهم على هذه الدنيا. ومع وجود هذا الاستعداد فــلا يبقى من مانــع أمام شهود الاسم الأعظم. وأمّا مــا امتحنوا به في أيام حياتهم، ونجاحهم في الاستقامة على الطريقة رغم عظمة المصائب وشدة

الأذى، فقد كان سبباً لنيل توفيق شهود الاسم المستأثر واكتمال حروف الاسم الأعظم.

ولن تكتمل دائرة البحث العرفاني إلا بطرح بحث الاسم المستأثر. لأنه يرتبط بشأن الله وشأن الألوهيّة الذي فوق إدراك الإنسان. فما من معنىً يمكن أن يشير إليه بمثل الاسم المستأثر.



"لاَ يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْه الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ".



الإنسان الكامل ودوره في معرفة الله

الإنسان الكامل ودوره في معرفة الله

لطالما أكّد الإمام على أنّ "التمسّك بأولياء النّعم الذي اهتدوا إلى طريق العـروج إلى المعـارج، وأتمّوا السّير إلى الله هو من لـوازم السّير إلى الله". [معراج السّالكين]. ذلك لأنّ الحقّ تعالى شأنه كما جعل محمّداً (صلّى الله عليه وآله) وأهل بيته وسائط الهداية وعيّنهم الهداة لنا ونجّى الأمّة ببركاتهم من الضّلالة والجهل، فإنّه "يرمّم بشفاعتهم قصورنا ويتمّم نقصنا ويقبل طاعاتنا وعباداتنا غير اللائقة، فإنّه وليّ الفضل والإنعام". [معراج السّالكين]. وهذا عليّ بن الحسين زين العابدين وسيّد السّاجدين "من أعظم النّعم التي منّ بها ذات الحقّ المقدّس على عباده، وأنزله من عالم القرب والقدس لأجل تفهيم عباده طرق العبوديّة". [معراج السّالكين].

ولأجـل ذلك، يذكر الإمام مقاماتهم، تارةً، تحت عنوان الإنسان الكامل وخصائصه التي تجتمع تحت عنوان المظهريّة التامّة؛ وحيناً بما لهم من مقام محمود، امتازوا به في مراتب الإنسانيّة، فبلغوا مرتبة البرزخيّة العظمى التي يصعب فهمها وإدراكها.

عندما يذكر الإمـام ما يصل إليه الإنسان في نهاية مسيرته التّكامليّة

يأتي على حديث مرويّ عن النّبيّ الأكرم ﷺ: "من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحـي القيوم الذي لا يموت أما بعد فـإني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، فقال صلى الله عليه وآله: فلا يقول أحد من أهل الجنة للشيء كن إلا ويكون"، ويقول: "فإذا أسقط العبد تصرفاته وسلّم مملكة وجوده كلّها إلى الحقّ وخلّى بين البيت وصاحبه وفني في عزّ الربوبية، فحينئذ يكون المتصرّف في الدار صاحبها فتصير تدبيراته تدبيرات إلهيّة، فيكون بصره بصراً إلهياً وينظر ببصر الحقّ، ويكون سمعه سمعاً إلهياً فيسمع بسمع الحق.. وتكون نتيجة هذا التسليم لإرادة الحقّ في الآخرة: أنّ الحقّ تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبية، ويجعله مثلاً أعلى لنفسه". [معراج السّالكين].

فلله المثل الأعلى في السّماوات والأرض؛ وهو أحد معاني الاسم الأعظم والتجلّي الأتمّ الأكرم. وهو الانسان الذي تخلّق بأخلاق الله وتحقّق بأسمائه. ويظهـر هذا المقام بصورة الولاية على كلّ العوالم، ومنها عالم الدّنيا الذي هو عالم التغيّر والتبدّل، وهو عالم مشهود لمن كان في أسفل سافلين؛ فيقول الإمام: ".. فلا مانع من أن تقع التغيّرات والتبديلات في عالم الطّبع في ليلة القدر بما أنّه ليلة التوجّه التامّ للوليّ الكامل وليلة ظهور سلطنته الملكوتيّة، بتوسّط النفس الشّريفة للوليّ الكامل، وإمام كلّ عصر، وقطب كلّ زمان؛ وهو اليوم حضرة بقية الله في الأرضين سيّدنا ومولانا وإمامنا وهادينا الحجّة بن الحسن العسكريّ (أرواحنا لمقدمه الفـداء) فما أراد ﷺ من جزئيّات الطبيعة يبطئ حركته، وما أراد سرعته يسرّعه، وما أراد من رزق يوسّعه، وما أراد يضيّقـه، وهذه الإرادة إرادة الحقّ وظلّ الإرادة الأزليّة وشعاعها وتابعة للأوامـر الإلهيّة، كما أنّ ملائكة الله أيضاً لا يتصرّفون من عند أنفسهم. وتصرّفاتهم جميعاً، بل تصرّفات جميع ذرّات الوجود، تصرّف إلهيّ وهي من تلك اللطيفة الغيبيّة الإلهيّة، ﴿فاستقم كما أمرت﴾". [معراج السّالكين].

أمّا سرّ السرّ فهو أنّ هذه الولاية عبارة عن ظهور الأسماء المطلقة وتجليها في كلّ مراتب الوجود، "إنّ حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الألوهيّة وهي أصل الوجود وكماله". [معراج السّالكين]. وهذه الولاية عبارة عن تجلي تربية الاسم الأعظم لكل الوجود. "فالحضرة الإلهيّة ربّ الإنسان الجامع الكامل". [شرح دعاء السحر].

وبسببها يصل الإنسان الكامل إلى الاسم المستأثر أو يتّصل به. "وتلك اللطيفة الإلهيّة هي حقيقة الوجود المنبسط، والنفَس الرحمانيّ، و"الحقّ المخلوق به"، الذي هو بعينه باطن الخلافة الختميّة والولاية العلويّة المطلقة". [معراج السّالكين].

فبالنّظر إلى محوريّة الإنسان في عالم الخلقة، لكونه الموجود الوحيد الذي يعكس جميع التجلّيات الإلهيّة (ولهذا عُبّر عنه بالكون الجامع)، فإنّ سير سائر الموجودات إنّما يكون بتوسّطه؛ ولا يمكن أن ترجع كثرات السموات والأرض إلا في ظل تربية الأسماء الإلهية مجتمعة. وهو السرّ في خلافة آدم الذي علّمه الله الأسماء كلها. ولهذا، به عُرف الله وعُبد. ومبدأ هذا السرّ أنّ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي له قابلية النزول إلى أسفل سافلين، فيجمع الكثرات اللامتناهية ما شاء الله. وليس ذلك سوى الضد التام للوحدة المطلقة التي هي هدف السير المعرفي؛ والضدّ يظهر حسنه الضدّ. ولهذا، وُصف الإنسان في كتاب الله العزيز بالصّفات السّلبيّة كالهلع والجزع والمنع والعجل والخسر والكفر والكند وغيرها. وكأنّه ما من صفة سلبيّة إلّا وتظهر في أصل الإنسان، وتدل على أنه مجمع كل القابليات، كما قال تعالى بشأنه: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. حتى إذا رجع هذا الإنسان بتفعيل قابلياته، وبإخراج القوى والاستعدادات من حالة الكمون إلى التحقق، صار مظهراً تاماً لأسماء الله وصفاته.

فلأنّ الملائكة لا تعصي، لا يكون للتّوبة من معنى في وجودها وحركتها،

فلا يمكن أن تُظهر حقيقة الغفّاريّة والتوّابيّة، ويبقى الاسم الغفّار أو التواب (على سبيل المثال)، في بطون وكمون. والله تعالى أحب أن يظهر جميع صفاته وأسمائه الحسنى. وكان الإنسان القابل المطلق لظهور حضرة جمع الأسماء والصفات.

يقول الإمام الخميني: "وليُعلم أنّ لكلّ من الموجودات صراطاً خاصّاً به، ونوراً وهدايةً مخصوصة. والطّرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق، وحيث أنّ في كلّ تعيّن حجاباً ظلمانيّاً، وفي كلّ وجود وإنيّة حجاباً نورانياً، والإنسان مجمع التعيّنات وجامع الموجودات، فهو أحجب الموجودات عن الحقّ تعالى؛ ولعلّه إلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافلينَ﴾، ومن هذه الجّهة فصراط الإنسان أطول الصّرط وأظلمها. وأيضاً حيث أنّ ربّ الإنسان حضرة الاسم الله الأعظم ونسبة الظاهر والباطن والأوّل والآخر والرّحمة والقهر، وبكلمة أخيرة نسبة جميع الأسماء المتقابلة له على السّواء فلا بدّ أن يحصل لنفس الإنسان في منتهى سيره مقام البرزخيّة الكبرى، ولهذه الجّهة يكون صراطه أدقّ من جميع الصّرط". [معراج السّالكين].

وقد ذكرنا أنّ كلّ الموجودات العينيّة والمظاهر الكونيّة هي ظلال الأسماء الإلهيّة، بل هي عينها من وجه التحقق عند الله. ولأنّ مرجع كل الأسماء إلى الاسم الأعظم، فإن رجوع مظاهر الأسماء سيكون إليه أيضاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾. وهو أحد معاني تربية الاسم لمظهره.

وحيث تميّز الإنسان بقابليّة الرّجوع إلى الاسم الأعظم دون توسط، فإنّ ظهور تربيته فيه يكون أجلى وأتم؛ وبسببه صار قائداً لحركة رجوع الكل إليه. ولهذا، يكون عقاب خيانته لهذه الأمانة وجحوده وإنكاره والإعراض عنه هو الأشدّ. فالإنسان الكامل مظهر الاسم الأعظم، وبواسطته ترجع مظاهر الأسماء كلها إليه.

"وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ، فَلاَ شَيْءَ إِلاَّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ".

نهج البلاغة

ما معنى مظهرية الاسم الأعظم

لا يخفى أنّ من نظر إلى العالم من الجّهة الإلهيّة، فإنّه لن يرى فيه سوى الاسم الأعظم (وهو معنى العظمة الإلهية المطلقة). وبناء عليه، يستحيل أن يكون لأيّ شيء في هذا العالم مانعية ظهور هذه الحقيقة. فجميع الأشياء في وجودها الجمعي تمثل مظهرية الاسم الأعظم. وعندما يقول أولياء الله الكاملون: "ما نظرت إلى شيء إلّا ورأيت الله فيه"، فذلك لأنهم كانوا يرون الأشياء في هذه المرتبة الوجودية، لا في مراتبها الناقصة وقيودها العدمية.

وإذا كان النظر إلى الأشياء من جهة يلي الخلقي، متدرجاً في مراتب الشهود - وهو الذي يحصل للسّالك أثناء عبور مراتب الكمال - فإنّ الإنسان الكامل سيكون في المشهد النهائي المظهر الوحيد للاسم الأعظم. ونعلم حينها لماذا كان سير كلّ الموجودات إليه، وما هو سرّ كونه غاية كلّ المخلوقات. يقول الإمام الخميني قدس سره: "وقد ثبت في العلوم الإلهيّة أنّ معاد جميع الموجودات إنّما يتحقّق بتوسّط الإنسان الكامل ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، "بكم فتح الله وبكم يختم"، "وإيّاب الخلق إليكم"". [معراج السالكين].

".. حيث أنّ تربية نظام عالم الملك من الفلكيّات والعنصريّات

والجوهريّـات والعرضيّات مقدّمة وجود الإنسان الكامل، وفي الحقيقة هذا الوليد عصارة عالم التحقّق والغايــة القصوى للعالمين، ولهذه الجّهة صار الوليد الأخير، وحيث أنّ عالم الملك متحرّك بالحركة الذاتيّة الجوهريّة وهذه الحركــة الذاتيّة استكمالية فأينما انتهت فهو غايــة الخلقة ونهاية السّير، فــإذا نظرنا بالطريق الكلّيّ إلى الجسم الكل، والطّبع الكلّ، والنبات الكلّ، والحيوان الكلّ، والانسان الكلّ، فإنّ الانسان هو الوليد الأخير الذي وجد بعد الحــركات الذاتيّة الجوهريّة للعالم وانتهت الحــركات إليه، فيد التربية للحــقّ تعالى قد ربّت الإنسان في جميــع دار التحقّق، والإنسان هو الأوّل والآخر". [معراج السّالكين].

"فالإنسان مخلوقٌ لأجل الله، ومصنوعٌ لذاته المقدّسة، وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات، وغاية سيره الوصول إلى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف بفناء الله، ومعاده الى الله ومن الله وفي الله وبالله؛ كما يقول سبحانه في القرآن: ﴿إِنَّ إِلَيْنــا إِيابَهُمْ﴾. وسائر الموجودات ترجع إلى الحــقّ تعالى بواسطة الإنسان؛ بل مرجعها ومعادها إلى الإنسان كما يقول في الزيارة الجامعــة المظهرة لنبذة من مقامات الولاية "وإيّاب الخلق إليكم وحسابهم عليكم". ويقول: "بكم فتح الله وبكم يختم"... وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُــمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾، وقوله عليه السلام في الزيارة الجامعة: "وإيّاب الخلق اليكم وحسابهم عليكم"، سرّ من أسرار التوحيد، وإشارة إلى ں الرجوع إلى الإنسان الكامل هو الرجوع إلى الله؛ لأنّ الانسان الكامل فــانٍ مطلق وباقٍ ببقاء اللــه، وليس له من عند نفسه تعيّن وإنّيّة وأنانية؛ بل هو نفسه من الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم. كما إنّ الإشارة إلى هذا المعنى في القرآن والأحاديث الشريفة كثيرة." [معراج السّالكين].

العــارف يقول إنّني إذا شهدت الأشيــاء بعين الله فسوف أراها جميعاً

مظاهر أسمائـه. وإذا أمعنت النّظر، فسـوف أرى الإنسان الكامل مظهر اسمـه الأعظم بالتّمام والكمال؛ لا يحجب هذا الإنسان الكامل أي شيء منه، وذلك لفنائه التامّ فيـه. ولأنّ الاسم الأعظم ربّ الأسماء كلّها وهي إشعاعاته وتجلياته، فإنّ مظهره الأتمّ مربّي جميع الأعيان والمظاهر الخلقية التي هي مظاهر الأسماء. يقول الإمام: "وأوّل اسم اقتضى ذلك هو الاسم "اللـه" الأعظم، ربّ العين الثابتة المحمديـة في النشأة العلميّة. فحصل الارتباط بين الظاهـر والمظهر والرّوح والقالب والبطون والظهور. فالعين الثابتة للإنسان الكامل أوّل ظهور في نشأة الأعيان ومفتاح مفاتيح سائر الخزائن الإلهيّة والكنوز الربّانية المختفية، كلّ ذلك بسبب الحب الذاتي في حضرة الألوهية". [لطائف عرفانيّة].

وعندمـا نرى العالم في حركتـه الرّجوعيّة إلى الله، فسوف نرى مظهر الاسم الأعظم متقدّماً قافلته. وهذا المقام الذي يُترجم في الحياة الاجتماعيّة ويظهر بمقام قيادة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام للمجتمعات البشرية. ولم يكن الهدف من قيادتهم الاجتماعية إلا أن يأخذوا بأيدي الناس في رحلة الرجـوع إلى الاسم الأعظم. وقد جعلهـم الله تعالى بفضل ذلك في مقام الفاعليـة المطلقة وهو مقام الولاية الإلهية المشار إليه آنفاً؛ فأصبح كل من سواهم منفعلاً لهم، ويكون حاصل عمله وسعيه لمصلحة ما يريدون.

"إذا أراد السّالك أن تكون تسميته حقيقيّة فلا بدّ له أن يوصل رحمات الحقّ تعالى إلى قلبه ويتحقّق بالرّحمة الرحمانيّة والرحيميّة، وعلامة حصول نموذج منها في القلب أنّه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتّلطّف، ويطلب الخـير والصّلاح للجّميع، وهـذا هو نظر الأنبياء العظـام والأولياء الكمّل عليهم السلام، غاية الأمر أنّ لهم نظرين: أحدهما النّظر إلى سعادة المجتمع ونظام العائلة والمدينة الفاضلـة، والآخر النّظر إلى سعادة الشخص؛ وهم

محبّون بشكلٍ كاملٍ لهاتين السّعادتين. والقوانين الإلهيّة التي تؤسّس وتنفّذ وتكشــف وتجري بأيديهم، يراعون فيها هاتين السّعادتــين حتّى في إجرّاء القصاص والحدود والتعزيــرات وأمثالها، والتي تبدو أنّها أُسّست وقُنّنت بلحاظ نظام المدينة الفاضلة، قد لوحظ فيها كلتا السّعادتين لأنّ لهذه الأمور في الأغلب دخالة كاملة في التربية الرّوحيّة للإنسان، وإيصاله إلى السّعادة؛ حتّى الذين ليس لهم نور الايمان والسّعادة فيقتلونهم بالجهاد وأمثاله كيهود بني قريظة؛ فهذا القتل لهم أيضا صلاحٌ وإصلاحٌ؛ ويمكن أن يُقال أنّ قتلهم كان مــن الرّحمة الكاملة للنبــيّ الخاتم لأنّهم مع وجودهــم في هذا العالم يهيّئون لأنفسهم في كلّ يوم أنواع العذاب الذي لا يساوي يوم من عذاب الآخرة وعسرها كلّ أيّام الحياة في هذا العالم. وهذا المطلب واضح جدّاً عند أولئك الذين يعلمون ميزان عــذاب الآخرة وعقابها والأسباب والمسبّبات فيها، فالسّيف الذي يضرب أعناق يهود بني قريظة وأمثالهم كان ولا يزال أقرب إلى أُفق الرّحمة، منه إلى أُفق الغضب والسّخط". [معراج السالكين].

إنّ إدراك موقعيّــة الإنسان الكامل في عــالم الوجود، ومعرفة مصداقه الشخصــي في الحياة الدنيا، هــي مفتاح معرفة الأســرار والمعاني؛ ولهذا، نجــد الإمام قدس سره ينقل هذا الحديث المرويّ عــن الإمام الصادق عليه السلام: "اعلم أنّ الصــورة الإنسانيّة هي أكبر حجج الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بنــاه بحكمته، وهي مجموع صورة العالمين، وهي المختصر مــن اللوح المحفوظ، وهي الشاهد علــى كلّ غائب، وهي الطّريق المستقيم إلى كل خير، والصراط الممدود بين الجنة والنار، انتهى".
فيقول قدس سره: "فهو خليفة الله على خلقه، مخلوقٌ على صورته، متصرّفٌ في بلاده، مخلَعٌ بخلع أسمائه وصفاته، نافذٌ في خزائن ملكه وملكوته، منفوخٌ فيه الرّوح من الحضرة الإلهيّة؛ ظاهره نسخة الملك والملكوت، وباطنه خزانة الحــيّ الذي لا يموت. ولـمّــا كان جامعاً لجميع الصّور الكونيّــة الإلهيّة؛ كان

مربّى بالاسم الأعظم، المحيط لجميع الأسماء والصفات، الحاكم على جميع الرّسوم والتعيّنات." [شرح دعاء السحر].

وعليه، فإنّ معرفة مراتب الوجــود، من المراتب المجرّدة إلى المثاليّة إلى الحسيّــة، تتحقق بمعرفة هذا الإنسان؛ لأنّــه عصارة الأكوان والمفسّر لمعنى وجودها. يقــول الإمام: "واعلم أنّ الإنسان هو الكون الجامع لجميع المراتب العينيّة والمثاليّة والحسّيّة، منطو فيه العوالم الغيبيّة والشهاديّة وما فيها، كما قــال اللّه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَـاءَ كُلَّهَا﴾. وقال مولانا ومولى الموحّدين صلوات اللّه عليه على ما نقل:

أتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهو مع الملك ملك، ومع الملكوت ملكوت، ومع الجبروت جبروت." [شرح دعاء السحر].

"والإنسان الكامل لكونه كوناً جامعاً ومرآةً تامّةً لجميع الأسماء والصفات الإلهيّــة، أتمّ الكلمات الإلهيّة؛ بل هو الكتاب الإلهيّ الذي فيه كلّ الكتب الإلهيّة". [شرح دعاء السحر].

"فالإنسان الكامل [جامع] جميع سلسلة الوجود وبه يتمّ الدائرة، وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وهو الكتاب الكلّيّ الإلهيّ". [شرح دعاء السحر].

"اعلــم أنّ الإنسان الكامل هو مَثَل اللّه الأعلــى وآيته الكبرى وكتابه المستبــين والنبأ العظيم؛ وهو مخلــوق على صورته ومنشّــأ بيدي قدرته، وخليفة اللّه على خليقته، ومفتاح باب معرفته؛ من عرفه فقد عرف اللّه وهو بكلّ صفة من صفاته وتجلّ من تجلّياته آية من آيات اللّه. ومن الأمثال العليا على معرفة بارئه معرفة تامّة". [شرح دعاء السحر].

"وفي التجلّــي العينيّ أيضاً كان التجلّي للإنسان الكامل باسم اللّه بلا واسطــة من الصّفات أو اسم من الأسماء؛ وعلى سائر الموجودات بتوسّط

الأسمـــاء. وهذا من أسرار أمر اللّه بسجــود الملائكة لآدم عليه السلام؛ وإن جهل بحقيقة هذا الشّيطان اللعين، لقصوره. ولولا تجلّي اللّه باسمه المحيط لآدم عليه السلام؛ لما تمكّن من تعلّم الأسماء كلّها. ولو كان الشيطان مربوب اسم اللّه، لما وقع الخطاب على سجدته، ولما قصر عن روحانيّة آدم عليه السلام. وكون آدم مظهر اسم اللّه الأعظم اقتضى خلافته عن اللّه في العالمين". [شرح دعاء السحر].

"فالحقيقــة المحمّديّة هي التي تجلّت في العوالم من العقل إلى الهيولى، والعالم ظهورها وتجلّيها، وكلّ ذرّة من مراتب الوجود تفصيل هذه الصّورة وهذه هي الاسم الأعظم". [شرح دعاء السحر].

"فالإنســان الجامع لجميع العوالم وما فيها ظلّ الحضرة الجامعة الإلهيّة، وعــالم الأعيان ظلّ حضــرة الغيب المطلق، وعالم العقــول والنفوس ظلّ حضرة الغيب المضــاف الأقرب إلى المطلق، وعــالم الخيال والمثال المطلق ظــلّ حضرة الغيب المضاف الأقرب إلى الشهادة، وعالم الملك ظلّ حضرة الشهــادة المطلقة. ألم تــر إلى ربك كيف مدّ الظــلّ في الحضرة الأسمائية والأعيان الثابتة بالظلّ الأقدس وفي حضرة الشهادة، وعالم الملك والملكوت والجبروت بالظلّ المقدس". [شرح دعاء السحر].

وإنما كان الفيض الأقدس الذي هو نور تجلي الذات ظلاً من جهة مقارنته بأصله؛ وكذلك الفيض المقدس. فكل الأنوار إذا قورنت بمنبع الأنوار ليست سوى ظلال.

"فإنّ الإنسان مظهر اسم كلّ يوم هو في شأن، ففي كلّ حالٍ وشأن يظهر لــه محبوبه باسم ويتجلّى عليه معشوقه ومطلوبه بتجلٍّ من اللطف والقهر والجلال والجمال". [شرح دعاء السحر].

"واعلــم أنّ الإنسان لكونه كوناً جامعاً، وله بحســب المراتب النزوليّة والصعوديّة نشآت وظهورات وعوالم ومقامات، فله بحسب كلّ نشأة وعالم

لسان يناسب مقامه". [شرح دعاء السحر].

"اعلم أيّها السّالك الطالب أنّ للّه تعالى بمقتضى اسم ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ في كلّ آنٍ شأناً، ولا يمكن التجلّي بجميع شؤوناته إلاّ للإنسان الكامل، فإنّ كل موجود من الموجودات من عوالم العقول المجرّدة، والملائكة المهيمنة، والصّافات صفّاً، إلى النّفوس الكلّية الإلهيّة، والملائكة المدبّرة، والمدّبرات أمـراً، وسلطان الملكوت العليا، وسائر مراتبها من الملائكة الأرضية مظهر اسم خاص يتجلّى له ربّه بذلك الاسم، ولكلّ منها مقام معلوم، "منهم ركّع لا يسجدون، ومنهم سجّد لا يركعون"، لا يمكن لهم تجاوز مقامهم وتخطّي محلّهـم، ولهذا قـال جبرئيل عليه السلام حين سأله النبيّ، صلـى اللّه عليه وآله وسلّم، عن علّة عدم المصاحبة: "لو دنوت أنملة لاحترقت".

وأمّـا أهل يثرب الإنسانيّة ومدينة النبوّة فـلا مقام لهم؛ فلهذا صاروا حاملـي الولاية المطلقة العلوية التـي هي كل الشـؤون الإلهية؛ وصاروا مستحقّين للخلافة التامّة الكبرى؛ وصاروا أصحاب مقام الظلوميّة التي هي كما قيل تجاوز جميع المقامات وكسر أصنام الأنانيات والإنّيات والجهولية التي هي الفناء عن الفناء، ومرتبة الجهل المطلق والعدم المحض". [شـرح دعاء السـحر]. وعند العارف قد يكون الوصف السلبـي للإنسان بمعنى المدح، لأنه إشارة إلى قابليته. وما لم يكن الإنسان في أصل وجوده ظلوماً وجهولا، لا يمكن أن يصبح عادلاً وعليما.

"ولمّا كان الإنسان مظهر الذّات باعتبار مقام الألوهيّة المستجمعة لجميع الكمالات الظاهرة والباطنة، وكلّ الكمالات مستجنّة في ذات ربّه استجنان الفروع في الأصـول والكثرات في العقل الفعّال بنحو البساطة والجمعيّة، الخالصة عـن شوب الكـثرة والتركيـب، المقدّسة عن وصمـة الكثرات والحيثيّـات والاعتبارات، كان مربوبه ـ الـذي ظهر عن هذا المقام الجمعيّ ـ

مستودعـاً فيه الجمال والجلال، والظهور والبطـون، والأوليّة والآخريّة، بل كلّ الأشياء بنحو الوحدة والبساطة والاندماج والإجمال، فكان خلقه عين استيداع الكمالات الوجوديّة من السّلسلة النّزوليّة". [التعليقة على الفوائد الرضويّة].

"إنّ الإنســان الكامل صورة مجموع العوالم بوحدته الجمعيّة وبساطته الذاتيّة؛ كما أنّ العوالم الوجوديّة صورة تفصيليّة من الإنسان الكامل، فإذا كان الإنسان مظهراً لاسم الرحمن الذي هو لبسط حقيقة الوجود وسلسلتيّ النّزول والصّعود، كما قيل: ظهر الوجود ببسم الله الرحمن الرحيم، فالرّحمة الرحمانيّة لبسط حقيقة الوجود بشراشره، والرّحمة الرحيميّة لبسط كمال الوجود؛ فإذا كان مربوب اسم الرّحمن الجامع لجميع المراتب والواجد لتمام الحقائق الذاتيّة والعرضيّة هــو الإنسان الكامل، والإنسان صورة مجموع العــوالم، كانت الحقائق المسؤول عنها محقّقــة في الإنسان بنحو البساطة والوحــدة، وفي العوالم بنحو البسط والكــثرة ... فالإنسان الكامل المودع فيه حقائق الأسماء ومقتضياتهــا من اللطف والقهر، والرحمة والغضب، والهداية والإضلال، والظهور والبطون، متحقّقٌ فيه الحقائق بطريق اللطف والبساطة؛ وحيث كان العالم صورة تفصيليّة للإنسان الكامل، ولا بدّ من ظهــور دول الأسماء الإلهيّة بطريق الوحدة والكــثرة، كانت هذه الحقائق المسؤول عنها من الموجودات والمتحقّقات". [التعليقة على الفوائد الرضويّة].

"فإنّ لهم عليهم السلام مقام إطلاق المشيئة ولسائر الخلق مقام تعيُّناتها، والمقيَّدات تنـزُّلات المشيئة المطلقة ومظاهرها، كما ورد من طريقهم عليهم الســلام: "خلق الله مــن نورنا العرش والكرسيّ والجنّــة والنّار والشمس والقمر"، وورد: "بكم فتح الله وبكم يختم". فمقام الولاية المطلقة داخل فيه كلُّ مــن شرب من كأس الوجود من عوالم الغيب والشهود شقيّاً وسعيداً، كمــا ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: "آدم ومن دونه تحت لوائي"، ومن

دخل فيه سلوكاً أيضاً فهو من أهل السعادة؛ فإنّها الحصن الحصين الآمن مــن العذاب، وإن كان سلــوك كلّ سالك ـ شقيّاً وسعيداً حقّـاً وباطلاً ـ إلى الولاية المطلقة، ومن بـاب الـولاية إلى الله تعالى: إمّا إلى الرّحمن الرّحيم، إن كان من المؤمنين وأصحاب السعادة، أو إلى الـمُضلّ والمنتقم، إن كان مـن الظالمين وأهل الشقاوة، والكلّ إلى اسم الله الجامع ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ و﴿إِنَّا لله وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. فمقام ولاية الله المطلقة مظهر اسم الله الأعظم مفتاح سلسلة الوجود ومختمها وأوّلها وآخرها". [التعليقة على الفوائد الرضويّة].

"من سلك سبيل الحقّ، وخرج عن الأنانيّة بقول مطلق، وفنى ذاتاً وصفةً وفعــلاً وشأناً في الربّ المتعال، وسلّم مملكة وجــوده إلى القيّوم ذي الجلال، وأتى الله بقلبٍ سليم، ووصل إلى مقام العبوديّة بالطريق المستقيم، وتحقّق بحقيقة "لا موجود سوى الله، ولا هو إلّا هو"، ربّما شملته الرّحمة الواسعة الإلهيّة والفيوضات الكاملة الرّبوبيّة، بإرجاعه إلى مملكته وإبقائه بعد فنائه، فيرجع حين يرجع رابحاً في تجارته غير خاسرٍ في معاملته، فإنّه تعالى أكرم المتعاملين وأجود المتابعين، فأعطاه تعالى في مقابل تسليم روحه الجزئيّة روح الكلّ، وفي مقابل نفسه الجزئيّة نفس الكلّ، وفي مقابل جسمه الجزئيّ جسم الكلّ، فيصير عالم الوجود مملكة وجوده ومقرّ سلطنته ومسند أمارته. [التعليقة على الفوائد الرضويّة].



"الْحَمْدُ لله الَّذي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانه، وَجَلاَلِ كِبْرِيَائِه، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ".



الوحدة في عين الكثرة
أو علاقة الذّات بما سوى

الوحدة في عين الكثرة
أو علاقة الذات بما سوى

لمّا كانت معرفة الله هي الهدف من الخلق، ينبغي أن نعلم أنّ هذه المعرفة لا تتمّ إلّا بتوحيده. فالوحدة أو الأحديّة صفة مقوّمة لجميع الصّفات الإلهيّة؛ بمعنى أننا لو عرفنا الله تعالى بجميع أسمائه الحسنى دون توحيده، لا نكون قد عرفنا شيئاً منها في الحقيقة. فهو عزّ وجلّ العليم القدير، لكنّنا لو جعلنا لغيره القدرة أو العلم في مقابله فقد جهلنا قدرته وعلمه. والجهل بالله تعالى لا يُعذر؛ نظراً لما أرانا الله من آيات توحيده، وأتمّ علينا من حجج وحدانيّته.

نستطيع أن نعبّر عن التوحيد بعبارات واضحة وموجزة، فنقول: لو قُدّر لنا أن نرى كل شيء دفعة واحدة، لسطع نور الذّات الإلهيّة المقدّسة في بساطة وصرافة لا تركيب فيها ولا تكثير. ولو بلغنا هذا المقام وأشرفنا عنده على أيّ شيء، فلن يحجبنا هذا الشيء عن أعظم تجليات الذات المقدّسة. ولو صدرت منّا أفعال وحركات في هذا المحضر، فلن تكون سوى عبادة لله وخضوع له.

يقـول الإمام الخميني قدس سره: "وهو تعالى وتقدّس مع علوّ شأنه وتقدّسه عن مجانسة مخلوقاته وتنزّهه عن ملابسة التعيّنات بائنٌ في المظاهر الخلقيّة، ظاهرٌ في مرآة العباد؛ وهو الأوّل والظاهر والباطن. كذلك الأفعال والحركات والتأثيرات كلّها منه في مظاهر الخلق. فالحقّ فاعلٌ بفعل العبد، وقوّة العبد ظهـور قوّة الحق.﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّـهَ رَمَىٰ﴾(الأنفال:17). فجميع الذوات والصفات والمشيئات والإرادات والآثار والحركات من شؤون ذاته وصفتـه، وظلّ مشيئته وإرادته، وبروز نـوره وتجلّيه؛ وكلّ جنوده ودرجات قدرته؛ والحقّ حقّ والخلق خلق، وهو تعالى ظاهر فيها وهي مرتبة ظهوره.

ظهور تو به من است ووجود من از تو

ولست تظهر لولاي لم أكن لولاك

فمـن نسب الفعل إلى الخلق وعزل الحقّ عنه، بزعم التنزيه والتقديس، فهـو قاصرٌ وظالمٌ لنفسه وحقّه، ومحجوبٌ عـن الحقّ، ومطرودٌ عن الرّب؛ تنزيهه وتقديسه تقصيرٌ وتحديدٌ وتقليد، فهو داخلٌ في قوله ﴿المغضوب عليهم﴾ عاكفٌ في الكثرات بلا توحيد. ومن نسبه إلى الحقّ مع عدم حفظ الكثرة فهو ضالٌ بتجاوزه الاعتدال، وداخل في قوله ﴿الضالين﴾. والصّراط المستقيـم والطريق المستبين الخروج عن التّعطيـل والتشبيه، وحفظ مقام التوحيد والتكثير، وإعطاء حقّ الحقّ وحق العبد". [شرح دعاء السحر].

ولأجل بلوغ هذا التوحيد، اقتضت حكمة الله تعالى أن يتدرّج الإنسان الغافل المحتجب في مراتب التّربية؛ فيتفعّل فيه الاستعداد تلو الاستعداد. وكانـت الحكمة والقدرة والمشيئة أن يتكامل وجـوداً بتكامله معرفة. وفي رحلتـه المعرفيّة هذه، فإن أفضل مؤشر على التكامل الواقعي هو التكامل في إدراك التّوحيـد. وبتكامل معرفته التّوحيدية واشتدادها، سوف يفسّر الأشياء من حوله وفق هذا التوحيد.

فــأوّل مرتبة من التوحيد أن يلتفت إلى أنّه شخصٌ واحد؛ ثمّ يعلم أنّه ينتمي إلى مجتمع واحد أو أمّة واحدة؛ ثمّ يكتشف أنّه يعيش في عالم واحد. وإنّما يكتشف الوحدة في أي شيء، إذا أدرك الارتباط المحكم بين الأعضاء أو الأجزاء الظاهرة لذلك الكيان.

وعندمــا ينسجم العالم الطبيعيّ في نظره ويراه كياناً مترابطاً لا تفاوت فيــه، فإنّه يــدرك أنّ له خالقاً ومدبراً واحــداً؛ وسوف يعلم من صفات هذا الخالق الواحد بمقدار ما سيدركه من هذا العالم الطبيعيّ وخصائصه.

فانتظام العالم الماديّ ـ الذي يشار إليه بأنّه أوّل معلوم مرتبةً وإدراكاً ـ هو الذي يهيّئ الإنسان لإدراك أوّل تجلّيات التوحيد، كالتوحيد في الخالقيّة أو التدبير.

ويبقى أمام من يسلــك الطريق التكاملي بقدم المعرفة عوالم أعلى هي السموات السبع التي سيتجلّى فيها توحيد الخصائص والصّفات الإلهيّة بصورة أشدّ وأقوى.

ولهــذا كان التحدّي المعرفيّ الكبير الذي يواجه الإنسان (وهو في هذه الدنيا وخصوصاً في زماننا هذا زمن التجزيء والتفكيك)، في مدى قدرته على جمع الأجــزاء الكثيرة التي تنسجــم في خصائصها، وفي اكتشاف الترابــط المحكم الذي يجمعها ويوحّد بينها. فيكون بذلك قد خطا الخطوة الأساسيّــة نحو إدراك فقرهــا واحتياجها (كمجموعة واحــدة) إلى الغنيّ المطلق. ومثل هذه الخطوة هي التي تخرج الإنسان من حجاب الكثرة.

يقــول الامام الخمينــي قدس سره: "... فنفهّم القلب أنه لا كمال ولا كامل في جميــع دار التحقّق سوى الذّات المقدّسة الكاملة علــى الإطلاق فإنّ تلك الــذّات المقدّسة كمالٌ بلا نقص، وجمالٌ بلا عيب، وفعليّة بلا شوب القوّة، وخيرٌ بلا اختلاط بالشرّ، ونورٌ بلا شوب ظلمة. وكل ما في دار التحقّق من

الكمال والجمال والخير والعزّة والعظمة والنّورانيّة والفعليّة والسّعادة فهو من نــور جمال تلك الذّات المقدّسة، وليس لأحدٍ شراكة مع الذّات المقدّسة في كمالهــا الذاتيّ، وليس لموجودٍ جمال ولا كمال ولا نور ولا بهاء إلّا بجمال تلك الذّات المقدّسة وكمالها ونورها وبهائها". [معراج السالكين].

فمــا دام الإنسان قاصر النظر على أجزاء الشّيء الواحد في كثرتها المتفرّقــة، فهو ما عرف حقيقتها. كما إذا افترضنــا أنّ إنساناً لم يشاهد في حياتــه اليد أو الرّجل متّصلةً بالجســد، فيستحيل عليه أن يعرف أنّ هــذه يد أو رجل. وذلك لأنّ اليديّــة أو الرجليّة في اليد والرّجل منوطة بوجودهــا ضمن جسدٍ واحد. ونحن بعــد معرفتنا بكامل الجسد، عرفنا اليد فيما إذا شاهدناها لوحدها.

وهكذا حقيقــة الصّفات والأسماء الإلهيّة، لا تُعرف إلّا في وجودها الجمعــيّ المعــبّر عنه بمقــام الواحديّة أو الاســم الأعظم. "وكمــا أنّه في معرفــة شــؤون الرّبوبية جلّــت عظمته، عُــرّف الحقّ سبحانــه في العلوّ الأعلــى والدنوّ الأدنى بمقام الجامعيّة، وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. و﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾ إلى آخره، "ولو دلّيتم بحبلٍ إلى الأرضــين السفلى لهبطتم على الله"، ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. إلى غــير ذلك ممّا قاله ويحصل به للعارف بالمعــارف الإلهيّة والمجذوب بالجّذبــات الرحمانيّة طربٌ ملكوتيّ ووجدٌ لاهوتــيّ. كذلك فقد أسرى التّوحيــد العمليّ القلبيّ إلى آخر مراتــب أُفق الطّبيعة وملك البدن، ولم يحرم موجوداً من حظّ معرفة الله". [معراج السالكين].

وهذا التجلّي الأعظم له حضرة تعكس ماهيته بكل أبعادها وعالم يظهر تجلياتــه في أتم معانيها ومراتبها؛ وما لم نرَ تجلياته المتكثرة إلى ما شاء الله متّحدةً مترابطةً فنحن نجهله؛ وبجهلنا إياه نجهل الصّفات والأسماء التي هي

تجلياته الحسنى، وبجهلنا للأسماء نكون قد جهلنا الله، حيث لا عذر لنا معه.

إنّ هدف العارف أن يفتح أعيننا على عوالم التّوحيد. ولأجل ذلك يدلّنا على طريقين متكاملين. الأوّل: طريق العوالم والمراتب الوجودية التي تنسجم مع خلقتنا، وهي العوالم الأنفسية. والثاني: طريق العوالم الآفاقيّة، التي نراها خارج أنفسنا، والتي ستبدو لنا في رحلة التوحيد الشاملة سبعة عوالم كلية.

"فبنظر الكثرة ورؤية التعيّنات والموجودات المتكثّرة ومراتب الوجود وتعيّنات العالم تكون الأسماء مختلفة، فرحمانيّة ورحيميّة وقهريّة ولطفيّة. وبنظر اضمحلال الكثرات وانمحاء الأنوار الوجوديّة في النّور الأزليّ للفيض المقدّس، فليس لغير الفيض المقدّس والاسم الجامع الإلهيّ خبرٌ ولا أثر، وهذان النّظران موجودان في الأسماء والصّفات الإلهيّة أيضاً. فبالنّظر الأوّل تكون حضرة الواحديّة مقام كثرة الأسماء والصّفات وجميع الكثرات من تلك الحضرة، وبالنّظر الثاني ليس سوى حضرة الاسم الله الأعظم من اسم أو رسم وهذان النّظران حِكميّان وبقدم الفكر. وأمّا إذا كان النّظر نظراً عرفانيّاً بفتح أبواب القلب وبقدم السّلوك والرّياضات القلبيّة يتجلّى الحقّ تعالى بالتجلّيات الفعليّة والاسميّة والذاتيّة في قلوب أصحابها تارة بنعت الكثرة وطوراً بنعت الوحدة". [معراج السّالكين].

ومثلما أن معرفة الإنسان بنفسه تبدأ من معرفته بأفعاله وإدراكه أنها نابعة من مصدر آخر هو الصفات، وأن هذه الصفات ليست سوى تجلٍّ لأصل واحد هو الذات، كذلك فإنّ معرفته بربّه تتدرج من التوحيد الأفعاليّ إلى التّوحيد الصّفاتي، ثمّ إلى التّوحيد الذاتيّ، وهو عين التّوحيد الحقّ كما أشرنا. وهذه المعرفة الأنفسية التي تحصل في السلوك العلمي والعملي هي التي تؤهل السالك لمشاهدة مراتب التوحيد؛ بل هي بنحو آخر عين ذلك الشهود لقوله من عرف نفسه فقد عرف ربّه.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إذا رأى السّالك نفسه حاضراً في محضر الحقّ المقدّس جلّ وعلا، بل وجد باطنه وظاهره وسرّه وعلنه عين الحضور، كما رُوي في الكافي والتوحيد أنّ الصادق عليه السلام قال: "إنّ روح المؤمن لأشدّ اتّصالاً بروح الله من اتّصال شعاع الشّمس بها"، بل ثبت بالبرهان القويّ المتين في العلوم العالية أنّ جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى منازل الشّهود هي عين التعلّق والرّبط، ومحض التدلّي والفقر، إلى القيّوم المطلق جلّت عظمته". [معراج السالكين].

"فيمكن أن تحصل للسّالك في هذا المقام حالة التوحيد الذاتيّ وينصرف عن كثرة الأسماء والصّفات أيضاً، وتكون وجهة القلب حضرة الذّات بلا حجب الكثرات. وهذا هو كمال التّوحيد الذي يقوله إمام الموحّدين ومقدّم حلقة العارفين وقائد العاشقين ورأس سلسلة المجذوبين والمحبوبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده المعصومين: "وكمال التوحيد نفي الصفات عنه" لأنّ للصّفة وجهة الغيريّة والكثرة. وهذا التوجّه إلى الكثرة الأسمائيّة بعيد عن سرائر التوحيد وحقائق التجريد، ولهذا فلعلّ سرّ خطيئة آدم عليه السلام كان التوجّه الى الكثرة الأسمائيّة التي هي روح الشّجرة المنهيّة". [معراج السالكين].

وقد يسلك الإنسان العوالم الآفاقيّة، وفي كلّ عالم ما شاء الله من الموجودات، فيتعرّف - بعد إدراك الرّابطة الوجودية الواحدة بين موجودات هذا العالم - على خصائص وحدانية خالق هذا العالم والعوالم الكليّة، كما أشرنا، سبعة هي السّماوات السّبع. ويجدر الإشارة إلى أن الأرض بعد أن تشرق بنور ربّها وتسلك طريق التبدّل تصبح عالماً تنعكس فيه أنوار الرب المتعال وتتحد مع السماء الأولى. وعندها تترقى في المرتبة الوجودية وتزداد قوة وعظمة في إظهار توحيد الحق المتعال.

وهذان الطّريقان (طريــق الأنفس وطريق الآفاق) متضافران، تتكامل إمكاناتهمــا وتتسع في رحلة الإنســان المعرفيّة. ومع كل عبور ناجح لعالم وجوديّ، تزداد قــوّة الإدراك في الإنسان، وتتفتح حواسه الباطنة وقنوات معرفته واتصاله ليصبح مؤهلاً لعبور العالم اللاحق. فعينه التي كان يرى بها من العوالم السّبعة عالماً واحداً هو عالم المادة المتصرّمة، ستزداد قوة وبصيرة فــيرى من تلك العوالم عالماً ذا خصائصــ إضافيّة، وهكذا. وكذلك لنري إبراهيم ملكوت السمــوات والأرض وليكون من الموقنين. وبعبارة أخرى، إنّ هذه الأرض سيراها طوراً بعد آخر بحسب قوّة نظره؛ فيرى فيها مع كلّ طور المزيد من الخصائص التوحيديــة ومراتبها، وهي التي ما كان ليراها قبل قوّة النّظر وحدّته. حتّى إذا صار البصر حديداً شهد حقيقته التي هي المالكية العظمى وقامت قيامته: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّه الْواحدِ الْقَهَّارِ﴾. فهذه هي حقيقة القيامة الكبرى التي تنعدم فيها كل الأوهام من أمام الأبصار فلا ترى سوى الله.

"فكلّما خلص الوجود من شوب الأعدام والفقدانات واختلاط الجهل والظّلمات يصير بمقدار خلوصه بهيّاً حسناً. فعالم المثال أبهى من ظلمات الطبيعــة، وعالم الرّوحانيات والمقرّبين من المجــرّدات أبهى منهما، والعالم الربوبــيّ أبهى من الكلّ، لخلوصه من شوب النّقص، وتقدّسه عن اختلاط الأعــدام، وتنزّهه عن الماهيّة ولواحقها، بل لا بهــاء إلاّ منه، ولا حُسن ولا ضياءَ إلا لديه، وهو كلّ البهاء وكلّه البهاء.

قال السيد المحقّق الداماد قدّس سرّه في القبسات على ما نقل: "وهو تعــالى كلّ الوجود وكلّــه الوجود، وكلّ البهاء والكمــال وهو كلّه البهاء والكمــال، وما سواه على الإطلاق لمعات نــوره ورشحات وجوده وظلال ذاته". انتهى .

فهــو تعالى بهاءٌ بلا شوب الظلمة، وكمالٌ بلا غبار النقيصة، وسناءٌ بلا اختــلاط الكدورة، لكونــه وجوداً بلا عدم وإنّيّة بــلا مهيّة. والعالم باعتبار كونه علامة له ومنتسباً إليه وظلّه المنبسط على الهياكل الظلمانيّة والرّحمة الواسعــة على الأرض الهيولائيــة، بهاء ونور وإشراق وظهــور، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِه﴾(الإســراء:84)، وظلّ النّور نور ﴿أَلَمْ تَــرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾(الفرقان:45) وباعتبار نفسه هلاك وظلمة ووحشة ونفرة، ﴿كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَه﴾(القصص:88). فالوجه الباقي بعد استهلاك التعيّنات وفناء الماهيّات، هو جهة الوجــوب المتدلّية إليه التي لم تكن مستقلّة بالتقوّم والتحقّق ولا حكم لها بحيالها، فهي بهذا النظر هو. ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: "لو دُليتم إلى الأرض السفلى لهبطتم على اللّه". فهو هو المطلق والبهاء التام لا هوية ولا بهاء لغيره والعالم بجهته السّوائية لم يكن له البهاء والهويّة ولا الوجود والحقيقة، فهو خيالٌ في خيــال والكليّ الطبيعي غير موجود. فإذا لم يكــن موجوداً فكيف يكون له البهاء والنّــور والشرف والظهور، بل هو النّقصان والقصور والهلاك والدثور". [شرح دعاء السحر].

ومــن تحقّق بهذا البصر في الحياة الدّنيا فهــو الذي انعتق من الموت أو يــكاد. فلا يحتاج إلى هذا العبور القهري الجلالي لإدراك الحقيقة التي هي غاية الغايات.

لــو أدرك الإنسان وحدة أفعاله (عــرف نفسه)، فإنّه سيدرك الوحدة في فاعليّــة كل من يشبهــه (عرف غيره بنفسه، لأن الــكل فقير وعين الفقر)، وعندها سيرى جميع الأفعال نابعة من فاعلٍ واحدٍ هو الله (عرف ربّه).

"إنّ جميــع الاعمال من الهبات الإلهيّة والنّعــم التي أجراها الحقّ تعالى على يد العبد، فإذا استقرّ التوحيد الفعليّ في قلب السّالك، فلن يرى العمل من نفسه ولا يطلب الثّواب؛ بل يرى الثواب تفضّلاً والنّعم

ابتداء". [معراج السالكين].

"إنّ مــن مهمّات السلوك وأركان العروج: التوجّه التام إلى توحيد الحقّ الفعليّ وتذكير القلب بهذه اللطيفة الإلهيّة والمائدة السماويّة، وإذاقة القلب حقيقــة مالكيّة الحقّ تعالى للسّماوات والأرضــ والباطن والظاهر والملك والملكوت؛ حتــى يرتاض القلب بالتّوحيد في الإلهيّــة ونفي الشّريك في التصرّف ويخمّر بالتخمير الإلهيّ ويُربّى بالتربية التوحيدية". [معراج السالكين].

"إنّ السّلطنة الإيجاديّة والاستقلال في التّأثير بل أصل التأثير منحصر بالذّات الإلهيّة المقدّسة وليس لسائر الموجودات فيها شركة." [معراج السالكين].

"وبالجملــة، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين مــن متفرّعات الحمد لله الذي هو إشــارة إلى التّوحيد الحقيقيّ، ومن لم تتجــلّ حقيقة التّوحيد في قلبه ولم يطهّر قلبه من مطلق الشّرك فقوله ﴿إيّاك نعبد﴾ لا حقيقة له ولا يتمكّن من حصر العبادة والاستعانة بالحقّ ولا يكون شاهداً لله وطالباً لله، وإذا تجلّى التوحيــد في القلب فإنّه ينصرف عن الموجــودات ويتعلّق بعزّ قدس الحقّ بمقــدار تجلّيه إلى أن يشاهد أنّه باسم الله يقع ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾، وتتجلّى لقلبه بعض حقائق "أنت كما أثنيت على نفسك". [معراج السالكين].

"ففي هذا التّوحيد الفعليّ أيضاً لا بدّ أن يكون صدق اللسان موصولاً بصفــاء سرّ القلب لأنّ الحقّ جلّ وعلا هو الخالــق ولا مؤثّر غيره. وجميع الإرادات والمشيئات ظلّ إرادته ومشيئته الأزلية السابقة". [معراج السالكين].

"وليُعلم أنّ ناصية العباد بيد الحقّ تعالى ولا يقدرون على التنفّس والنّظر إلا بقــدرة الحقّ تعالى ومشيئته وهم عاجزون عن التصرّف في مملكة الحقّ بجميع أنواع التصرّفات وإن كان تصرّفاً تافهاً إلا بإذن وإرادة ذاته المقدّسة كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾". [معراج السالكين].

فهذه هي المرتبة الأولى من التوحيد وهي التوحيد الفعلي أو الأفعالي الـذي يعني أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله تعـالى. ولو أدرك هذا الإنسان بعدها وحدة صفاته وكيف أنها ترجع جميعاً إلى أصل واحد، فإنّه سيتمكّن من رؤية جميع الكمالات في هذا الوجود نابعة من أصل واحد أيضاً، وعندها سيـدرك أنّها قائمة بالله. "إنّ العبد السّالك إلى الله اذا حصر المحمدة في ركن التحميد بالحقّ تعالى وسلب الكمال والتّحميد عن الكثرات الوجوديّة يقرب من أُفـق الوحدة وتعمى بالتدريج عينه النّاظرة إلى الكثرة وتتجلّى على قلبه الصّورة الرّحمانية التي هي بسط الوجود والصّورة الرحيميّة التي هي بسط كمال الوجود. ويصف الحقّ بالاسمين المحيطين الجامعين المضمحلّة فيهما الكثرات فيحصل للقلب بواسطة التجلّي الكمالي الهيبة الحاصلة من الجمال فتستقرّ عظمة الحقّ في قلبه". [معراج السّالكين].

وهذا هو التوحيد الصفاتي الذي يعني إرجاع كل الكمالات والخيرات والمحامد والمدائـح إلى أصل واحد وذات فارد؛ وهو أصل الوجود ومنبعه؛ لأن الوجود منبع كل شرف.

وإذا أدرك معنى وجوده الواحد، سيدرك أنّ كل ما حوله ليس له سوى وجودٌ واحد، وكأنّه ينبع أو يقوم في وجوده من مصدرٍ واحدٍ وهو الله. فلا يبقى من كثرة وجودية. بل هو وجود واحد له كل هذه المظاهر. يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: "إنّ التوحيد عبارة عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة وجعل جهات الكثرة مستهلكة ومضمحلّة في عين الجمع". [معراج السّالكين].

إنّ شهود الكثرة دليل على بقاء العمى عن الوحدة والحقيقة. سواء كانت هذه الكـثرة في الأفعال أو صفات الكائنـات أو في الإنيات والوجودات. فما لم نرجع هذه الكثرات إلى أصلٍ واحدٍ فنراها تشعشعات ذات واحدة، فإننا ما زلنا بعيدين عن إدراك الحقيقة. "فاعلم أيّها الفقير أنّ العالم بوجهته

السّوائيّة زائل وداثر وفانٍ وباطل؛ ليس لأحد من الموجودات من قِبل نفسه شيء، وليس في ذاته جمالٌ ولا بهاء ولا نورٌ وسناء، والجمال والبهاء منحصرٌ بالذّات المقدّسة. فتلك الذّات المقدّسة كما أنّها متفرّدة في الألوهيّة ووجوب الوجــود، فهي أيضاً متفرّدة بالجمال والبهاء والكمال؛ بل متفرّدة بالوجود. وإنّ ذلّ العدم الذاتيّ والبطلان منقوشٌ على ناصية ما سواه. فاصرف قلبك الــذي هو مركز لنور فطــرة الله عن الجّهات المتشتّتــة للأباطيل والأعدام والنّواقصــ، ووجّهه إلى مركز الجمال والكمــال وليكن لسان فطرتك في ضميرك الصّافي- ما يقوله العارف الشيرازي:

لا تسع قلوبنا أحداً غير الحبيب

فدع الكونين للعدوّ فإنّ الحبيب يكفينا". [معراج السّالكين].

وبالرّغم من سهولة المطلب علميّاً، فإنّ التحقّق به ومعايشته في النّفس والقلــب والعمل أمرٌ في غاية الصّعوبة. أجل، إنّ الواصلين ممّن سبقت لهم منــه الحسنى يتعجّبون كيف لا يرى النّاس هذه الوحدانيّة ويقولون عميت عينٌ لا تراك عليها رقيبا. "فنحن واقعون في التّكثير وليس عندنا خبرٌ من التّوحيد الذي هو قرّة عين أهل الله، ندقّ طبلَ لا مؤثّر في الوجود إلّا الله، ومع ذلك نمدّ عين الطّمع ويد الطّلب إلى من هو أهل وغير أهل". [معراج السّالكين].

ولو تأملنا في هــذه المشكلة لوجدنا أنّ مركزها وأصلها يقع في ساحة القوى الإدراكيّة للإنسان. ولهذا، دارت جميع المعارك حولها. ولو فرضنا أن العوائــق أو المشاكل الأخرى لم تنته إلى هذا المركز، فمن الممكن أن يجبر الإنسان هذا الضرر ويحل هذه المشاكل.

إنّ القوى الإدراكيّة للإنسان، تكون في بداية الأمر، في منتهى الضّعف؛ ولأجــل ذلك جعل الله بقية الكائنات التــي تحيط به تهبّ لنجدته. وبهذه العنايــة من المفترض أن تتفعل تلك القــوى، وتخرج من الضعف وتسلك

طريقها المحمود في التكامل. هذا هو المتوقع في الحياة الطيبة التي أرادها الله للبشر على هذه الأرض؛ ولكن إذا قام النّاس بتخريب تلك القوى وتعطيلها من خلال التربية الفاسدة، فسوف تنحرف عن مسارها الذي تحدثنا عنه آنفا، ويفقد فرصة تفتّح حواسه الباطنية. إن البيئة الأولية للإنسان كانت بكلّ أبعادها وتفاصيلها جاهزة ومناسبة لتكامل القوى الإدراكيّة التي يتمكّن بواسطتها من عبور مراتب شهود الحقيقة، ليصل إلى حقيقة الحقائق؛ لكنّ النّاس وباتّباعهم لخطوات الشيطان خرّبوا هذه البيئة وأفسدوها بعد أن كانت أفضل حاضن لتربية الإنسان. وبسبب ذلك بقيت العوالم الوجوديّة الأخرى تنتظر من يسلك طريقها وهو طرق السموات. ولكن، ما الحل؟ والنّاس قد عطلوا الكثير من مقومات العالم الأوّل الذي كان يُفترض أن يكون منصّة عروج إلى العوالم الأخرى.

ولهذا، صار لزاماً على كلّ من يريد طيّ طريق المعرفة أن يسعى لإصلاح البيئة الاجتماعيّة (لأنها السبب في التخريب الذي يحصل للأرض منصة العروج) أولاً من أجل أن ينتقل لإصلاح البيئة الكونيّة ثانياً. فإذا سعى جهده من أجل أن يهاجر إلى الله ورسوله، ولم يتمكن من الإصلاح في حياته، فسوف يقع أجره على الله، فيأخذ بيده عبر عوالم الوجود الأخرى؛ قال تعالى: ﴿والشهداء عند ربّهم لهم أجرهم ونورهم﴾. وهناك سيستوفي حظّه من المعرفة ويتكامل في رحلة يسّرها له ربّه، لأنه أراد أن لا يُعصى في الأرض أبدا. وفي الرّوايات والنصوص الدينية إشارات إلى حدوث تحوّل نوعيّ في أذهان الذين يسلكون طريق "أتباع مصلح الأرض ومخلّص البشريّة". قال الله تعالى: ﴿وَالَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنينَ﴾.

إنّ تخريب المجتمع الإنسانيّ يؤدّي إلى إيجاد بيئة تتفاقم فيها الشّبهات

وتكثر المغالطات وتهيمن عليها التّفسيرات الخاطئة للأحداث والتحرّكات. فلو نظرنا اليوم إلى الإعلام الذي يهيمن على مسرح تفسير الأحداث الاجتماعيّة لوجدناه بمعظمه واقعاً بأيدي الطّواغيت أو متأثّراً ومنفعلاً بهم. هذا الإعلام الذي يقوم يوميّاً بتجزئة الوقائع - إن لم نقل أنه يختلق الوقائع - فيردّ كل واقعة جزئية إلى سببٍ قريب دون أن يرجعها إلى سببها الأول، ويفكك الرابط بينها، وعندها سيختفي المشهد العام لحركة البشرية بقيادة الأولياء المصلحون. وليس هذا إلّا أحد مظاهر التّكثير الذي ينبع من بحر الجهل الأجاج. وإنّ أشدّ ما يخافه إبليس اللعين وأولياؤه المشركون أن يتمكّن النّاس من اكتشاف الرّوابط بين أحداث الحياة الكبرى؛ لأنّ ذلك سيرجعها إلى أصلٍ واحدٍ، وهناك سنشهد عظمة التدبير الإلهيّ لكل مجريات الحياة ووقائعها.

هذا الإعلام الأعمى يقدّم لنا إسرائيل في يوميّاتها، فإذ بنا نراها قوّةً متسلّطة ممسكة بزمام الأمور تفعل ما تشاء. ولو انطلق الإعلام من رؤية كونية توحيدية، وقام بوضع كل تحوّلات هذا الكيان في سياقٍ زمنيّ تاريخيّ، لظهرت إسرائيل وهي تسير منذ تأسيسها نحو مصيرٍ مشؤوم؛ ولظهر معها مدى خواء الاستكبار الذي صنعها ومستوى حماقته.

وها هو تخريب البيئة الاجتماعيّة بتسليط الظالمين يؤدي إلى تخريب الأرض ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾؛ فالظلم يؤدي إلى الفقر؛ والفقراء والمعوزون سيضطرون إلى تسخير الأرض بطريقة تخريبيّة؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام: "وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها". [نهج البلاغة]. ويتصاعد التخريب إلى السماء الدنيا، ويغلب على الناس حال العبث واليأس، وتنتشر بينهم نزعة الصدفة واللغو. فكيف يتوقع، والحال هذه، أن لا تقدم الحركة العلمية والتوجهات الفكرية هذا الكون الذي نحن

فيه إلا كحصيلة انفجار كبير قد نتج عن تراكم ذرّات صغيرة!

ومن الطبيعي عندئذ أن تنحسر الحواس وتتقوقع في دائرة واحدة لا تتعدى هذا العالم المادي البعيد عن النظام المحكم، فينسد باب المعارف التوحيدية، ويصبح عبوره صعباً وعسيراً. لقد كان من المفترض أن يكون العالم المادي مرآة ومنظاراً جيداً للإطلاع والنظر إلى العالم الأعلى؛ فانظر ماذا فعل الناس به.. وقد نجم عن كل هذه العبثية مساع كثيرة لإدراك الحقيقة المخفية، فظهرت المذاهب وتعددت الفلسفات. وصار كل حزب من الناس بما لديهم فرحين بما يقدمونه من تفسير للحياة والوجود والمصير. ولمّا ازدحم الجواب خفي الصّواب. وإنّما لجأ العلماء إلى الطريق الفكري المتعرّج بعد أن تمّ إقصاء المعلّمين الواقعيين عن حكومة المجتمع وقيادته، وهم الأدلّاء على الله والدّعاة إلى الحقيقة.. وهذه هي العقوبة الإلهيّة الكبرى لأهل الأرض بتركهم سبيل الأنبياء. وهي أوّل جزاء على إعراضهم عن السّبيل السّهل الميسّر.

وقد رأى العديد من المؤمنين بالأنبياء ضرورة القيام بتصحيح تلك التفسيرات الخاطئة أو الردّ عليها؛ وبعضهم لم يلتفت إلى أنّهم وقعوا في فخّ النهج الخاطئ الذي سلكه خصوم الأنبياء. فخرجت الحقائق من بين أيديهم صعبة المنال؛ وابتُلي النّاس بسبب ذلك بالنفور منها بسبب العجز عن إدراكها.

هذا، وأنت تسمع وتقرأ للطيّبين أنّ طريق الحقيقة واضحٌ ميسر، وهي ليست بعيدة عن العقل والإدراك. وإنّ الوصول إليها لا يحتاج إلى أكثر من طهارة الباطن وصفاء القلب. وإنّ العقل المتحرّر من قيود الأوهام وأسر الأهواء قادر على سبر أغوار العوالم كلّها.

ولا شكّ بأنّ جانباً مهمّاً من أسباب إعراض النّاس عن حقائق المعارف

يرجع إلى انشغالهم عنها بهذا العرض الأدنى وتوجّه قلوبهم إلى الدّنيا الدنيّة التي زيّنها لهم عمّال إبليس. لكنّ هذا لا يعفي أهل العلم من مسؤوليّة تحرير المعارف التوحيديّة من تلك التعقيدات، لأنّ بدء التغيير يكون من العلم وبالعلم. وإنّ من يتأمّل في مسيرة الإمام الخميني قدس سره الإصلاحيّة يقطع بأنّ هذا القائد لو لم يكن من أهل العلم والتعليم ـ وخصوصاً المعارف الإلهيّة ـ لما حقّق ما حقّقه على مستوى الإصلاح الاجتماعيّ.

إنّ بداية إصلاح البيئة الاجتماعيّة من أجل تفعيل القوى الإدراكيّة يكون بضخّ المعارف التوحيديّة بما يتناسب مع حجم الضلال الحاصل والإضلال المستعمل ومستواه وطرقه. وما لم ننتصر في هذه المعركة، فلن نتقدّم على صعيد إصلاح المجتمع واستنقاذه.

لقد ثبت لنا من خلال التّجربة التعليميّة المديدة أنّ العنصر المحوريّ في فهم المطالب العرفانيّة وحلّ مشكلات التعقيد في العبارة أو الجهل بالمصطلح وكثرته هو في مدى إقبال الطالب. فلو استطعنا أن نحقّق بيئة مناسبة يتوجّه فيها النّاس إلى هذه المعارف ويقبلون عليها، فإنّ معظم المشكلات والعوائق ستزول تلقائيّاً.

هذا، وتمثّل الحركة العلميّة المبنيّة على العقل والاستدلال المنطقيّ السّلاح الوحيد بأيدي أهل العلم ممّن لا سلطة لهم ولا بسط يد، في غمرة هذا الضياع وفي أجواء خفاء النهج. فوارثو نهج الأنبياء يصرّون على استخدام العقل عسى أن يشقّوا طريقاً في هذه الأرض الوعرة. ولهذا، تراهم يعرضون التوحيد ويستدلّون عليه بطرق شتّى لعلّ ذلك يحدث في النّفوس الغافلة ذكراً، فتستيقظ من سباتها وتتوجّه إلى الحقّ الواضح السّاطع أشد من سطوع الشّمس في رابعة النهار.

وهكذا نرى العارف يسعى متسلّحاً بالمنطق، لحلّ إشكاليّة العلاقة بين

الوحـــدة والكثرة. فيبدأ عمله من حيث وصـــل في شهوده، ويحلّل مفهوم الوجود والألوهيّة بعد ثبوتهما ليثبت منهما وحدانيّة الذّات، فيقول: "واعلم أن الوجود كلما كان أبسط وإلى الوحدة أقرب كان اشتماله على الكثرات أكــثر وحيطته على المتضادات أتم والمتفرقــات في عالم الزمان مجتمعات في عــالم الدهر والمتضــادات في وعاء الخارج متلائمــات في وعاء الذهن والمختلفات في النشأة الأولى متفقات في النشأة الآخرة كل ذلك لأوسعية الأوعية وقربها من عالم الوحدة والبسـاطة". (شرح دعاء السحر)

إنّ إدراك معنى التّوحيد أمرٌ عسير على من قيّد إدراكاته بالمحسوسات، واقتصــر في النظر على الماديات. فما لم تدركه العنايــة الإلهيّة والرحمة الرحيميــة، وتحرره من جلباب بشريّتــه، فلن يكون له نصيب من معرفته. كيف لمن اعتاد على تصوّر الأشياء في قوالب الزمان والمكان أن يعرف خالق الزمان والمكان؟! وأنّى له الجمع بين المحدود والمطلق. فإن إدراك المطلق يكون بعد نفي المحدود عند المحجوبين، والمطلق ما به تُعرف الأشياء عند الواصلين. ألا ترى أن أكثر الذين سلكوا طريق الايمان في بداياته كيف حجبهم الشرك عن بلوغ نهاياته: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. فما لم يطهروا النفســ بالإخلاص، لن يحصل لهم من الشرك خلاص: ﴿وَمــا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وللأســف، فــإنّ أكثر النـاســ بسبب عجزهم عن الجمــع ما بين معرفة الأشيــاء ومعرفة الله، ولمــا رأوا أن معرفة التوحيد الخالص ستنفي وجود الأشياء، اختاروا الارتكاز على يقينهم بأصل الأشياء ليفسّروا أو يعرفوا به معنى وجود الإله الواحد. وكانت النّتيجة غلبة الشّرك، وهو إبقاء وجود الأشياء إلى جانب وجود الله تعالى! وفي مقابل هذه الفئة الكثيرة، طائفة غلب عليها التوحيد، وسيطر عليها معنى الألوهية دون أن تتمكن من فهم

معنى وجود الأشياء، فانقطعت عن عوالم المعرفة وفضاءات الشهود. يقول الإمام الخميني قدس سره:

"وليعلم أنّه من المقـرّر والثّابت في العلوم العالية أنّ جميع دار التحقّق ومراتب الوجود صورة الفيض المقدّس الذي هو التجلّي الإشراقيّ للحقّ تعالى، وكما أنّ الإضافة الإشراقيّة هي محض الرّبط وصرف الفقر؛ كذلك تعيّناتهـا وصورها أيضاً محضـ الرّبط، وليست لها مـن أنفسها حيثيّة واستقلال. وبعبـارة أخرى إنّ جميع دار التحقّق فانية في الحقّ ذاتاً وصفةً وفعـلا؛ لأنه لو استقلّ موجود من الموجودات في شأنٍ من الشّؤون الذاتيّة سواء أكان في الهويّة الوجوديّة أم في شؤونها لخرج عن حدود بقعة الإمكان وتبدّل إلى الوجوب الذاتيّ؛ وهذا واضح البطلان. فإذا رسخت هذه اللطيفة الإلهيّة في القلب وذاقها الفؤاد كما ينبغي؛ فيُكشف له سرّ من أسرار القدر وتنكشـف له لطيفة من حقيقة الأمر بـين الأمرين. فيمكن إذاً نسبة الآثار والأفعـال الكمالية إلى الحقّ بنفس النّسبة التي لها إلى الخلق، من دون أن تكـون مجازاً في أية جهة. وهذا يتحقّق في نظر الوحدة في الكثرة والجمع بين الأمرين. نعم، من كان واقعاً في الكثرة المحضة ومحجوباً عن الوحدة؛ ينسـب الفعل إلى الخلق ويغفل عن الحـقّ، كحالنا نحن المحجوبين. ومن تجلّت في قلبه الوحدة فيُحجب عن الخلق وينسب جميع الأفعال إلى الحقّ. والعارف المحقّق يجمع بين الوحدة والكثرة؛ وفي الوقت الذي ينسب الفعل إلى الحـقّ من دون شائبة مجاز، ينسبـه إلى الخلق بلا شائبة مجاز، والآية الشريفـة ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾، التي نفت الرّمي في عين إثباته وأثبتته في عين نفيه، تشير إلى هذا المشرب العرفانيّ الأحلى والمسلك الايمانيّ الدقيق؛ وإنّما قلنـا الأفعال والآثار الكماليّة لنخرج النقائص، لأنّ النقائص ترجع إلى الأعدام وهي من تعيّنات الوجود، ولا تُنسب إلى الحقّ إلّا بالعرض." [معراج السالكين].

"الْحَمْدُ لله الْمَعْرُوف مِنْ غَيْر رُؤْيَة، وَالْخَالِق مِنْ غَيْر مَنْصَبَة، خَلَقَ الْخَلائِق بِقُدْرَته، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّته، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُوده ... أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسه كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقه، وَجَعَلَ لِكُلّ شَيْء قَدْراً، وَلِكُلّ قَدْر أَجَلاً، وَلِكُلّ أَجَل كِتَاباً".

نهج البلاغة

ثمار التوحيد وآثاره

"إن الإيمـان بأنّ المتصرّف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشهود هو الحقّ تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تصرّف إلا التصرّف الإذنيّ الظلّيّ يؤدّي إلى الكثير من الكمالات النفسانيّة والأخلاق الإنسانيّة الفاضلة، مثل التوكّل والاعتماد على الحقّ وقطع الطّمع بالمخلوق الذي هو أمّ الكمالات، ويوجـب كثيراً من الأعمـال الصّالحة والأفعال الحسنـة وترك الكثير من القبائح".[معراج السالكين].

لعل البدء من بعض الأسئلة البسيطة قد يعيننا على معرفة أهمية التوحيد وموقعيتـه في الحياة؛ فقد نسأل: ما المشكلـة في أن يشرك النّاس بالله وما الذي يضر لو جهلوه؟. أو إذا لم يعتد المشركون أو يظلموا فلماذا يستحقون كل هـذا العذاب والعقاب؟! ولماذا شدّد سبحانه النّكير على الشّرك فجعله ذنباً لا يُغتفر؟!

وإذا كان مجـرد الاعتقاد بوجود مبادئ أخـرى في الخلق أو التأثير لن يحرّك الإنسان باتّجاه الفساد، فلماذا يعاقب عليه بالخلود في جهنّم؟

لعـل أكثر النّاس يجـدون في هذا الوعيد الإلهـي مبالغة، ولذلك لا

يعملــون بالقــدر الكافي على التخلص من الشــرك في نفوسهم؛ فهم لا يتصورون أنّ مجرّد حمل أفكار خاطئة يستأهل عذاب الخلد، كما نقرأ في كتــاب الله الحكيم! ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّــارُ وَ ما لِلظَّالِمينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾، ﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِديــنَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾، ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحيماً﴾، غالباً ما نــرى أن هؤلاء لا يأخذون الرياء الــذي هو شرك على محمل الجد؛ بينما تجدهم في غاية الحذر من الزنا والسرقة، رغم أن هاتين الموبقتين لا تعبّران عن الشرك كما هو حال الرياء الذي جاء في الحديث أنه شرك كله!

إنّ الوصول إلى الجواب الصّحيح يعتمد على إدراكنا لحقيقة غاية خلقنا، وما هي نتيجة إعراض الإنسان عن الوصول إليها. وقد اتضح من الفصول السابقة أنّ حكمة الله في الخلق اقتضت ظهور عظمة الله المطلقة؛ وأن هذه العظمة إنما تتجلّى بأبهى ما يكون في الاسم الاعظم. أما جهنّم والخلود في النّيران فليست سوى ظهور رفض الإنسان لتحقيق هذا الهدف ومعاندته لإرادة اللــه. هناك سيكون هذا الكافر بواقع ينعكس فيه جلال الله المطلق ونقمته اللامتناهية.

إنّ تصــوّر العــذاب الإلهيّ كعقــاب اعتباري، مثلمــا يحدث من قبل القاضــي الذي يتخير ما يراه مناسباً لمعاقبــة المتهم في القضية سواء كان مذنبــا أو لا، هو الذي يجعل قضيّة العقاب الإلهي أمراً مبهما؛ إننا نتصور ذلــك لأننا نرى حكمة الله تعالى أمــراً مغايراً لقدرته، وأن قدرة الله تعالى التي تتجلى في قهــره ونقمته قد تتحرك خارج حكمته المطلقة! إنه قياس الخالق على المخلوقين؛ وهو الذي جرنا إلى التساؤلات المذكورة. وكان من

المفترض أن نبحث عن الآثـار الحتمية للشرك وفق نظام السنن والقوانين ومبـدأ السنخية بين العلة والمعلول. لأنّ هذه القوانين تحكي عن حكمة الله تعالى، التي ستكون القدرة تابعة لها دوماً. فالشرك أمر تكويني؛ وسيكون له بحسب نظام الحكمة أثر أو آثار بما يتناسب مع عالم التكوين. فالحري بنا أن نفهم هذا الأثر لندرك تناسبه مع عقابه.

إنّ التوجّه المعنوي الصادق إلى خالق العالم ومدبّره هو الذي يتجلى في عمل الإنسان الخاص الذي نسمّيه عبادة. والعبادة الحقيقية ليست أمراً يقرر العارفون إنشاءه لرغبتهم بـه أو لخطوره في بالهم، بل إنها عبارة عن تجلي عرفانهم وانعكاس معرفتهم بربهم في أعضائهم وجوارحهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وفي المقابل تفقد العبادة الخاليـة من المعرفة أو الحركة المعرفية أثرها المنشود ولا تكون ذات قيمـة متناسبة مع دورها. والمعرفة إذا اكتملت في النفس ظهرت في حركة الجوارح وصارت منشأً للأعمال الصالحة. والعمل الصالح سيعود على أهل المعرفـة بأنواع الخير والكمال، لما فيه من تفعيل لقابليات الإنسان الكامنة وتزكية لنفسه المستعدة.

من عرف الله أدرك أن له الكمال المطلق؛ وكل كمال إنما يفاض من الله المتعال. ولأنّ الإنسان في عمق كيانه وفطرته، التي فطره الله عليها، لا يريد سوى هذا الكمال الخالص المطلق، فهو يتوجه بحسب الفطرة والجبلّة إلى مبدأ هذا الكمال، أي الله تعالى. فمن عرف الله حق المعرفة، يكون قد حدد المصدر الواقعيّ لما يصبـو إليه. وإذا اشتد حضور هذه المعرفة في النفس، توجّه بكل وجوده نحو الله تعالى دون أن يكون في البين اعتبار أو حاجة إلى التصنّع. فهنا بالذات، تستلزم هذه الدرجة من المعرفة صدور هذا النحو من التوجه والانقطاع. أما إذا جهل هذا الإنسان من هو ربّ العالمين، فإنه يفقد

المصدر الوحيد للخير والكمال؛ فكيف يتّجه نحوه أو يقصده.

وليس الشّرك في حقيقة الأمر سوى استفحال حالة الجهل بهذا الإله. إن مـن أهم معاني الألوهية أن إله العالم يتّصف بالغنى الذاتي المطلق؛ وإلّا صـار مخلوقاً. فيستحيل أن يكون خالق كل شيء محتاجاً، لأنّ الاحتياج للغير من صفات المخلوقين. والمخلوق هو الذي يكون فقيراً بذاته من حيث الوجود وكمال الوجود. ولو صار غنياً، فلا يمكن أن يكون غناه من ذاته. لأن فاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه.

كما أنّ المحدود في الوجود والكمال والتأثير لا يمكن أن يكون إلهاً. لأنّ كل محدود فله من يحدّه، فصار مقهوراً لغيره. ومن كان كذلك كان مخلوقاً. كما أن الموجود لا يمكن أن يختار لنفسه المحدودية، فيجعل نفسه محدوداً بعد أن كان مطلقاً. فمن كان محدوداً، دلّ على أنّه كان مغلوباً على أمره في وجوده. وليس هذا إلا المخلوق الفقير.

والشّـرك يعني الاعتقـاد بوجود أشياء إلى جانـب الخالق تشاركه في الوجـود أو الكمال أو التأثير. وهذا التشريك نـاف للألوهية، لأنه يستلزم التحديـد. فلا تعدد إلا في ظـل المحدودية. إنّ افتراض شريك لله يستلزم أنّ الشريك يملك ما لا يملكه الشّريك الآخر. ويعني ذلك أن كل شريك صار ناقصـاً محتاجاً، ولم يعد إلهاً. ولهذا كانت عقيـدة الشرك بأي شكل من أشكالها، عبارة عن الكفر بالألوهية ونفي لمعناها الجوهري والمصيري.

والمشرك لا يمكن أن يكون جاهلاً بالله عن قصور، إلا بصورة مقطعية محدودة. لأن آيات الألوهية عمت كل شيء، ومظاهر الوحدانية ملأت أركان كل شيء؛ فقد تظاهرت الحجج وسطعت البراهين، فأضاءت شمس الحقيقة أرجاء الوجود كله. والله تعالى قد أظهر تفرّده وكبرياءه ووحدانيّته في كلّ شيء ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

﴿يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد.

فلـم يبق في الشرك سوى الرفض والكفر والإنـكار. وما علينا إلا أن نتصور حال من يرفض حقيقةً بهذه الدرجة من الوضوح والبداهة. وكيف يمكـن أن يكون عليه حـال نفس تتنكر كل لحظة لأمر هو في غاية العظمة والجمال. ولأن مثل هذا الخبث سيكون في تفاعل مع مواقف الحياة الكثيرة والتي تدور حول أمر واحد ومطلب فارد هو: التسليم لله تعالى، فإن صاحبه سوف يتخذ المواقـف الخاطئة حتماً. لأن الحسن والحق والصحة والسلامة كامنـة في الإنسجام مـع قوانين هذا العالم كما خلقها الله وجعلها، لا كما يفسّرها الجاهلون والماديون! وبناء عليه، يكون المشرك خاسراً دوماً وإن ربح.

إنّ طبيعـة المواقف التي تمر في حياتنـا، والتي هي تفاصيل هذه الحياة ومجرياتهـا، من كبائر الأمـور وصغائرها، ليست سـوى تدبيرات إلهية وأفعال ربانية، تحملنا علـى التفكر وتتطلب منّا موقفاً تفسيرياً. ولا يمكننا نحن العقلاء أن نتجاوز ذلك، إلا إذا قررنا التخلي عن عقلانيتنا. إن طبيعة التكويـن البشري تستلزم ردة فعل تجاه الهديـة والتكريم. وعندما يجمد الإنسان أمام مثل هذه المواقف، فلن يكون الأمر طبيعياً.

إن جميـع شؤون الحياة وأحداثها هي من صناعة الخالق وتدبيره. وكل حادثة منها تتفاعل داخل النفس الإنسانية، وتحفزها على التفكّر في معناها ومنشأهـا. ولهذا، يستحيل أن لا يتخذ الإنسان من كل واحدة منها موقفاً يعبّر عن اعتقاده بسببه والغاية منه؛ إلا إذا خرج عن إنسانيته. وهذا الموقف يتمحـور حول الاعتراف بسببه وعلّته ومنشئـه. لأن إدراك السببية هو أول المعارف والإدراكات وأكثرها بداهة. ومن أنكر السبب، فقد حرم نفسه من العقل الذي هو مبدأ الإنسانية وقاعدة تكاملها. قال رسول الله ﷺ: "العقل

ما عرف به الرحمن واكتسب به الجنان".

فنحن في قضية الشرك أمـام عملية تشويه للإنسانية ومسخ للخلقة وإفساد للصناعة الإلهية. كل هذا يتم بأبشع صورة. لأنه سيحدث في كل موقـف من مواقف الحياة، وسيواجه عملية التفاعل الإيجابي مع آيات الله، سعياً لإبطالها.

وعندما يتنكر الناس والمجتمع لمعنى الألوهية في آيات الله ووحدانيته المبثوثة في كل أرجاء الوجود والحياة، ويجدون أنفسهم في مواجهة معها، فإنهم بذلك ينشئـون جبهة في مقابل إرادة الحـق تعالى وخطته الحكيمة للبشريـة والأكوان. قال الله تعالى: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيـمٌ﴾ إن الشرك مرض خبيث، إذا لم يتم اجتثاثه، فسرعان ما سينتشر ليتحول إلى ظاهـرة اجتماعية، تخرّب المجتمع، وتفسد البيئة؛ وكفى بهذا ظلماً. بل كل ظلم يرجع إلى الشرك ويتغذى منه.

إن الحياة بكل تفاصيلها هي ساحة المعرفة والاعتراف بالحقيقة. والمشرك، بالإضافة إلى تنكره لهذه الفلسفة، يعمل على تخريب هذه المدرسة. إنه غير مبال بهذه التربية الإلهية ويسعى إلى تعطيلها. وإنما لم نلحظ وخامة الشرك من عموم بلواه مـن جهة، ومن عدم قدرتنا على ربط كل الجرائم والفساد والشر به.

وعليـه، يكون التوحيد أصل كل الخيرات. ويكون الشّرك أصل جميع الشّرور. فالتوحيد يعني:

1. المعرفة الصحيحة بالألوهية(منبع الكمال وأصله).

2. التوجّه التام نحو الكمال الواقعيّ.

إنّ اختصـار حقيقة المشيئة الإلهيّة بظهور الاسـم الأعظم لهو تعبيرٌ دقيـقٌ عن الحقيقة. ومعنى ظهور الاسم الأعظـم هو أن يكون الوجود كلّه

مظهراً للعظمة المطلقة المتضمّنة كلّ كمال على نحو الإطلاق؛ وإنّ تحقّق جنّة الخلد التي هي جنّة الله لا يكون إلّا باندفاع النّاس نحو عمارتها؛ وإنّ هذا الاندفاع موقوفٌ في قسمٍ كبيرٍ منه بسبب الخوف من جهنّم الخلد (التي هي تجلي الجحود بكلّ المعاني الجميلة والكمالات اللامتناهيّة).



"الْحَمْدُ لله الَّذي لاَ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلاَ تَحْويه الْمَشَاهِدُ، وَلاَ تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَى قِدَمِه بِحُدُوثِ خَلْقِه، وَبِحُدُوثِ خَلْقِه عَلَى وجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ".



التجلّيات الأسمائية والصفاتية والذاتية

التجلّيات الأسمائية والصفاتية والذاتية

"وغاية هذا السّلوك هي تخلية النّفس من غير الحقّ، وتحليتها بالتجلّيات الأسمائيّة والصّفاتيّة والذاتيّة. فإذا حصل للسّالك هذا المقام حينئذٍ ينتهي سلوكه، وتحصل له الغاية من السّير والسّلوك". [معراج السالكين].

وكما أنّ سير العارف في مراتب التّوحيد يبدأ من التّوحيد الأفعالي، فينتقل بعدها إلى التوحيد الصّفاتي، حتّى ينتهي إلى الذّاتي، فإنّه في كلّ مرتبة ـ ونتيجة توحيده ـ ينال شرف الاستعداد لاستقبال تجلّيات الألوهية، من التجليات الأفعاليّة التي يعبّر عنها بالأسماء الفعليّة، والصّفاتيّة التي هي أسماء الصّفات، حتّى يصل إلى الأسماء الذاتيّة بعد حصول التوحيد الذاتيّ. فإنّ التوحيد هو الباب الواسع للدّخول إلى عالم معرفة الله. ومن لم يوحّد الله، فلن يعرفه.

إنّ السّير العقليّ بالنسبة للغافل أو الشاكّ يبدأ من إثبات التوحيد الذاتيّ الذي يعني وحدة واجب الوجود وبإثبات هذا التوحيد، نستدل على ضرورة اتّصاف الواجب الغني بكلّ صفات الكمال على الإطلاق، والذي يعني انحصار الكمال به. وعندها يصبح الذّهن مستعدّاً لإثبات التوحيد

الأفعاليّ الذي يعني أن لا مؤثّر في الوجود إلّا الله.

وبذلــك تنحل مشكلة الإنسان تجاه كل أنواع الاختلافات في الخلق والنقائصــ في التكويــن والتقديــر في الرزق، وتــزول الحيرة من عدم تصور المعنى الدقيق للأمر بين الجبر والتفويض. فينال بذلك راحة دائمة وعيشا هنيّا.

وبعبور جســر الشكّ بانتهــاء السّير العقليّ، تبــدأ رحلة تثبيت هذه المراتب الثلاث للتّوحيد في القلب والباطن؛ فيكون بدء السلوك النفسي من حيث نهاية التوحيد العقلي، من التّوحيد الفعليّ إلى التوحيد الذاتيّ مروراً بالصّفتيّ.

وكم هو صعب أن يرى المرء كل الوجود منحصراً بالله، وهو يرى نفسه والأشياء من حوله مستقلات في الوجود ومتقابلات في الهوية والإنية.

ولما كانت الذوات والإنيات منشأ ظهور الصفات والكمالات، ولما كانت الصفات والملكات منشأ صدور الأفعال والسلوكيات. فإن رؤية اضمحلال الذوات وفناء الهويات يأتي ـ بالنسبة للإنسان المحجوب ـ في نهاية المطاف. ومن أراد الخروج من الاحتجاب، فعليه أن يتدرّج من نفي تأثير نفسه ورؤية فناء أفعاله، ثم إلى رؤية حقيقة انحصار الكمال بالله تعالى، حتى يبلغ مقام شهود لا موجود إلا الله تعالى.

إن الفــارق بــين السلوك العقلــي والسلوك القلبــي، أي الاختلاف بين الاستــدلال والشهود، يرجــع إلى أن الأول لا يتطلب تضحية وعطاءً من النفوس التــي أحضرت الشح بطبيعتها. بينما يقوم الثــاني على الإيثار، وهــو أصعب شيء على النفوس. وشتان مــا بين الإذعان العقلي بالحقيقة، والتصرف العملي على أساسها.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إعلم أنّ لجميع أسماء وصفات الحقّ جلّ وعلا

مقامين ومرتبتين بصورة كلّية: أحدهما مقام الأسماء والصفات الذّاتيّة الثّابتة في الحضرة الواحديّة كالعلم الذاتيّ الذي هو من الشؤون الذاتيّة والقدرة والإرادة الذاتيّتين وسائر الشؤون الذاتيّة.

والثاني: مقام الأسماء والصّفات الفعليّة الثّابتة للحقّ بتجلّي الفيض المقدّس كالعلم الفعليّ الذي يثبته الإشراقيّون ويرونه مناطاً للعلم التفصيليّ، وقد أقام البرهان عليه أفضل الحكماء الخواجة نصير الدّين الطوسيّ نضّر الله وجهه، وتبع الإشراقيين في هذا المعنى وهو أنّ الميزان في العلم التفصيليّ العلم الفعليّ، وهذا المطلب وإن كان على خلاف التّحقيق، بل العلم التفصيليّ ثابت في مرتبة الذّات وإنّ كشف العلم الذاتيّ وتفصيله أعلى وأكثر من العلم الفعليّ، كما ثبت وحُقّق في محلّه على وجه البرهان النوريّ، ولكن أصل المطلب وهو أنّ نظام الوجود هو العلم الفعليّ التفصيليّ للحقّ ثابت ومحقّق في سنّة البرهان ومشرب العرفان؛ وإن كان للمسلك العرفانيّ الأعلى وذوقه الأحلى طريقة غير هذه الطّرق. (مذهب العاشق غير جميع المذاهب)". [معراج السالكين].

ففي السّير العقليّ يتمكّن المفكّر من ملاحظة انتساب بعض الصّفات الكمالية بحسب المفهوم إلى الذّات الغنية، دون الحاجة إلى حضور الخلق والإضافة في هذه الصفة، فتكون هذه الصفات للذّات، كالاسم القدّوس أو العليّ. وفي المقابل يعجز عقله عن تصوّر بعض الصفّات دون الإضافة إلى الخلق، فتكون هذه الصفات أسماء أفعال الذات، كالاسم الرزّاق؛ حيث يُقال أنّه لا رزق دون مرزوق. "فالأحرى بالسّالك إلى الله أن يكسر رجل سلوكه وأن يتبرّأ من الاعتماد على نفسه وارتياضه وعمله تماما، ويفنى عن نفسه وقدرته وقوّته، ويجعل فناءه واضطراره دائماً نصب عينيه، حتّى يقع مورداً للعناية دائما. ويطوي طريق المئة عام بجذبة ربوبيّة

في ليلة واحدة". [معراج السّالكين].

"اعلـم أنّ أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التّوحيد الأفعاليّ، كما أنّ الرّكوع عندهم إشارة إلى التّوحيد الصّفاتيّ والسّجود إلى التوحيد الذاتيّ". [معراج السّالكين].

أمّـا في السّلوك القلبي والسير الايماني، فـلأنّ القلب هو محل المعرفة وتجلياتها بحسب درجة المجاهـدة ورياضاتها، فإنّ استعداد القلب وسعة الوعاء هو الذي سيحدّد هذه التجليات وأنواعها ودرجاتها (أي يحدّد ظهور الأسمــاء على قلبه). فتكون التجلّيات الأسمائيّة بحسب مقام السّالك في التّوحيد؛ وهو طور فوق طور المفاهيم والألفاظ. يقول الإمام الخميني قدس سره: "وليُعلم أنّ أسماء الذّات والصّفات والأفعال التي أشير إليها فهي على طبق اصطلاح أرباب المعرفة؛ وبعض مشايخ أهل المعرفة قسّم الأسماء في كتاب إنشـاء الدّوائر إلى أسماء الذّات وأسماء الصّفـات وأسماء الأفعال؛ وقال إنّ أسمــاء الذّات هي الله، الرّبّ، الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، العليّ، العظيم، الظاهر، الباطن، الأوّل، الآخر، الكبير، الجليل، المجيد، الحقّ، المبين، الواجد، الماجد، الصّمد، المتعالي، الغنيّ، النّور، الوارث، ذو الجّلال الرقيب.

وأسماء الصّفات هي: الحيّ، الشكـور، القهّار، القاهر، المقتدر، القوي، القادر، الرّحمن، الرّحيم، الكريم، الغفّار، الغفـور، الودود، الرؤوف، الحليم، الصبور، البرّ، العليم، الخبير، المحصي، الحكيم، الشهيد، السّميع، البصير.

وأسماء الأفعال هي: المبدئ، الوكيل، الباعث، المجيب، الواسع، الحسيب، المقيت، الحفيظ، الخالق، البارئ، المصوّر، الوهّاب، الرّزّاق، الفتّاح، القابض، الباسط، الخافض، الرّافع، المعزّ، المذلّ، الحكيم، العدل، اللطيف، المعيد، المحيي، المميت، الوالي، التوّاب، المنتقم، المقسط، الجامع، المغني، المانع، الضارّ، النّافع،

الهادي، البديع، الرشيد.(انتهى).

وذكروا في ميزان هذا التقسيم أنّ الأسماء وإن كانت كلّها أسماء الذّات؛ ولكنّها باعتبار ظهور الذّات يُقال لها أسماء الذّات؛ وباعتبار ظهور الصّفات والأفعال يُقال لها الأسماء الصّفاتيّة والأفعاليّة؛ أي أنّ كل اعتبار يكون أظهر فالاسم يكون تابعاً له. فلهذا، قد يجتمع في بعض الأسماء اعتباران أو اعتبارات ثلاثة، فيكون من الأسماء الذاتيّة والصفاتيّة والأفعاليّة، أو الاثنين من هذه مثل الرّبّ كما ذُكر.

وهذا المطلب لا يستقيم على مذاق الكاتب ولا يطابق الذّوق العرفانيّ؛ بل ما يبدو للنّظر في هذا التقسيم أنّ الميزان في هذه الأسماء هو أنّ السّالك بقدم المعرفة إذا حصل له الفناء الفعليّ، فتجلّيات الحقّ تعالى على قلبه هي التجلّيات بأسماء الأفعال؛ وبعد حصول الفناء الصّفاتي تكون التجلّيات الصّفاتية؛ وبعد الفناء الذاتيّ تكون التجلّيات بأسماء الذات، وإذا كان قلبه قادراً على الحفظ بعد الصحو فما يخبر عنه من المشاهدات الأفعاليّة فهو أسماء الأفعال، ومن المشاهدات الصّفاتية فهو أسماء الصّفات. وهكذا أسماء الذّات، ولهذا المقام تفصيل لا ينبغي لهذه الأوراق". [معراج السالكين].

وبناءً عليه، فإنّ الرّازق سبحانه قد يتجلّى على قلب السّالك في مرتبة التّوحيد الذاتيّ فيقول والحقّ رازق ولا مرزوق، وهو تعالى خالق إذ لا مخلوق، كما رُوي عن الإمام الرضا عليه السلام في الخطبة التوحيديّة.

ويقول الإمام: "واعلم أنّ الركوع حيث أنّه أوّل، والسّجود ثانٍ، فيفترق التّسبيح والتّحميد فيهما بفروق. وأيضاً يفرق الرّب في المقامين؛ لأنّ الرّبّ، كما قال أهل المعرفة، من الأسماء الذاتية والصّفاتيّة والأفعاليّة بالاعتبارات الثلاثة.

فبناءً على ذلك، الرّبّ في ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ لعلّه من الأسماء

الفعليّة بمناسبة مقام القيام، وهو مقام التوحيــد الأفعاليّ، وفي الرّكوع من الأسماء الصّفاتية، بمناسبة أنّ الركوع مقام توحيد الصّفات؛ وفي السّجود مــن الأسماء الذاتيّة من حيث أنّ السّجــود مقام توحيد الذّات. والتسبيح والتحميد الواقعان في كلّ مقام يرتبطان بذلك المقام". [معراج السالكين].

وللإمام قدس سره مشربٌ آخر في تحديد التجلّيات الأسمائيّة بحسب المراتب الثــلاث للتوحيد؛ وهو لا يتعارض مع مشربه العرفاني هذا؛ فإنّ لكلّ منها طريقــاً بحسب سير السّالــك. وهذا المشرب مستفادٌ مــن السّير القرآنيّ. فكثيراً ما يذكر الإمام اسماً تحت عنوان الفعل أو الذّات انطلاقاً من ترتيبه في السورة والآيات. وذلك لأنّ آيات القرآن وسوره تتنزّل من الشؤون الذاتيّة والحقائــق العلميّة للحضرة الواحديّة إلى المنــازل الخلقيّة وألبسة الأطوار الفعليّة. وقد روعي هذا التّرتيب أيضاً عندما اكتسى القرآن كسوة الألفاظ والحروف الدنيويّة. كلّ ذلك من أجل أن يبقى طريق العروج مفتوحاً. وهكذا نجد الإمام يفسر أحد الصفات الإلهية في القرآن على أنّه من أسماء الذّات تارة، ومن أسماء الصّفات تارة أخرى، أو من أسماء الأفعال، وذلك بحسب ترتيبه في سياق الآيات؛

"وبالجملة من عوّد نفسه على قراءة الآيات والأسماء الإلهيّة من كتاب التّكويــن والتّدوين الإلهيــين يصير قلبه بالتّدريج على صــورة الذّكرى والآية، ويتحقّق باطن الذّات بذكر الله، واسم الله، وآية الله؛ كما فسّر وطبّق "الذكــر" على الرّسول الأكرم، وعليّ بــن أبي طالب صلوات الله عليهما وآلهمــا؛ والأسماء الحسنى على أئمّة الهدى؛ وكذلك فسّرت وطبّقت "آية اللــه" عليهم، فهم الآيات الإلهيّة وأسماء اللــه الحسنى وذكر الله الأكبر. ومقام الذّكر من المقامات العالية الجليلة التي لا يسع المجال لبيانها وهو فوق حدود التّقرير والتّحرير، وتكفــي لأهل المعرفة والجّذبة الإلهيّة وأصحاب

المحبّة والعشق الآية الشريفة الالهية ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وقال الله تعالى لموسى: "يا موسى أنا جليس من ذكرني". وفي رواية الكافي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: "من أكثر ذكر الله أحبّه الله"". [معراج السالكين].

إنّ لأصحاب القلوب تجربة خاصة مع القرآن الكريم. وفيها يكون ارتقاؤهم بآياته في مراتب التوحيد والحقيقة مختلفاً عن أصحاب الحركة الفكريّة أو التّحقيق اللغويّ. ولذلك ترى الإمام معتقداً بوجود معانٍ مشككة للّفظ أو الجملة الواحدة في القرآن كما في حديثه في البسملة حيث يقول: "ويُحتمل أن يكون بسم الله في كلّ سورة متعلّقاً بتلك السّورة، فمثلاً ﴿بسم الله﴾ سورة الحمد المباركة متعلّق بالحمد؛ وهذا مطابقٌ للذّوق العرفانيّ ومسلك أهل المعرفة، لأنّه إشارة إلى أنّ حمد الحامدين وثناء المثنين أيضا بقيّوميّة الاسم الله. بناء على هذا، فإنّ التّسمية في مقدّمة جميع الأقوال والأفعال، التي هي من جملة المستحبّات الشرعيّة للتذكّر بأنّ كل قول وفعل لابدّ وأن يتحقّق بقيّوميّة اسم إلهيّ؛ لأنّ جميع ذرّات الوجود تعيّن اسم الله؛ وباعتبار آخر هي نفسها اسماء الله؛ فبناء على هذا الاحتمال معنى بسم الله بنظر الكثرة في كل سورة وفي كل قول وفعل مختلف". [معراج السالكين].

وبعد أن يأتي على رأي علماء اللغة وكيفيّة تفسيرهم للأسماء الإلهيّة يؤكّد على مشرب القرآن الذي نزل بأعلى مراتب الذوق العرفانيّ، فيقول: "قال علماء الأدب أنّ الرّحمن والرّحيم مشتقّان من الرّحمة وللمبالغة، ولكن المبالغة في الرّحمن أكثر منها في الرّحيم. والقياس يقتضي أن يكون الرّحيم مقدّماً على الرّحمن، ولكنّ الرّحمن حيث أنّه بمنزلة العَلَم الشخصيّ ولا يُطلق على سائر الموجودات فلهذا قُدّم. وقال البعض أن كليهما بمعنًى واحد، وتكرارهما لمحض التأكيد.

وأمّا الذوق العرفاني الذي نزل القرآن بأعلى مراتبه، فيقتضي أن

يكـون الرّحمن مقدّماً على الرّحيـم؛ لأنّ القـرآن الشّريف عند أصحاب القلوب نازلة التجلّيات الإلهيّة والصّورة الكتبيّة للأسماء الربوبيّة الحسنى. وحيث أنّ الاسم الرّحمن أكثر الأسماء الإلهيّة إحاطة بعد الاسم الأعظم، وقـد حقّق عند أصحاب المعرفة أن التجلّـي بالأسماء المحيطة مقدّم على التجلّـي بالأسماء المحاطة، وكلّ اسم يكون أكثر إحاطة فالتجلّي به أيضاً مقـدّم، فلذا كان التجلّي الأوّل في الحضـرة الواحديّة التجلّي بالاسم الله الأعظم وبعده التجلّي بمقام الرّحمانية، وإن التجلّي بالرّحيميّة بعد التجلّي بالرّحمانيّة، وهكذا في التجلّي الظهوريّ الفعليّ أيضاً، التجلّي بمقام المشيئة الذي هو الاسم الأعظم في هذا المشهد، وظهور الاسم الأعظم الذاتيّ مقدّم علـى جميع التجلّيات، والتجلّي بمقـام الرّحمانيّة الذي له الإحاطة بجميع موجـودات عالم الغيـب والشّهادة، وإليه الإشـارة بقوله تعالى "ورحمتي وسعـت كلّ شيء" مقدّم على سائر التجلّيات وإليه يشير "سبقت رحمته غضبه"، ببعض الوجوه.

وبالجملة، حيث أنّ بسم الله بحسب الباطن والرّوح صورة التجلّيات الفعليّة، وبحسب السرّ وسرّ السرّ صورة التجلّيات الأسمائيّة بل الذاتيّة؛ والتجليّـات المذكورة هي التجلّيات بمقام اللـه أوّلاً، وبعده بمقام الرّحمن، وبعده بمقـام الرّحيم، فلا بـدّ أن تكون صورتها اللفظيـة والكتبيّة أيضاً كذلـك، حتى تطابق النّظام الإلهيّ والربّـانيّ؛ وأمّا تأخّر الرّحمن الرّحيم في سـورة الحمـد المباركة عن ربّ العالمين، فلعلّه مـن جهة أنّه في ﴿بسم الله﴾ كان النّظر إلى ظهور الوجود من مكامن غيب الوجود، وفي السّورة الشّريفة النّظر الى الرّجـوع والبطون، وفي هذا الاحتمال إشكال. ولعلّه لأجـل الإشـارة إلى إحاطة الرّحمة الرّحمانيّـة والرحيميّة، ولعلّه لنكتة أخرى. وعلى كلّ حال، فإنّ هذه النّكتة التي ذُكرت في ﴿بسم الله﴾ جديرةٌ

بالتّصديق ولعلّها من بركات الرّحمة الرّحيمية في قلبي أنا اللاشيء، وله الحمد على ما أنعم". [معراج السالكين].

ولأنّ تناول الأسماء الإلهيّة على طريق البحث المفهوميّ يصبح حجاباً فيما لو اكتُفي به، ولأنّ المطلوب هو التحقّق بحقائق الأسماء والتخلّق بها لا أخذ العلم عنها، فإنّ الانحراف أو السقوط أثناء عبور هذا الوادي السلوكي، يحصل بسبب حصر القوى الإدراكيّة وتقييدها بواسطة أهواء النّفس؛ فلا بدّ من تحريرها وفكّ أقفالها بالمجاهدة القلبيّة والرياضة النفسيّة.

يقول الإمام قدس سره: "واعلـم أنّ السّالك إلى الله والمجاهد في سبيل الله لا بـدّ له أن لا يقتنع بالحدّ العلميّ لهذه المعـارف ولا يصرف كلّ عمره في الاستدلال الذي هو حجاب، بل الحجاب الأعظم، لأنّ هذه المرحلة لا يمكن طيّها بالرّجل الخشبيّة؛ بل ولا بطائر سليمان. إنّ هذا الوادي وادي المقدّسين، وهذه المرحلة مرحلة الأحرار، فما لم يخلع نعلي حبّ الجاه والشّرف والأهل والولـد، وما لم يُلقِ عصا الاعتماد والتوجّه إلى الغير من يمينه، لا يمكن أن يضع قدمه في الوادي المقدّس الذي هو مكان المخلَصين ومنزل المقدّسين. واذا خطى السّالك في هذا الوادي بحقائق الإخلاص وألقى الكثرات والدنيا (وهي خيال في خيال) وراء ظهره، فإن بقي فيه بقايا من الأنانية فيؤيّد من عالم الغيب ويندكّ جبل إنّيته بالتجلّيات الإلهيّة، وتحصل له حالة الصّعق والفناء، وقبول هذه المقامات للقلوب القاسية، التي ليس عندها خبر سوى الدّنيا وحظوظها، ولا تتعرّف على شيء إلّا بالغرور الشيطانيّ، يكون صعباً جداً ويُنسب إلى نسج الأوهام؛ مع أنّ الفناء الذي نحن الآن فيه بالنسبة إلى الطبيعة والدنيا ـ بحيـث أنّنا غافلون تماماً عن عوالم الغيب التي هي أظهر من جميع الجّهات من هذا العالم؛ بل إنّنا غافلون عن الذّات وصفات الذّات المقدّسـة التي يختصّ بها الظهور، ونتشبّث لإثبـات تلك العوالم والذّات

المقدّسة للحقّ جلا وعلا بذيل البرهان والاستدلال ـ أغرب وأعجب بمراتب من الفناء الذي يدّعيه أصحاب العرفان والسلوك. شعر:

الحيرة ثمّ الحيرة من هذه القصص

كيف يُدهش الخاصّ في الأخسّ

وإن كان الأخصّ (بالصاد) فليس فيه هذا القدر من الحيرة، لأنّ فناء النّاقص في الكامل أمرٌ طبيعيّ وموافق للسنّة الإلهيّة. فالحيرة في محلّ يكون الأخسّ (بالسين). كما أنّ هذا الصّعق والفناء متحقّق الآن لنا جميعا؛ وقد انغمرت أسماعنا وأبصارنا في الطبيعة إلى حدّ ليس لنا أيّ خبر عن ضوضاء عالم الغيب." [معراج السّالكين].

إنّ السرّ وراء اهتمام أهل معرفة الله بترتيب الأسماء بحسب التجلّيات يرجع إلى شدّة عنايتهم بالسّير المعنويّ والارتقاء العروجيّ، الذي لا يتحقّق إلّا بمشاهدة الأسماء الإلهيّة. وهذا هو السّير بقدم المعرفة بحسب اصطلاحاتهم.

يقول الإمام الخمينيقدّس سرّه: "والعلّي من الأسماء الذاتيّة؛ وبحسب رواية الكافي، هو أوّل اسم اتّخذه الله لنفسه. أي هو أوّل تجليات الذّات للذّات، والعبد السّالك إذا فني عن نفسه في هذا المقام وترك العالم وما فيه فينال فخر هذا التجلّي الذّاتيّ"[معراج السّالكين]. فإنّ الدّليل الأكبر والمؤشّر الحقيقيّ على صحّة التّكامل وسلامة السّير هو معرفة الله التي لها نظام خاص بحسب تجلّياته سبحانه.

"في نقل الكلام المنسوب إلى الشيخ محيي الدين

(نور): قد نسب داوود بن محمود القيصريّ شارح "فصوص الحكم"، ومحمّد بن حمزة بن الفناري شارح "مفتاح غيب الجمع والوجود" للمحقّق

العارف محمّد بن إسحاق القونوي في شرحيهما إلى الشيخ الكبير محيي الدّيــن العربي الأندلسي: إنّ النّور من أسماء الذّات وقد جعل الاسم الذي دلالتــه على الذّات أظهر من أسماء الذّات، والذي دلالته على الصّفات أو الأفعــال أظهر منهما. قال ابن الفناري قلت: الشيخ الكبير بعد ما ضبطها بهــذا الجدول (ثمّ كتب الجدول وذكر في الأسماء الــذّات النّور) قال: وهذه الأسماء الحسنى منها ما يدلّ على ذاته جلّ جلاله، وقد يدلّ مع ذلك على صفاته أو أفعاله أو معاً. فما كان دلالته على الذّات أظهر، جعلناه من أسماء الذّات؛ وهكذا فعلناه في أسماء الصّفات وأسماء الأفعال من جهة الأظهر، لا أنّه ليس له مدخل في غير جدولها كالرّب، فإنّ معناه "الثّابت" فهو للذّات، و"المصلح" فهو من أسماء الأفعال وبمعنى "المالك" فهو من أسماء الصفات.

وقــال فيه أيضاً: واعلــم أنّا ما قصدنا بهــا (أي الأسماء المذكورة في الجــدول) حصر الأسماء ولا أنّه ليس ثمّة غيرها، بل سبقنا هذا الترتيب بينها. فمتى رأيت اسماً من أسمائه الحسنى فألحقه بالأظهر فيه. انتهى ما نسب إلى الشيخ.

أقــول: كون النّور من أسماء الصّفات بل من أسماء الأفعال أظهر، لأنّه في مفهومه مأخوذ مظهرية الغير، فإذا اعتُبر في الغير الأسماء والصفات في الحضــرة الإلهيّة كان من أسماء الصّفات، وإذا اعتُبر به مراتب الظهورات العينيّة كان مــن أسماء الأفعال، كما في قوله تعــالى: ﴿اللّه نور السموات والأرض﴾(النور:35)، وقوله تعالى: ﴿يهدي اللّه لنوره من يشاء﴾(النور:35). وقول سيّد الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: "وبنور وجهك الذي أضاء لــه كلّ شيء"، وفي دعاء السّمــات: "وبنور وجهك الذي تجلّيت به للجبل فجعلتــه دكّا وخرّ موسى صعقــاً". فهو تحت اسم الظّاهــر وربّ الشّهادة المطلقــة أو الشّهادة المقيّدة، وكذلك الــرّبّ الذي عيّن الشيخ أنّه من أسماء

الذّات، فهو أيضاً بأسماء الأفعال أشبه. ولأمثال هذه المقامات زيادة إيضاح وبيان لا يناسب وضع هذه الأوراق والصفحات مع ضيق المجال والأوقات وكثرة تهاجم البلايا وتراكم النّقمـات. اللهمّ اصلح العاقبة، واقلع شجرة الظّلمة". [شرح دعاء السحر].



"وَاحِدٌ لاَ بِعَدَد ، وَدَائِمٌ لاَ بِأَمَد ، وَقَائِمٌ لاَ بِعَمَد ، تَتَلَقَّاهُ الأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَة، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لاَ بِمُحَاضَرَة، لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا ، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا ، لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً ، وَلاَ بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً بَلْ كَبُرَ شَأْناً ، وَعَظُمَ سُلْطَاناً" .



تجلّيات
الجمال والجلال

تجلّيات الجمال والجلال

اقتضت حكمة الله أن تكون تربية الإنسان بالتّرغيب تارة وبالتّرهيب أخرى؛ وذلك لأنّ الكمال المقصود والمظهر المنشود هو ذاك الجمال الإطلاقي الذي لا طاقة للمخلوق المحدود أن يحيط به. فللجمال المطلق هيبة لا يقوم لهـا شيء، وصعقة لا يصحو منها أحـد. فلكي لا يعرض عن هذا الجمال لشـدة سطوته، ولكي يصل إلى ما كان الغاية من خلقه وإيجاده، ولكي لا يولّي وجهه عنه يوم يلقاه، كان لا بدّ أن يتدرّج في مراتب الهيبة والسّطوة، فيرتاض بقبول الشدائد والنقمات، فيما إذا صدرت عن جمال الجميل.

إنّ السرّ الأعظم وراء نقمة الله بأوليائه يكمن في عملية إعدادهم لتقبّل عظمة جماله. فالنّار بحسب أهل المعرفة ليست سوى جلال الجمال؛ ولهذا فهي مختفية في الجنّة وكامنة فيها لكن أهلها لا يشعرون. فأصحاب النّار الذين لم يشهدوا جمال الله في حياتهم لا يمكنهم أن يشاهدوا من الجنّة إلّا ما يزيد من عذابهم. فهي نقمة وعذاب وجلال. وكلّ من كان من أهل النّار يستحيل عليه أن يرى الجّمال بما هو جمال.

أمّـا الكمّل من أولياء الله والذين بلغوا التجلّـي الأعظم وأدركوا مقام الاسـم الأعظم الجامع، فليست النّار في مرآهم سوى جلال الجمال المطلق الذي شهـدوه "والواصلون إلى باب الأبواب والمشاهدون لجمال المحبوب بـلا حجاب والمتحقّقون بمقام الولايـة المطلقة هم الذين خرجوا عن الدنيا والآخرة وتجرّدوا عن الغيب والشهادة ولم يخلطوا العمل الصالح بالسّيئ.

جون دم وحدت زنى حافظ شور يده حال خامه توحيد كش بر ورق انس وجان

بيني و بينـك إنّـي ينـازعـني فارفـع بلطفـك إنّيي من البيـن

وهو مقـام استهلاك جهة الخلقي في وجه الربّي، ووضع نعلي الإمكان والتعيّن. ولا مقام فوق هذا إلاّ مقام الاستقرار والتّمكين والرّجوع إلى الكثرة مـع حفظ الوحدة، فإنّه أخيرة منازل الإنسانيّـة. وليس وراء عبادان قرية. وللإشـارة إلى هذا المقام ورد: "إنّ لنا مع اللّه حالات هو هو ونحن نحن"".

[شرح دعاء السحر].

فكلّ مصائب عالم الدّنيا وشدائدها ليست سوى تجلّي جهنّم الجلال؛ كل ذلك من أجل تهيئة المستعدين لشهود جنّة الجمال. فالدنيا بيدك وأنت الذي تستطيع أن تجعلها جلالاً صرفاً فتكون ممّن قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ ولن يكون اليقين الذي تلقاه سوى الجحيم ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. كما أنّك قادر على جعل كلّ جلال فيها جمالا: "ما رأيت إلّا جميلا". والمفتاح لذلك هو طهارة القلب وصفائه الذي به يدرك حقيقة الاسم الأعظم الجامع لمقامي الجمال والجلال.

فمن شهد الاسم الأعظم، لن يحجبه اسمٌ عن اسم، ولن يكون الجلال النابع من شدّة الجمال مانعاً أو طارداً، فتُحرم ممّا خُلقت لأجله. وما دمت غير قـادرٍ على تفسير مظاهر النّقمة في حياتك تفسيراً رحيميّاً، فهذا يعني أنّ

قلبك ما زال معيوباً، لأنّ في كلّ نقمة لطف، وفي كلّ جلال جمال، فأنت لا تــرى الحقيقة. وإذا بقيت على هذه الحال فلن تقدر على رؤية الجنّة ولو من بعيد، ولن تجد سوى النّار موئلاً ومثوىً لنفسك، وسيكون عذابها عذباً عليك ومسانخاً لماهيتك. "وهذا الإنسان غافلٌ عن أنّ بعث الرسل وإرسال الكتب وإنزال الملائكة والوحي والإلهام على الأنبياء والهداية إلى طريق الحقّ، كلّ ذلك من شؤون رحمة أرحم الراحمين، وقد اتّسعت الرّحمة الواسعة لجميع العالم ونحن على شفا عين الحياة نهلك من الظمأ". [معراج السالكين].

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ قلوب أهل السلوك بحسب الجِبِلّة والفطرة متنوّعة:

فبعضٌ منها عشقيّ ومن مظاهــر الجمال، وتتوجّه إلى جمال المحبوب بحسب الفطرة. فهــؤلاء إذا أدركوا في سلوكهم ظــلّ الجميل، أو شاهدوا أصل الجمال تمحوهم العظمة المختفية في سرّ الجمال فتصعقهم، لأنّ في كلّ جمــال جلالاً مختفياً وفي كل جلال جمالاً مستــورا. ولعلّه إلى ذلك أشار مولى العارفين وأمير المؤمنين والسّالكين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين حيث قال: "هو الذي اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، واشتدّت نقمته لأعدائه في سعة رحمته"، فتغشاهم هيبة الجمال وعظمته، ويأخذهم الخشوع في حيال جمال المحبوب. وهذه الحالة في أوائل الأمر توجب تزلزل القلب والاضطــراب، وبعد التّمكين تحصل للسّالك حالــة الأنس، وتتبدّل حالة الوحشة والاضطراب المتولّدة من العظمة والسّطوة إلى الأنس والسّكينة وتحصل له حالة الطمأنينة، كما كانت حالة قلب خليل الرّحمن.

وبعض القلوب خوفّي ومن مظاهر الجلال، وهي تدرك على الدوام العظمة والكبرياء والجلال، وخشوعها يكون من الخوف، ومن تجلّي الأسماء القهريّة والجلاليّة عليها؛ كما كان حال يحيى، على نبيّنا وآله وعليه السلام. فالخشوع يكون

ممزوجاً تارة بالحبّ وأخرى بالخوف والوحشة، وإن كان في كلّ حبّ وحشة، وفي كلّ خوف حبّ". [معراج السّالكين].

نعـم، قد تكون البدايـة بالنسبة إليك انطلاقاً مـن ملاحظة الجّلال في التجليات والـواردات؛ لأنّ قلبك اعتاد على رؤيـة الأمور من واقع النقمة والعقوبة. ولكن من طلب الجمال في الجلال سيدركه، ولو بعد حين. هذا حال أصحاب القلوب الخوفيّة التي تنشأ من معدن الجلال. لتكون لغيرها منذرة.

وقـد يكون الانطلاق مـن ملاحظة الجمـال أوّلاً، لأنّ قلبك اعتاد على مشاهدة الجمال في الأشياء، لكنّه لن يحرمك من مشاهدة المزيد من الجمال، حتّى تصل إلى الجمال الحقيقيّ الذي يسطع هيبةً وجلالاً. أراد الله لقلبك أن يكون عشقيّاً ومن معدن الجمال، لتكون لغيرك مبشّراً.

وليفرح أصحاب القلوب العشقيّة، ولا يأسى أصحاب القلوب الخوفيّة لأنّهم عمّا قريب سيدركون ضالّتهم بشهود الاسم الأعظم وإدراك الجمال الأتمّ الأكـرم دون أن يولّوا عنه أو يعرضـوا. هذا، وإن كان مسير أصحاب قلوب العشق أقرب وسيرهم أسرع.

"إن قلوب الأولياء والسالكين مرآة تجليات الحقّ ومحلّ ظهوره، كما قال تعالى: "يا موسى لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمـن". إلاّ أنّ القلوب مختلفة في بروز التجلّيات فيها، فرُبّ قلب عشقيّ ذوقيّ تجلّى عليه ربّه بالجمال والحسن والبهاء، وقلب خوفيّ تجلّى عليه بالجلال والعظمة والكبريـاء والهيبة؛ وقلب ذو وجهتين تجلّى عليه بالجلال والجمال والصّفات المتقابلة، أو تجلّى عليه بالاسم الأعظم الجامع. وهذا المقام مختصٌّ بخاتم الأنبياء وأوصيائه عليهم السلام. ولهذا خصّ الشيخ الأعرابي حكمته بالفرديّة، لانفراده بمقام الجمعيّة الإلهية دون سائر الأولياء. فإنّ كلّ واحدٍ منهم تجلّى عليه ربّه باسمٍ مناسبٍ بحاله: إمّا بصفة الجلال كشيخ الأنبياء والمرسلين

صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين، فإنّه ﷺ لاستغراقه في بحر عشقه تعالى وهيمانه في نور جماله تجلّى عليه ربّه بالجمال من وراء الجلال، ولهذا اختُصّ بالخلّة وأصبحت حكمته مهيّميّة؛ وكيحيى عليه السلام، فإنّ قلبه كان خاضعاً خاشعاً منقبضاً؛ فتجلّى عليه ربّه بصفة الجلال من العظمة والكبرياء والقهر والسلطنة. ولهذا اختصّت حكمته بالجلالية؛ وإمّا تجلّى عليه ربّه بالجمال كعيسى عليه السلام، ولهذا قال في جواب يحيى عليه السلام، حين اعترض عليه معاتباً حين رآه يضحك، فقال: "كأنّك قد أمنت مكر اللّه وعذابه؟"، بقوله عليه السلام: "كأنّك قد آيست من فضل الله ورحمته". فأوحي إليهما: "أحبّكما إليّ أحسنكما ظنّاً بي". فيحيى عليه السلام بمناسبة قلبه ونشأته تجلّى عليه ربّه بالقهر والسلطنة، فاعترض بما اعترض، وعيسى عليه السلام بمقتضى نشأته ومقامه تجلّى عليه باللطف والرحمة، فأجاب بما أجاب، ووحيه تعالى بأنّ "أحبّكما إليّ أحسنكما ظناً بي" بمناسبة سبق الرّحمة على الغضب وظهور المحبّة الإلهيّة في مظاهر الجمال أوّلاً كما ورد: "يا من رحمته سبقت غضبه". [شرح دعاء السحر].

أجل، إنّ "أهل المعارف وأرباب الجّذبة الإلهيّة، إذا كانت قلوبهم قويّة وكانوا متمكّنين في الجّذبة والحبّ يشاهدون في كلّ مرآة جمال المحبوب، وفي كلّ موجود كمال المطلوب، ويقولون: "ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ومعه".

وإذا قال سيّدهم: "إنّه لَيُغان على قلبي وإنّي لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرّة"، فذلك لأنّ مشاهدة جمال المحبوب في المرآة، خصوصاً المرائي الكدرة، كمرآة أبي جهل، هي بنفسها موجبة للكدورة في قلوب الكمّل".

[معراج السالكين].

فالرسول الأعظم ﷺ يستغفر الله تعالى لأنه كان يرى نفسه مسؤولاً عن جعل كلّ شيء مظهراً لجمال الله سبحانه؛ ولهذا، شقّ عليه إعراض

الكافرين حتّـى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات. ومن شدة حبّه لربّه، يشقّ على نفسه الشريفة أن تتحمل موجوداً لا يذكر الله بجماله!

إن أمنية النبي الأكـرم أن تشمل شفاعته كل الخلق. ولهذا دعاهم إلى حب الولي الكامـل؛ وكان يقول: لو اجتمع الناس على حب علي لما خلق الله النار. فأبى أكثر قومه كفورا.

وبسبب هـذه الروح العظيمة، غفر الله له من ذنبه مـا تقدّم وما تأخّر، فأسقط عنه مسؤولية هداية العالمين إلى الجنة، لأنه لا بد من جحيم. ﴿إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ﴾؛ وفتح له باباً واسعاً إلى جنّة الخلد تقرّ به عينه لكثرة من يشفع لهم.

إنّ صناعة القلوب تجري وفق التدبير الإلهيّ الذي يهدي كلّ شيء إلى اسمه الأعظم. فإذا نظرنا إلى القضيّة من الجهة الإلهيّة، فما ثمّة إلّا التجلّي الإلهيّ الأعظم والفيض الرباني المقدّس الذي به يتحقق كلّ شيء.

وقـد جعل الله تعالى لكلّ اسم مـن أسمائه مظهراً في الوجود العيني في مرتبـة الاحتجاب، حتى إذا علم الإنسان موقع هذا المظهر، سهل عليه الاتصال بأصله ومعدنه الإسمي. فكان ترتيب عوالم الوجود بحسب الجلال والجّمال: من الدنيا التـي هي محل غلبة الجلال، إلى السّماوات العلا التي يغلب فيها الجمال.

يقول الإمام: "ففي أولياء الله أيضاً طائفة بهذه الصّفة (غلبة الجمال)، فكما أنّنا مستغرقون في البحر الظّلمانيّ للطبيعة وعن عالم الغيب وذات ذي الجـلال غافلون؛ مع أنّ الحقّ تعالى ظاهرٌ بالذّات وكلّ ظهور شعاع ظهوره؛ فهم غافلون كليّاً عن العالم وما فيه، ومشغولون بالحقّ وجمال الجميل. وفي الرواية: "إنّ لله خلقاً لا يعلمون أنّ الله خلق آدم وإبليس"". [معراج السالكين].

والإنسان الكامل، لأنّه الكون الجامع والمظهر الأتمّ للاسم الأعظم، فقد

نال شرف جمع العوالم كلّها، وفيه انطوى العالم الأكبر.

ولكـي لا يقع سالـك طريق المعرفـة، أثناء سيره العقلـيّ، في حجب الشّبهات النّاشئة من التكثير المفهوميّ للأسماء، فيظن أن للذات صفات جلال مغايـرة لصفات الجمال، يذكّره الإمـام الخمينيّ قدس سره بمعدن الحقيقة التـي جمعـت كلّ الأسماء بنحـو البساطة والصرافة، فيقـول: "فحقيقة الوجود المجرّدة عن كافّة التعلّقات، وعين الوحدة وصرف النّوريّة، لمّا كانت بسيطة الحقيقة وعين الوحدة وصرف النّوريّة بلا شوب ظلمة العدم وكدورة النّقص، فهي كلّ الأشياء وليست بشيءٍ منها. فالصّفات المتقابلة موجودة في حضرتها بوجودٍ واحدٍ مقدّس عن الكثرة العينيّة والعلميّة، منزّه عن التعيّن الخارجيّ والذهنيّ. فهي تعالى في ظهورها بطون وفي بطونها ظهور، في رحمتها غضب وفي غضبها رحمة. فهي اللطيف القاهر الضارّ النافع. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: "هو الذي اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته واشتدّت نقمته لأعدائه في سعة رحمته". فهو تعالى بحسب مقام الإلهيّة مستجمعٌ للصّفات المتقابلة، كالرّحمة والغضب، والبطون والظهور، والأوّليّة والآخريّـة، والسّخط والرّضا، وخليفته لقربـه إليه ودنّوه من عالم الوحدة والبساطـة، مخلوقٌ بيدي اللطف والقهر، وهو مستجمعٌ للصّفات المتقابلة كحضرة المستخلف عنه. ولهذا اعترض على إبليس بقوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيّ﴾. مع أنّك مخلوقٌ بيدٍ واحدة. فكلّ صفةٍ متعلّقة باللطـف فهي صفة الجمـال، وكلّ ما يتعلّق بالقهر فهـو من صفة الجلال. فظهـور العالم ونورانيّته وبهائـه من الجمال، وانقهاره تحـت سطوع نوره وسلطـة كبريائه من الجلال وظهور الجـلال في الجمال واختفاء الجمال في الجلال. جمالك في كلّ الحقائق سائر وليس له إلاّ جلالك ساترٌ، وكلُّ أُنسٍ وخلوة وصحبة من الجمال، وكلُّ دهشٍ وهيبة ووحشة من الجلال؛ فإذا تجلّى على قلب السّالك باللطف والمؤانسة تذكّر الجمال ويقول: "اللهمّ اني أسألك

مـــن جمالك بأجمله"، إلى آخره. وإذا تجلّى عليه بالقهر والعظمة والكبرياء والسّلطنـــة تذكّر الجلال بقوله: "اللهـــم إني أسألك من جلالك بأجلّه"، إلى آخره. فللأولياء والسّالكين الى اللّه والمهاجرين إليه والطائفين حول حريم كبريائـــه، أحوالٌ وأوقـــات وواردات ومشاهدات وخطـــورات واتّصالات؛ ومـــن محبوبهم ومعشوقهم تجلّيات وظهورات وألطاف وكرامات وإشارات وجذبات وجذوات، وفي كلّ وقت وحال تجلّى لهم محبوبهم بمناسبة حالهم. وقد تكون التجلّيـــات على خلاف التنسيق والترتيب، اللطف أوّلاً، والقهر ثانياً، واللطف ثالثاً". [شرح دعاء السحر].

فبعقلك المنوّر توجّه القلب إلى حقيقة الحقائق، وتجعل قبلة قلبك تلك الـــذّات التي لا اسم لها ولا رسم، وأنت تعلم أنّه تعالى سيتجلّى عليه تارةً بالجـــلال لتخاف مقام ربّك، وأخرى بالجمال لترجو لقاءه. كل ذلك من أجل هدايتك إلى معدن العظمة. "والعظمة من صفات الجلال. وقد ذكرنا أنّ لكلّ صفة جلال جمالاً. ولولا أنّ العظمة والقهر مختف فيهما اللطف والرّحمة لما أفاق موسى عليه السلام من غشوته، ولَمَا تمكّن قلب سالك من شهودهما، ولا عين عـــارف من النّظر إليهما؛ ولكنّ الرّحمة وسِعت كلّ شيء، "وبعظمتك التي ملأت كل شيء"." [شرح دعاء السحر].

"إنّ الصفات المتقابلة ـ لاجتماعها في عين الوجود بنحو البساطة والتنزه عـــن الكـــثرة ـ يكون الكلّ مُنطـــوٍ في الكلّ، وفي كلّ صفـــة جمال جلال، وفي كلّ جـــلال جمال، إلاّ أنّ بعضَ الصّفات ظهور الجمال وبطون الجلال، وبعضهـــا بالعكس. فكلّ صفة كان الجمال فيها الظّاهر فهي صفة الجمال، وكلّ ما كان الجلال فيه الظّاهر فهو صفة الجلال. والبهاء وإن كان النّور مع هيبـــة ووقار وجامع للجمال والجلال إلا أنّ الهيبة فيه بمرتبة البطون والنّور بمرتبـــة الظّهور، فهو من صفات الجمال الباطن فيه الجلال. ولّما كان الجمال مـــا تعلّق باللطف بلا اعتبار الظّهور وعدمـــه فيه، كان البهاء محاطاً به وهو

محيط به. وما ذُكر جارٍ في مرتبة الفعل والتجلّي العينيّ حذواً بالحذو. فالبهاء ظهور جمال الحقّ، والجَلال مختف فيه، والعقل ظهور جمال الحقّ، والشيطان ظهور جلاله، والجنّة ومقاماتها ظُهور الجّمال وبطون الجّلال، والنّار ودركاتها بالعكس". [شرح دعاء السحر].

تتحقق معرفة الأشياء بالحقيقة، عندما يدرك العارف آخر وأعلى مراتب وجودها. وإن معرفة الاسم، الذي هو مظهر ذات الحق تعالى، كما هو حقه، لا تحصل إلا عند بلوغ العارف في معرفته إياه أقصى مداه. وليُعلم أن أقصى مدى أسماء الجمال هو الجلال، وأن منتهى مدى الجلال هو الجمال. فمن لم ير وراء الجمال المطلق ذاك الجلال، فهو البعيد عن رؤية الجمال.

"ففي كل حال وشأن يظهر للسالك محبوبه باسم، ويتجلّى عليه معشوقه ومطلوبه بتجلٍ، من اللطف والقهر والجلال والجمال". [شرح دعاء السحر].

"اعلم أنّ للحقّ تعالى صفات ثبوتيّة، وصفات سلبيّة في نظر الحكماء. وقالوا أنّ الصّفات السلبيّة ترجع إلى سلب السّلب أي سلب النّقص، وقال بعضٌ: أنّ الصّفات الثبوتيّة هي صفات الجمـال، والصّفات السلبيّة هي صفات الجلال. وذو الجلال والإكرام جامعٌ لجميع الصّفات السلبية والثبوتية؛ وهذا الكلام في كلتي المرحلتين خلاف التّحقيق. أمّا المرحلة الأولى فالصّفات السلبيّة ليست بصفات على التحقيق؛ بل لا سبيل إلى ذات الحقّ تعالى لا للسّلب ولا لسلب السّلب. والحقّ تعالى ليس متّصفاً بالأوصاف السلبيّة، لأنّ الاتّصاف بالسّلب يكون في القضايا المعدولة، وعقد القضيّة المعدولة للحقّ تعالى غير جائز، لأنّه مثبتٌ للجّهات الإمكانيّة، ومستلزمٌ للتّركيب في الذّات المقدّسـة؛ بل الأوصاف السلبيّة بطريق السّلب المطلق البسيط وهـو سلب الصّفة لا إثبات صفة سلب السّلب. وبعبارةٍ أخرى، النّقائص مسلوبـة عن الحقّ تعالى بالسّلب البسيـط لا أنّ سلب النّقائص ثابت له بطريق الإيجاب العدوليّ. فالصّفات التنزيهيّة ليست بصفات على الحقيقة،

وإنّما الحقّ تعالى متّصف بالصّفات الثبوتيّة فقط.

وأمّا المرحلة الثانية: فإنّ صفات الجّمال عند أهل المعرفة صفات يحصل منها الأنس والتعلّق، وصفات الجلال صفات يحصل منها الوحشة والحيرة والهيمان، فما كان متعلّقاً باللطف والرّحمة فهو من صفات الجمال، كالرّحمن والرّحيم واللطيف والعطوف والربّ وأمثالها، وما كان متعلّقاً بالقهر والكبرياء فهو من صفات الجلال، كالمالك والملك والقهّار والمنتقم وأمثالها، وإن كان في سرّ كل جمال جلال، لأنّ كل جمال يستبطن حيرة وهيماناً ويظهر للقلب بسرّ العظمة والقدرة، وكلّ جلال في باطنه الرّحمة. والقلب يأنس به باطنا، ولهذا كما أنّ القلب بفطرته مجذوب للجمال والجميل، فهو كذلك مجذوب للقدرة والعظمة والقادر والعظيم، فهذان النوعان من الصّفات صفات ثبوتية لا سلبية.

فــإذا عُلم هذا المطلب فاعلم أنّ (اللـــه)، وإن كان هو الاسم الأعظم وأنّ صفــات الجّمال والجّلال مــن تجلّياته وتحت حيطته، لكــن ربّما يُطلق على صفــات الجّمال مقابل صفات الجلال، مثلما أنّ الإلهيّة والألوهيّة راجعتان إلى صفات الجّمال نوعاً، وخصوصاً إذا وقعتا في مقابل صفة الجلال.

وفي الآيــة الشريفة ﴿قــل هو الله أحد﴾ يمكن أن يكــون "أحد" إشارة إلى إحــدى أمّهات صفات الجّلال وهي مقام كمال بساطة الذّات المقدّسة، و"اللـــه" إشارة إلى اسم الجمال؛ ففــي الآية الشريفة قد عُرّفت نسبة الحقّ تعالى بحسب مقام الأحدية والواحدية والتجلّي بالفيض الأقدس - وهذه الثلاثــة جميع الشؤون الإلهيّة - بناءً على الاحتمــال الأوّل الذي ذُكر قبل هذا التّنبيه. وبناءً على الاحتمال المذكور في هذا التّنبيه، عُرّفت نسبة الحقّ تعالى بحسب مقام الأسماء الجماليّة والجلاليّة المحيطة بجميع الأسماء. والله العالم". [معراج السّالكين].



"اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ".



تكثر المظاهر وأسماء الله

تكثّر المظاهر وأسماء الله

إنّ رحلة الإنسان نحو معدن العظمة تقتضي الاتصال ببحر العظمة المطلقة. وليست العظمة المطلقة سوى تجلّي الذّات بما لا يتناهى من الكمالات. فهذه التجلّيات المطلقة التي لا تكرار فيها هي الأسماء. ولهذا، كانت أسماؤه تعالى من هذه الحيثية لا متناهية.

لكن لمّا اقتضت حكمة التدبير للإنسان أن ينطلق من بداية، على طريق التحرر من سجن الغفلة والهجران، وكانت اللغة والبيان من أوائل عوامل تحريك الفكر، وكان التفكر والبحث عن الحقيقة بالنسبة للمحجوبين أوّل منزل من منازل سلوكهم المعنويّ وعروجهم الرّوحانيّ، فإنّ الله تعالى جمع كليات الكمال في قوالب المفاهيم والألفاظ. حتى إذا قام الإنسان لمهمة السير الفكريّ وجال بعقله في معاني ألفاظ الأسماء الإلهيّة، فأحكم مبانيه ورسّخ جذوره، فسوف ينفتح على قلبه باب المسير الشهوديّ القلبّي بنور الحب الجاذب الذي يأخذ بيده حتى يصل إلى مقام التحقّق بحقيقة الأسماء.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "ففي البداية تكون تسمية السّالك عبارة عن الاتّصاف بالسّمات والعلامات الإلهيّة، ثم يترقّى عن هذه المرتبة ويصل

بنفسه إلى مقام الاسميّة، وهذا أوائل قرب النافلة، فإذا تحقّق بقرب النّافلة نال تمام الاسميّة فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبوديّة، وإذا وصل أحد إلى هذا المقام تقع جميع صلاته بلسان الله. وهذا يتحقّق في القليل من الأولياء.

وأمّا للمتوسّطين وأمثالنا النّاقصين فالأدب أن نسمَ القلب بسمة العبوديّة ووسمتها عند التّسمية، ونخبر القلب عن سمات الله والآيات والعلامات الإلهيّــة، ولا نكتفي بلقلقة اللسان. فلعلّ من العنايات الأزلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منّا، وينفتح لقلوبنا طريق إلى تعلّم الأسماء ويحصل سبيل إلى المقصود". [معراج السالكين].

وإنّ مــن أهم علامات الانتقال من الفكــر الصّائب إلى القلب التّائب، التوجّه إلى العوالم والحضرات الإلهيّة لأنّها منصّات العروج في سماوات الارتقاء. وحينها، سيحصل له التعلّم الحقيقيّ للأسماء كلّها. وسيكون له شرف معرفة الأشياء بحقيقتها، وهو مقام ظهور الوحدة في الكثرة حيث لا بعــد ولا احتجاب. "وسأل أحدهم أبا عَبْد اللَّه عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّه وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها مَاذَا عَلَّمَهُ؟ قَالَ الْأَرَضِينَ وَالْجِبَالَ وَالشِّعَابَ وَالْأَوْدِيَةَ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى بِسَاطٍ تَحْتَهُ فَقَالَ: وَهَذَا الْبِسَاطُ مِمَّا عَلَّمَه". [بحار الأنوار، الباب2].

وأنــت لو تدبّــرت في معنى التجلّي، لعلمت أنّه لا يمكن أن يحصل فيه التكــرار والتشابه. فــإنّ تكرار الإبداع من نقص الإبــداع. وقد علمت أنّ الله تعالى ليس لعظمته حدّ ولا لإبداعه منتهى. فهو تعالى يتجلّى في كلّ مخلوق بكمالٍ لا يكون في المخلوق الآخر.

لعل النّزعة العنصريّة الاستعلائيّة عند البشر وغلبة الحاجة والتملك قد حملتا الإنسان على التعامل مع كل الأشياء من حوله بعد وضعها في قوالب جاهزة وتصنيفها في خانات الأنواع والأجناس؛ فخسر بذلك فرصة التعرّف على الكثير من خصائصها المتباينة وفروقاتها المميّزة وهويّاتها الحقيقيّة.

تظهر آثار النزعة الاستعلائية في المعرفة في العديد من الأمثلة اليومية. منها عندما ينظر بعض الأقوام إلى الصينيّين مثلاً فيرونهم متشابهين جدّاً، ويصعب عليهم التّفريق بينهم. وقد يتعجب العربي من الصينيّ إذا نظر إلى العرب ولم يرهم متمايزين.

وتظهر آثار الحاجة في المعرفة على سبيل المثال، عندما يضطر الإنسان للتّعامل مع مجموعة كبيرة من النّحل دفعة واحدة. فهو غير محتاج لتحديد كل نحلة باسمها وصفاتها، كما يحصل مع مربي الخيول مثلاً. ولهذا، قد يتعجّب هذا الإنسان إذا قلنا له إنّه لا يوجد نحلة تتشابه من جميع الجّهات مع أية نحلة أخرى.

فكلّ مخلوق ذرأه الله تعالى في كيان واحد وعبر مسيرة ولادة وموت خاصّة به، يُعد كياناً مستقلاً عن كلّ الكيانات الأخرى، فيصحّ عليه أنّه تجلٍّ لله. فيكون بحسب هذا الفهم اسماً إلهيّاً. يقول الإمام قدس سره: "ولعلّك بعد التدبّر في روح الاسم، والتفكّر في حقيقته، ومطالعة دفتر سلسلة الوجود وقراءة أسطره، ينكشف لك بإذن اللّه وحسن توفيقه أنّ سلسلة الوجود ومراتبها ودائرة الشهود ومدارجها ودرجاتها كلّها أسماء إلهية". [شرح دعاء السّحر].

ولمّا كانت كائنات عوالم الوجود غير متناهيّة، فهذا يعني أنّ أسماء الله هي أيضاً غير متناهية.

وفي عالم التدوين، كان القرآن مظهر الكتاب الذي لا نهاية لآياته: ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مداداً لِكَلمات رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِه مَدَداً﴾، فآيات الكتاب هي آيات عظمة الله وأسمائه: "إنّ الله تجلّى لخلقه في كتابه ولكن لا يبصرون". ولما كانت كل آية مفسرة لغيرها من الآيات، كما جاء في الحديث "أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً"، فإنّ الآيات الحاصلة من عملية تفسير كل آية لغيرها من الآيات سوف تكون لا متناهية أيضا.

أجل، إنّ السّير في عالم التكوين إلى حقيقة الأشياء وأسمائها (التي هي جهــة انتسابها إلى الاسم الأعظم) لا يتحقــق بتمامه إلّا بقيادة ولي اللــه الأعظم الذي كان له مقام الخلافة العظمــى؛ كما أنّ السّير في آيات اللــه التدوينية من أجل تلقي بيانها وظهور عظمة الله فيها، لا يكون إلّا باتّباع هذا الوليّ الذي كان له مقام شراكة القرآن وترجمانه. "وبالجملة، لا بــدّ للسّالك إلى الله في وقت التّسمية أن يفهم قلبه أنّ جميع الموجودات الظاهرة والباطنة، وجميع عوالم الغيب والشهادة، تحت تربية أسماء الله، بل ظاهــرة بظهور أسماء اللــه وجميع حركاته وسكناتــه وجميع العالم بقيوميّة الاسم الله الأعظم". [معراج السالكين].

وعندما يهاجر السّالــك من عالم الخلق، ويخرج من هذه الدّنيا الدنيّة، ويفكّ قيود الهوى، ويتحرّر من سجن النّفس، وينتقل إلى عالم الحقّ، سوف يجد أمامه سفراً لا نهاية له. وهذا هو أحد أسباب الخلود وأسراره. وما كان لهذا السّفــر أن يتحقّق لولا تجلّي الرّبّ المتعــال على قلب العبد المهاجر، بحســب كل يوم هو في شأن، بعد أن اتّسع هذا القلب الأمين، حين ضاقت السّماوات والأرض بتلك التجليات.

يقول الإمام: "فاعلم أنّ الاسم عبارة عن الذّات مع صفة معيّنة من صفاته، وتجلّ من تجلّياته، فإنّ الرحمــن ذات متجلّية بالرّحمة المنبسطة، والرّحيم ذات متجلّية بالتجلّي بالرحمة التي هي بسط الكمال، والمنتقم ذات متعيّنة بالانتقام. وهذا أوّل تكثّر وقع في دار الوجود، وهذا التكثّر في الحقيقة تكثّرٌ علميّ. وشهود ذاته يكون في مرآة الصّفات والأسماء والكشف التفصيليّ في عــين العلم الإجماليّ. وبهذا التجلــي الأسمائي والصفاتي انفتح باب الوجود وارتبط الغيب بالشهود، وانبسطت الرّحمة على العباد والنّعمة في البــلاد. ولولا التجلّي الأسمائي لكان العالم في ظلمة العدم وكدورة الخفاء

ووحشة الاختفاء لعدم إمكان التجلّي الذاتيّ لأحد من العالمين، ولا على قلب سالك من السّالكين، إلّا في حجاب اسم من الأسماء وصفة من الصّفات. وبهــذا التجلّي شهد الكمّل الأسماء والصّفـات ولوازمها ولوازم لوازمها إلى أخـيرة مراتب الوجود ورأوا العين الثّابت من كلّ حقيقة وهويّة، وكان التجلّي ببعض الأسمــاء مقدّماً على بعض، فكلّ اسم محيط وقع التجلّي ابتــداءً له وفي حجابه للاسم المحاط. فاســم ـ اللّه والرّحمن- لإحاطتهما يكون التجلّي لسائر الأسماء بتوسّطها، وهذا من أسرار سبق الرّحمة على الغضب، وليكون التجلّي باسم اللّه علـى الأسماء الأخر أوّلاً، وبتوسّطها على الأعيان الثابتة من كلّ حقيقة ثانياً، إلّا العين الثابت للإنسان الكامل، فإنّ التجلّي وقع له ابتــداءً بلا توسّط شيء، وعلى الأعيان الخارجية ثالثاً، وفي التجلّي العينيّ أيضاً، كان التجلّي على الإنسان الكامل باسم اللّه بلا واسطـة من الصّفات أو اسم من الأسماء، وعلى سائر الموجودات بتوسّط الأسمــاء. وهذا من أسرار أمر اللّه بسجــود الملائكة لآدم عليه السلام، وإن جهل بحقيقة هذا الشيطان اللعين، لقصوره. ولولا تجلّي اللّه باسمه المحيط على آدم عليه السلام لما تمكّن من تعلّم الأسماء كلّها، ولو كان الشيطان مربوب اسم اللّه لمــا وقع الخطاب على سجدته ولما قصر عن روحانيّــة آدم عليه السلام؛ وكون آدم مظهر اسم اللّه الأعظم اقتضى خلافته عن اللّه في العالمين". [شرح دعاء السحر].

العرفان الحقيقيّ هو الذي يعبر بالسّالك من عالم الألفاظ إلى المفاهيم، ومن المفاهيم إلى شهود الحضرات من منصة العوالم، فيتحقق سفره الواقعيّ بطــيّ تلك المراتب الوجوديّة. والعارف الحقيقــيّ هو الذي يقتفي أثر النبيّ الأعظم في معراجه ويسعى لرؤية ما رآه بفؤاده. فهذه هي الرّحلة العرفانيّة التي تشقّ أبواب السّماوات إلى قاب قوسين أو أدنى؛ والتي تتوّج بالرّجوع إلى الخلق لهدايتهم.

"لقد سقط موسى الكليم بحال الصعق نتيجة تجلي الحق، وأفاق بعناية إلهيّــة خاصة، ثم أُمر بتحمّل الأمر، وكذا فإنّ خاتم النبيين، الرّسول الأكرم أُمر بعد بلوغه القمّة من مرتبة الإنسانية ـ وما لا تبلغه الأوهام من مظهرية الاسم الجامع الأعظم ـ بهداية النّاس بعد أن خاطبه تعالى﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ*قُمْ فَأَنذِرْ﴾". [وصايا عرفانيّة]

"اللهــمّ صلّ على محمد وآله واجعلنا من الّدعاة الدّاعين إليك والهداة الدالّين عليك وخاصّتك الخاصّين لديك". (الإمام زين العابدين، الصحيفة السجّاديّة).

ولا شكّ بأنّ عالم المفاهيم الذي ينقسم إلى التصوّر ـ وهو ابتلاء طلاب العلم الأكبر ـ والتّصديق والحكم، إنّما تطول مدّة عبوره بمقدار ما يعيشه المرء مــن شكوك وأوهام؛ وقد تكاثرت هذه الشبهــات في زماننا هذا، من كثرة القائلين وعبث الملحدين: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لهذا، ينبغي إحكام الأصول وإتقان التفريع منها، فتشاد البنية المعرفيّة الأولى، ويرتفع بناؤها ليكون قاعدة لرحلة بلوغ العجز العرفاني عن إدراك الحقيقــة الكبرى. هؤلاء هم العارفون باللــه وقد سمّاهم الله الرّاسخين في العلم، وعــن أمير المؤمنين عليه السلام: "وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِــينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الْاقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْســيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْـمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ". [نهج البلاغة].

والأصــل الأوّل في معرفة الأسماء والتجلّيات الإلهيّة هو أنّها ليست أموراً زائدة على الذات المقدسة. "واعلم أنّ الأسماء والصفات الإلهية كلّها

كمال بل نفس الكمال، لعدم النّقص هناك حتى يُجبر، وكلّ كمال هو ظهور كمـال الأسماء الإلهية وتجلّياتها، وأكمل الأسمـاء هو الاسم الجامع لكلّ الكمالات ومظهره الإنســان الكامل المستجمع لجميع الصّفات والأسماء الإلهيّة ومظهر جميع تجلّياتها. ففي الأسماء الإلهية اسم "اللّه" أكمل، وفي المظاهر الإنسان الكامل أكمل". [شرح دعاء السحر].

والأصل الثاني، إنّ ذات الحقّ تعالى أكبر من أن توصف؛ وهو مقام نفي الصفـات المعبّر عنه بكمال الإخلاص لله الــذي ينبع من كمال التّوحيد. ويعنــي ذلك أنّ هذه التجلّيات مهما عظُمت تبقى قاصرة عن إظهار ما في غيب الذّات بمعزل عن مدى معرفتنا أو إحاطتنا بها. يقول الإمام: "اعلم يا حبيبي وفّقك اللّه لمعرفة أسمائه وصفاته، وجعلك من المتدبّرين في أسرار آياته، أنّ الأسمــاء الحسنى الإلهيّة والصّفات العليا الربوبيّة حُجُب نورية للـذّات الأحدية المستهلك فيها جميع التعيّنــات الأسمائية المستجنّ في حضرتهــا كل التجليّات الصفاتيّة، فإنّ غيب الهويّــة والذّات الأحديّة لا يظهــر لأحــد إلاّ في حجاب التعيّن الاسميّ، ولا يتجلّــى في العالم إلاّ في نقاب التجلّي الصّفاتي، ولا اسم له ولا رسم بحسب هذه المرتبة، ولا تعيّن لــه ولا حدّ لحقيقته المقدّسة، والاسم والرسم حدّ وتعيّن، فلا اسم ولا رسم له لا بحسب المفهوم والماهيّة ولا بحسب الحقيقة والهويّة لا علماً ولا عيناً، وليس وراءه شيء حتى يكون اسمه ورسمه. سبحان من تنزّه عن التحديد الاسميّ، وتقدّس عن التعيّن الرسميّ. والعالم خيال في خيال، وذاته المقدّسة حقيقـة قائمة بنفسها، ولا تنكشف الحقيقة بالخيــال، كما هو قول الأحرار من الرجال. فالمفاهيم الأسمائية كلّها والحقائق الغيبيّة بمراتبها تكشفان عن مقام ظهوره وتجلّيه أو إطلاقه وانبساطه. فالوجود المنبسط ومفهومه العام لا يكشفان إلا عن مقام إطلاقه.

قال الشيــخ صدرالدين القونوي في مفتاح الغيب والشهودُ: فللوجود اعتباران أحدهما نفس كونه وجوداً فحسب، وهو الحقّ وإنّه من هذا الوجه، كما سبقت الإشارة إليه، لا كثرة فيه ولا تركيب ولا صفة ولا نعت ولا رسم ولا اسم ولا نسبة ولا حكم، بل وجودٌ بحت. وقولنا "وجود" للتفهيم، لا أنّ ذلك اسم حقيقيّ له، بل اسمه عين صفته، وصفته عين ذاته". [شرح دعاء السحر].

والأصل الثالــث، إنّ الأسماء الإلهيّة لمّا كانت تجلّيات الذّات المقدّسة، فهــي دليل السالك نحو كمال الانقطــاع إلى ذات الحق تعالى، وإن كانت قاصــرة عن الدلالة عليها من حيث المعرفــة والإحاطة. ولهذا كان السّير بالأسماء من أعظم الطّرق إلى الذّات وإلى الفناء في التوحيد، بل هو الطّريق الوحيد الذي ارتضاه الله لنفسه.

والأصــل الرّابــع أنّ الأسمــاء الإلهيّة، لمّا كانت عين الــذّات من جهة، والــذّات وحدة صرفة، فهي عين بعضها البعض. ويشهد على ذلك شهادة حقيقيّة الاسم الله كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فالقدير في الصّقع الرّبوبــيّ هو عين العليــم، والحيّ من منظر التجلّي الأعظم هو عين السّميع، وهكذا؛ بالرّغم من التّباين المفهوميّ بينها والاختلاف اللفظيّ فيها.

"فإذا أفاق بتوفيقات محبوبه عن هذا الهيمان والدّهش وصحا عن المحو أمكنــه التميز والتفرقة لتمكّن الشهود فيه واستقامته واستقراره وحفظه الحضــرات الخمس يرى أن الصّفات التي يراها في الصحو الأول بعضها أبهى وبعضها بهيّ وبعضهــا أكمل وبعضها كامل، كلّها من تجلّيات ذات أحــديّ محض ولمعات جمال نــور حقيقيّ بحت. فلا يــرى في هذا المقام أفضليــة وأشرفيّة، بل يرى كلّها شرف وبهاء وجمال وضياء، فيقول: "كلّ بهائــك بهيّ وكلّ شرفك شريــف"، لم يكن أشرفية في البين، وتكون كلّها

أمواج بحـــر وجودك ولمعات نور ذاتك، وكلّها متّحـــدة مع الكلّ، وكلّها مع الذّات. فإثبات التفضيل في الصحو الأوّل، ونفيها في الصحو بعد المحو مع إرجاع الكثرات إليه". [شرح دعاء السحر].

والأصـــل الخامس هـــو أنّ انعكاســـ تجلّيات الأسمـــاء في الحضرات الإلهيّة هو سر ظهور عوالم الوجود بحسب ترتيب التنزل والترقي، فتكون هـــذه العوالم منازل العروج. ولهذا صـــارت الأسماء من هذه الجّهة مترتّبة؛ فمنها المحيط ومنها المُحاط؛ لأنّ ترتيب عوالم الوجود إنّما يكون بالإحاطة والمحاطيّـــة، لا كما يتصوّر الجاهل بأنّهـــا كدرجات السلّم إذا صعدت منه درجـــة جافيت الدّرجة السّابقة. يقول الإمام الخميني: "إنّ الخلافة والولاية بمقامهما الغيبيّ ـ الذي لا يتعيّن بتعيّن، ولا يتّصف بصفة، ولا يظهر في مرآة ـ لا يكون لهما هيئة روحانيّة أصلاً. وأمّا بمقام ظهورهما في صور الأسماء والصّفـــات وانعكاس نورهما في مرائـــي التعيّنات، فهما على هيئة كرات محيطة بعضها ببعض. ولكنّ الأمر في الكـــرات الإلهيّة والروحانيّة على عكس الكرات الحسّيّة: فإنّ الكرات الحسّيّة يحيط محيطها بمركزها، وفي الكـــرات الإلهيّة والروحانية يحيط مركزها بمحيطها، بل المحيط فيها عين المركز باعتبـــار. لا تتوهمنّ أنّ الإحاطة بتلك الكرات، كالإحاطة بالكرات الحسّيـــة من كون بعضها في جوف بعضـــ وتماس سطوح بعضها بسطوح بعض. فإنّ ذلك توهّمٌ فاسدٌ وظنٌّ باطل. فاخرج من هذا السّجن واترك دار الحسّ والوهـــم، وارقَ إلى عالم الروحانيات، وابعث نفسك من هذه القبور الهالك سكانها الظالم أهلها". [لطائف عرفانيّة].

"إنّ مـــن الصّفات الإلهيّـــة ما لها الحيطة التامّة علـــى سائر الصّفات كالأئمّة السّبعة، ومنها ما لم يكن كذلك، وان كانت له المحيطيّة والمحاطيّة أيضاً. وبهذا يمكن تحصيل الفـــرق بين صفة البهاء والجمال، فإنّ البهاء هو

الضياء المأخوذ فيه الظهور والبروز دون الجمال". [شرح دعاء السحر].

والأصل السّادس، إنّ للتجلّي الأعظم حضوراً مع ذرات جميع المراتب الوجودية والحضرات الإلهية، كل بحسب مرتبته. وله المعية القيومية لكل الأشياء. كيف لا وهو مربوب الذات بلا توسط شيء إلا الاسم المستأثر الذي له تلك المنزلة الرفيعة.

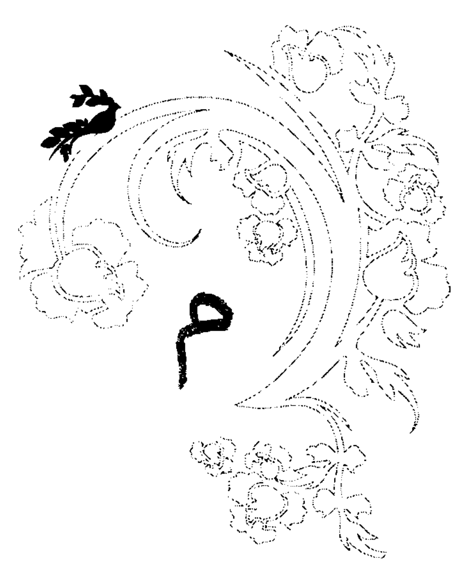
"إنّ الإنباء والتعليم بحسب نشآت الوجود ومقامات الغيب والشهود مختلف المراتب. ولكنّ الجامع لها هو حقيقة الإنباء والتعليم. فمرتبة منها حصلت لأصحاب سجن الطبيعة وأهل القبور المظلمة في عالم الطبيعة. ومرتبة لأهل السرّ من الروحانيين والملائكة المقرّبين. ومن ذلك تعليم آدم. ومرتبة الحقيقة الإطلاقية من حضرة الاسم الأعظم ربّ الإنسان الكامل. ومرتبة الأعيان الثابتة من حضرة العين الثابتة المحمديّة. ومرتبة عالية لحضرة الأسماء في مقام الواحديّة والنشأة العلميّة الجمعيّة من حضرة الاسم "الله" الأعظم بمقامه الظهوريّ لا الغيبيّ. وفوق ذلك لا يكون إنباء وظهور، بل بطون وكمون". [لطائف عرفانية].

وفي كلّ مرتبة وجوديّة يحصل لهذا التجلّي تكثّر أسمائيّ. كما هو الحال بالنسبة للضوء المنعكس من المنشور سبعة أشعّة ملوّنة منظورة وإشعاعات أخرى غير مرئيّة (كالأشعّة البنفسجية والأشعة ما تحت الحمراء). فالمرئيّ منها يدلّ عليه، وما خفي منها هو جهة الارتباط بالاسم المستأثر الذي هو باطن كلّ ظاهر والمطلق في كلّ مقيّد. "وأما حقيقة الاسم فإنّ لها مقاماً غيبيّاً وغيب الغيبيّ، وسريّاً وسرّ السرّي، ومقام ظهور وظهور الظهور، وحيث أنّ الاسم علامة الحقّ وفان في الذّات المقدّسة، فكلّ اسم يكون أقرب الى أفق الوحدة، وأبعد عن عالم الكثرة، فهو في الاسميّة أكمل، وأتم الأسماء اسم يكون مبرأ عن الكثرات حتّى عن الكثرة العلميّة، وهو التجلّي الغيبيّ

الأحديّ الأحمديّ في حضرة الذّات بمقام الفيض الأقدس". [معراج السالكين].

والأصل السّابع، إنّ لمفاهيم الأسماء الإلهيّة، التي يعبّر عنها باسم الاسم، ويكون اللفظ الحاصل منها اسم اسم الاسم، ترتيبٌ خاصّ بحسب حركة الذّهن من الأصل إلى الفرع، ومن الكلّيّ إلى الجزئيّ. "ـ الأسماء الإلهية وإن لم تكن بحسب المناكحات والموالدات محصورةً، ولكنها بحسب الأمهات محصورة: يجمعها باعتبار الأول والآخر والظاهر والباطن هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وباعتبار اللّه والرحمن: ﴿قل ادعوا اللّه أو ادعوا الرحمن﴾ الآية، وباعتبار اللّه والرحمن الرحيم، كما أن مظاهر الأسماء بالاعتبار الأوّل غير محصورة ﴿وإن تَعُدّوا نعْمَتَ اللّه لا تُحْصوها﴾(ابراهيم: 34)، ﴿قُلْ لَوْ كانَ البَحر مداداً لِكَلِمات ربّي لَنَفِدَ البَحر قَبلَ أَنْ تَنْفدَ كَلِماتَ رَبّي﴾(الكهف: 109). وبالاعتبار الثاني محصور بالعوالم الثلاثة أو الخمسة وقيل ظهر الوجود ببسم اللّه الرحمن الرحيم. كذلك الاعتباران في الصّفات، فإنّها بالاعتبار الأول غير محصورة، وبالاعتبار الثاني محصورة في الأئمّة السّبعة أو صفات الجلال والجمال. تبارك اسم ربّك ذي الجلال والإكرام" [شرح دعاء السحر].

والأصل الثّامن هو أنّ الأسماء بحسب التجلّي من الحقيقة لا حدّ لعددها بل التعبير بالعدد في الإطلاق من ضيق الخناق. وليس بين المطلق والمحدود سنخيّة حتّى يندرج ضمن المعدود.



"اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيل،
وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولَ،
وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ".



العوالم
والحضرات الإلهية

العوالم والحضرات الإلهية

إنّ رحلـة الإنسان المعرفيّة وسفره العلميّ مـا لم يكن سيراً في عوالم الوجـود، فإنّه لن يصل به إلى الغاية المنشـودة. فإذا نظرنا إلى هذه العوالم من جهة "يلي الخلقي"، وانطلقنا للتعرّف على حقائقها في السير المعنوي، فإنّها ستكون المحلّ الذي تحضر فيه العظمة الإلهيّة، بحسب سعة كل عالم وقابليّاته؛ هكذا تتشكل الحضرات الإلهيّة.

وإنّ الرابطة بين السالك والعوالم لا تنحصر في إطار الشاهد والمشهود؛ بـل هي علاقة تفاعل وتكميل. ولهذا، كان لـكلّ إنسان طريقه الخاص به بحسب ما يحقّقه في هذه العوالم. فكل سالك سيصنع منصّة عروجه بيده عالماً بعد عالم! وهذا هو أحد معاني "الطّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق"، التي تمثّل الخطوط الكثيرة على الصّراط المستقيم والشّريعة الواحدة.

إنّ الإيمان بوجود العالمين شرطٌ أساسيّ ومقدّمة ضروريّة للتوجّه إليها والاستعداد للنّفوذ فيها. كما أنّ انكشافها أمام السّالك ضرورة لسلوكه فيها. فقولـه تعالى: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِـنّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُـمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ

أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطانٍ﴾، يكشف بعض أســـراره قولُه تعالى: ﴿وَكَذلِكَ نُري إِبْراهيــمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنينَ﴾ حيث يتبيّن سرّ وسيلته بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقينُ﴾.

وقد تحقق بمصداق اليقين الأعظم رسول الله ﷺ، وظهر ذلك اليقين في إسرائــه إلى المسجد الأقصى الذي هو في السمــوات السبع، من خلال السّــير في مراتب العبوديّة ﴿سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾. وعبور الليل إشارة إلى خرق حجاب عالم الطّبيعة المظلم.

ولأجــل تسهيل مهمّة الإنســان جعل الله عالم الطّبيعــة مثال العالم الأعلى، وجعل العالم الأعلى مثال ما هو أعلى منه، حتّى ينتهي إلى أخيرة العوالم وهو جنّة المقام، وفسّر بعضهم قول أهلها ﴿هذَا الَّذي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً﴾ بهذا المعنى.

ولو لم يكن بين العــوالم أيّ نوع من السنخيّة والتّشابه والاشتراك، لما تمكّن أحد من عبور عالمه الأوّل، ولبقي الجّميع قابعين فيه؛ لأنّهم والحال هذه سيتنكرون للعالم الأعلى إذا انكشف لهم، كما ينكر من عمي في هذا الحياة عن جمال ربّه سبحانه عندما يتجلّى له بجماله المطلق يوم القيامة. "إنّ كل عظمة وجلال وكبرياء هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت قد تنزّلت إلى هذا العالم، وإنّ عالم الملكوت في جنب العوالم الغيبيّة ليس له قدر محسوس. فنفهّــم القلب أنّ العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحقّ، وأنّ الحقّ تعالى حاضر في جميع الأمكنة والأحياز". [معراج السالكين].

ولهــذا، كان السير في هذا العــالم مطلوباً، واستيفاء حظّنا منه مرغوباً، حتى نتمكّن من الاستعداد للانتقال إلى الأعلى منه بشرط عدم الاستغراق

فيه. فإنّ الاستغراق في أي عالم يعدّ من موانع السير والعبور إلى ما هو أعلى منه. سواء كان الاستغراق في كلياته أو جزئياته.

ولهـذا نجد طائفة أصرّت على السّفر إلى الله في عالم الأفكار دون أن تعـرف قيمة العوالم، فغرقت في عالم الكلّيـات واستغرقت حتّى أضاعت معانيها وحقائقها؛ وانقطعت رابطتها الوجودية معها، حينما جهلت تعليم الأسماء وتنكبت عن خلافة الأولياء.

وطّائفـة أخرى حُرمت من حقائقها حينمـا أصرّت على نفي معانيها الكلية وغضّت النظر عن التفكّر في فلسفة وجودها.

ففـي كل شيء من العالم الأدنى مثال من العالم الأعلى، لو تمكّنت من إدراك حقيقته الأولى لعبر بك إلى عالمه الأعلى. وإنما تحصل هذه المعرفة لمن بحث عن سرّ ارتباط الأشياء بحقائقها وأسمائها التي هي أسماء الله تعالى، وعن معنى كونه آية له سبحانه.

إن جميـع ذرات أي عالم تتصل فيما بينها ضمـن خطّة إلهيّة وتدبير ربّانيّ، فمن عرف الروابط بينها وأدرك فلسفة وجودها في هذه الخطة الإلهية استطاع أن يناديها باسمائها، فتنصاع له وتنقاد لولايته، فيتحقق سفره بها عبر آفاق عوالم الوجود.

إن عـالم الطبيعـة كان في بـدء الخلافـة وسيلة للانطـلاق في أقطار السّماوات؛ لكنّ النّاس جهلوا فلسفته وأساؤوا تسخيره، فصعب السير منه والنفوذ في أقطاره!.

وعلى سبيل المثال انظـر إلى الماء في عالم الطبيعة، تراه محور حياتها. يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا مِـنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. والحياة على الأرض هي عبارة عن جهة انتساب هذه الأرض واتصالها بالسّماء التي هي فيض الحياة. ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ

لَقادِرُونَ﴾. ولو أدركنا قيمة الماء على الأرض وأحسنّا استعماله ولم نبدّله إلى ماء أجاج بذنوبنا وأخطائنا، لانكشف لنا ماء السماء الأولى وعالمها. يقول الإمام الخميني قدس سره: "أهل المعرفة يعبّرون بالماء عن الرّحمة الإلهيّة الواسعة التي نزلت من سماء "رفيع الدرجات" لحضرة الأسماء والصّفات وأحيى بها أراضي تعيّنات الأعيان. وحيث أنّ تجلّي الرّحمة الإلهيّة في الماء الملكيّ الظاهريّ أكثر من سائر الموجودات الدنيويّة. بل ماء رحمة الحقّ تعالى إذا نزل وظهر في كلّ نشأة من نشآت الوجود، وفي كلّ مشهد من مشاهد الغيب والشهود، يطهّر ذنوب عباد الله وفقاً لتلك النّشأة وبما يناسب ذلك العالم. فبماء الرّحمة النّازل من سماء الأحديّة تطهر ذنوب غيبة تعيّنات الأعيان. وبماء الرّحمة الواسعة النّازلة من سماء الواحديّة تطهر ذنوب عدميّة الماهيّات الخارجية". [معراج السّالكين].

فانظر إلى أهل السّماء من أبناء الأرض الذين عبروها بواسطة القتل في سبيل الله، كيف رُزقوا الحياة الحقيقيّة ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وقد جعل الله نومنا آية عظيمة لهذا العبور؛ فهو تعالى يتوفّى الأنفس بقطعها عن عالم الطّبيعة. وإنّما ترى النفوس من العوالم الغيبية أثناء عبورها بقدر سعة القلوب، وإنّما تتذكّر مما رأته بعد يقظتها بحسب قوة التوجّه وضعفه. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها وَالَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وإذا تذكّرت ما رأته في منامها مجرداً ممتزجاً بالقوالب الحسية، احتاجت إلى من يعبره لها. فلم تتذكّر منه إلّا المثال الأدنى. وحُرمت من حقيقته الأولى ومثاله الأعلى.

إنّ اهتمام العارف بالكشف عن العلائق بين عوالم الوجود يرجع بالدّرجة

الأولى إلى كونهـا ممرّات عبـوره وطرق سفره. وهذه العلائق تشبه مفاتيح رمـوز أقفالها: ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً﴾. وإنَّ وجه ارتباط الأمثال في كل العـوالم هو جهة ارتباطها بحقيقتهـا المطلقة وهو الله تعالى. وهذا هو معنى الآيتية في كل شيء، وبفضل ما يؤتى العبد منها تكون له ولاية التسخير وسلطنة التصرف وقوة النفوذ.

"وأول استدعـاء وسـؤال وقـع في دار الوجود هو استدعـاء الأسماء والصفـات الإلهيّـة بلسان مناسـب لمقامها وطلب الظهـور في الحضرة الواحدية من حضرة الغيب المطلق، فأجابها بإفاضة الفيض الأقدس الأرفع والظـلّ الأبسط الأعلى في الحضرة الجمعية؛ فظهرت الأسماء والصفات. والأوّل مـن الأسمـاء هو الاسـم الجامع ربّ الإنسـان الجامع الحاكم على الأسماء والصّفات الإلهيّـة والظاهر بظهورها، ثم بتوسّطه سائر الأسماء على ترتيبها من الحيطة والشمول.

وبعد ذلـك سؤال الأعيان الثابتة وصور الأسمـاء الإلهية. والأوّل من بينها هو صـورة الاسم الجامع والعين الثابت الإنسـانيّ، ثم سائر الأعيان بتوسّطه، لأنّها من فروعه وتوابعه في الوجود وكمالات الوجود في سلسلتي النّـزول والصعود، وهو الشجـرة المباركة التي أصلهـا ثابت وفرعها في السماء والأرض. ثم استدعاء الأعيان الثابتة الممكنة وهي الأسماء الإلهية في الحضرة العلمية لظهورها في العين والشهادة فأجابها بالفيض المقدّس والظلّ المنبسط على ترتيبها بتوسّطه. ألم ينكشف على سرّ قلبك وبصيرة عقلك أنّ الموجودات بجملتها من سماوات عوالم العقول والأرواح وأراضي سكنة الأجساد والأشباح هي من حضرة الرحموت التي وسعت كلّ شيء وأضاءت بظلّها ظلمات عالم الماهيّات وأنارت ببسط نورها غواسق هياكل القابلات". [شرح دعاء السحر].

وجاء ربك

إنّ العوالم كلّها بحقيقتها (التي هي مظاهر الأسماء الإلهيّة في الحضرات) إشعاعات نور الذّات. فتكون من هذه الجهة الإلهيّة قديمة. وهذا هو معنى قدم المنّ. يقول الإمام الخميني قدس سره: "وقوله "وكل منّك قديم" أصرح شاهد على ما عليه أئمة الحكمة المتعالية وأصحاب القلوب من أهل المعرفة من قدم الفيض... وهو باعتبار كونه ظلّاً للقديم قديم بقدمه لا حكم لذاته أصلاً بل لا ذات له، وإن كان من جهة يلي الخلقي حادث بحدوثها، فالحدوث والتغيّر والزوال والدثور والهلاك من طباع الماهيّات وجبلّة الممكنات وقرية المادّة الظّالمة وشجرة الهيولى المظلمة الخبيثة، والثبات والقدم والاستقلال والتّمامية والغنى والوجوب من عالم القضاء الإلهيّ والظلّ النورانيّ الربّانيّ لا يدخل فيه تغيّر ودثور ولا زوال ولا اضمحلال، والإيمان بهذه الحقائق لا يمكن بالتسويلات الكلاميّة ولا البراهين الفلسفيّة، بل يحتاج إلى لطف قريحة، وصقالة قلب، وصفاء باطن بالرياضات والخلوات". [شرح دعاء السحر].

ولهذا، فلا حدوث ولا تحوّل ولا تصرّم ولا زمان في الصّقع الرّبوبيّ. فكلّ المتفرّقات في أوعية الزّمان والدّهر مجتمعات عند الله تعالى. وإذا نظرنا إلى العوالم من الجّهة الإلهيّة فما ثمّة إلّا المشيئة الواحدة التي خلق الأشياء بها؛ والأشياء بمجموعها تجلّي هذه المشيئة الذاتية وظهورها؛ مثلما أن الأفعال الجزئية مجتمعةً وهي الفعل المطلق عبارة عن المشيئة الفعلية المطلقة. وعليه، فإنّ الله تعالى حاضرٌ باسمه الأعظم في كلّ الأشياء. ولا يكون هذا الفيض بعيداً حتّى يجيء.

"وبالجملة، إنّ العالم قد تنوّر بجلوة جماله المقدّس الذي وهبه الحياة والعلم والقدرة. وإلا لبقيت دار التحقّق في ظلمة العدم وكمونه وبطون البطلان. بل من كان قلبه منوّراً بنور المعرفة يرى كل شيء غير نور جمال

الجميل باطلاً ولا شيء، ومعدوماً أزلاً وأبداً". [معراج السالكين].

وأمّا مجيء الرّبّ المتعال، ربّ محمّد (صلى الله عليه وآله) في قوله تعالى "وجاء ربك"، فهو عبارة عن تجلي الاسم الأعظم في عوالم الخلق وتحققها به. فإذا نظرنا إلى عوالم الوجود من هذه الجّهة التي تلي الخلق، فهي في صيرورة وتحوّل، عبر أزمنة الدهور وأيام الله، طوراً بعد طور، حتّى تصبح لائقة بمجيء التجلّي الأعظم وتربيته، هناك حين تشرق الأرض بنور ربّها ببسط العدل وإقامة القسط. "ومع أنّ مالكيّة الذّات المقدّسة لجميع الأشياء ولجميع العوالم على السّواء، مع ذلك يقول في الآية الشريفة ﴿مالك يوم الدين..﴾ وهذا الاختصاص يمكن أن يكون إمّا لأجل أنّ يوم الدّين هو يوم الجّمع، فلهذه الجّهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الأيام المتفرّقات، والمتفرّقات في النشأة الملكيّة مجتمعات في النّشأة الملكوتيّة، وإمّا لأنّ ظهور مالكيّة الحقّ وقاهريّته تعالى مجده تكون في يوم الجّمع الذي هو يوم رجوع الممكنات إلى باب الله وصعود الموجودات إلى فناء الله". [معراج السالكين].

إنّ مجيء الرّبّ والملائكة صفّاً صفّاً إلى الأرض، بإشراقتها بالنّور الذي يشق السّموات، يدلّ على أنّ التحوّل والتبدّل النّوعيّ سيتحقّق فيها بعد أن كانت مليئة بالظّلمات.

يقول الإمام: "اعلم أيّها السالك الطّالب أنّ للّه تعالى بمقتضى اسم ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ في كل آن شأناً، ولا يمكن التجلّي بجميع شؤوناته إلّا للإنسان الكامل، فإنّ كل موجود من الموجودات من عوالم العقول المجرّدة والملائكة المهيمنة والصافّات صفّاً؛ إلى النّفوس الكلّية الإلهية والملائكة المدبرة والمدبّرات أمراً وسلطان الملكوت العليا، وسائر مراتبها من الملائكة الأرضيّة، مظهر اسم خاصّ يتجلّى له ربّه بذلك

الاسم، ولـكلٍّ منها مقامٌ معلوم، منهم ركّع لا يسجدون، ومنهم سجّد لا يركعون، لا يمكن لهم التجاوز عن مقامه والتخطّي عن محلّه". [شرح دعاء السحر].

فعندما تخضع الأرض بسكّانها لوليّ الله الأعظم، وتنقاد له في رحلة الرّجوع، فإنّ كل مظاهر الأسماء ستتّجه نحو المظهر الأعظم أيضاً.

"ولعلّـك بعد التدبّر في روح الاسم، والتفكّر في حقيقته، ومطالعة دفتر سلسلة الوجود، وقراءة أسطره، ينكشف لـك بإذن اللّه وحسن توفيقه أنّ سلسلة الوجود ومراتبها، ودائرة الشهود ومدارجها ودرجاتها، كلّها أسماء إلهيّـة، فإنّ الاسم هو العلامة، وكل ما دخل في الوجود من حضرة الغيب علامـة بارئه ومظهر من مظاهر ربّه. فالحقائق الكلّيـة من أمّهات الأسماء الإلهيّة والأصناف والأفراد من الأسماء المحاطة، ولا إحصاء لأسمائه تعالى، وكلّ من الأسماء الغيبية مربوب اسم من الأسماء في مقام الإلهيّة الواحدية ومظهر من مظاهره. كما في رواية الكافي بإسناده عن أبي عبداللّه في قول اللّه تعالى: ﴿ولِلَّه الأَسْمـاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوه بِها﴾(الأعراف:180)، قال: "نحن واللّـه الأسماء الحسنى". وفي رواية أخـرى: إنّ اللّه خلق أسماء بالحروف غير متصوّت، إلى آخره. والأخبار في أنّ للّه تعالى أسماء عينيّة كثيرة. قال العارف الكامل كمال الدين عبدالرزّاق الكاشاني في تأويلاته: اسم الشيء مـا يُعرف به، فأسماء اللّه تعالى هي الصّور النّوعية التي تدلّ بخصائصها وهويّاتها علـى صفات اللّه وذاته، وبوجودها علـى وجهه، وبتعيّنها على وحدته. إذ هي ظواهره التي بها يُعرف. انتهى كلامه". [شرح دعاء السحر].

ولا يحصل هذا التحوّل إلّا بعد اتّجاه النّفوس إلى هذا المقام الأعظم بمعيّة الإنسان الكامل. ومن الجدير ملاحظة الأمور التالية:

1. ليسـت الأرضـ منفصلة عـن نفوس العباد. بل هـي عالم متّصل بالنّفوس اتّصالاً قيّوميّاً. وإنما تخيلنا الفصل بينهما لأننا تصورنا النفوس

محصورة في قوالب الأبدان المحدودة.

2. طالما أنّ النّفوس الشرّيرة حاكمة على الأرض، فستكون وجهة الأرض نحو السّفل، عكس الاتّجاه نحو مقام الاسم الأعظم.

3. عندما يحصل الفصل التامّ بين النّفوس الطيّبة والنّفوس الخبيثة، لا تبقى الأرض واحدة. فمنها ما يصبح سماء بفعل الحركة التكامليّة لأصحاب النّفوس الطيّبة. وما بقي منها يصبح أرضاً سفلى، بفعل الحركة التّسافليّة لأصحاب النّفوس الخبيثة.

4. لا يتحقّق الفصل التّام إلّا بعد أن يجمع أصحاب النّفوس الطيّبة أمرهم على متابعة مظهر الاسم الأعظم ووليّ الله في العوالم، وتتم الحجة البالغة.

5. إنّما يبدأ الاتّباع الحقيقيّ بعد إقامة القسط وامتلاء الأرض عدلاً بفضل حكومة الوليّ الأعظم، وهو التعبير الجادّ المخلص عن نيّة أصحاب النّفوس الطيّبة سلوك طريق التّكامل باتّجاه مقام الاسم الأعظم، فحينها تقام الصّلاة التي ارتضاها الله لنفسه، ثناء بالاسم الأعظم: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، يقول الإمام: "ـ أنّ نور الوجود وشمس الحقيقة مادام في السير التنزّلي والنزول من مكامن الغيب إلى عالم الشهادة، يتّجه نحو الاحتجاب والغيبة؛ وبعبارة أخرى، في كل تنزّل تعيّن وفي كل تعيّن وتقيّد حجاب؛ والإنسان حيث أنّه مجتمع التعيّنات والتقيّدات فهو محتجب بجميع الحجب السّبعة الظلمانية، والحجب السّبعة النّوريّة، التي هي الأرضون السّبع والسّماوات السّبع بحسب التأويل. ولعلّ الرّد الى أسفل سافلين أيضاً عبارة عن الاحتجاب بجميع أنواع الحجب، ويمكن أن يعبّر بالليل وليلة القدر عن هذا الاحتجاب لشمس الوجود وصرف النّور في أفق التعيّنات. ومادام

الإنسان محتجباً في تلك الحجب فهو محجوبٌ عن مشاهدة جمال الأزل ومعاينــة النّور الأوّل، وحيث أنّ جميع الموجودات في السّير الصعوديّ من المنازل السّافلة لعالم الطّبيعة بالحركات الطبيعيّة ـ التي أودعت في جبلّة ذاتها من نور جاذبة فطرة الله بحسب تقدير الفيض الأقدس في الحضرة العلميّة ـ إذا رجعت إلى الوطن الأصليّ والميعاد الحقيقيّ كما أشير إلى ذلك كثيراً في الآيات الشريفة، فإنّها تخلص مرّة أخرى من الحجب النورانيّة والظلمانيّة وتتجلّى مالكيّة الحقّ تعالى وقاهريّته، ويتجلّى الحقّ بالوحدة والقاهريّة وعند ذلك إذا رجع الآخر إلى الأوّل واتّصل الظّاهر بالباطن، وسقط حكم الظّهور، وتجلّت حكومة الباطن، فيجيء الخطــاب من حضرة المالك على الإطلاق، وليس له مخاطب سوى ذاته المقدّسة ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾. وحيث أنّه ليس ثمّة مجيب فيقول نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وهذا اليوم المطلق الذي هو يوم خروج شمس الحقيقة من حجاب أفق التعيّنات هو يوم الدين بمعنى؛ لأنّ كلّ موجود من الموجودات في ظلّ الاسم المناسب له يفنى في الحقّ؛ فإذا نُفخ في الصّور فيظهر من ذلــك الاسم ويقترن مع توابع ذلك الاسم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. والإنسان الكامل في هذا العالم بحسب السّلوك إلى الله والهجرة إليه، يخرج من هذه الحجب وتظهر وتثبت له أحكام القيامة والسّاعة ويوم الدين؛ فيظهر الحقّ على قلبه بمالكيّته في هذا المعراج الصّلاتي ويكون لسانه ترجماناً لقلبه، وظاهره لساناً لمشاهدات باطنه، وهذا أحد أسرار اختصاص المالكيّة بيوم الدين". [معراج السالكين].

إنّ الــذي يصلح العوالم ويردّها إلى أصلها ويضعها تحت تربية الاسم الأعظــم، هو الفيض المقدّس المعبّر عنــه بالرّوح والذي تكون الملائكة من شؤونه. والملائكة هم عمّاله في مقام الفاعليّة والتأثير. إنّ مجيء الملائكة يدلّ على سريان هذا الرّوح المفني للجهات السوائية، حتى تتحقق فيها مظهرية الاسم الأعظم. وعندمــا تأتي الملائكة كلّها، فهذا يعني أنّ التبدّل التام قد

تحقّق. وهناك سيستوي العرش ويستقرّ الكرسيّ. يقول الإمام: "اعلم أنّ في باب العرش وحملته اختلافات، وفي ظواهر الأخبار الشريفة أيضاً اختلافاً، وإن كان الاختلاف منفيّاً بحسب الباطن؛ فإنّ العرش في النّظر العرفانيّ والطريق البرهانيّ يطلق على معانٍ كثيرة؛ وأحد معانيه، ولم أره في لسان القوم، هو الحضرة الواحديّة التي هي مستوى الفيض الأقدس؛ وحملَته أربعة من أمّهات الأسماء وهي: الأوّل والآخر والظاهر والباطن. والمعنى الآخر، وما رأيته أيضاً في لسان القوم، الفيض المقدّس الذي هو مستوى الاسم الأعظم وحامله الرّحمن الرّحيم والرّب والمالك، ومن إطلاقاته جميع ما سوى اللـه؛ وحامله أربعة من الملائكة إسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل. والمعنى الآخر، هو جسم الكلّ، وحامله أربعة أملاك وهي صور أرباب الأنواع وقد أشير اليه في رواية الكافي. وربّما أُطلق على العلم، ولعلّ المراد من العلم، العلم الفعليّ للحقّ الذي هو عبارة عن مقام الولاية الكبرى وحملَته أربعة من الأولياء الكمّل في الأمم السّالفة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، على نبينا وآله وعليهم السلام، وأربعة من الكمّل في هذه الأمّة، الرّسول الخاتم وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام". [معراج السّالكين].

فالرّوح تعبيرٌ عن سريان التّربية الإلهيّة بالأسماء. والرّوح الأعظم تعبيرٌ عن سريان التّربية الإلهيّة بالاسم الأعظم. وهذه التربية التي تتحقّق بواسطة الملائكة تكون بالنسبة لنا متدرّجة، ولا يمكننا شهودها دفعةً واحدة.

"وبالجملة كلّ فعلٍ من الأفعال في كلّ عالم من العوالم كان من فعل اللّه بتوسّط الملائكة، بلا واسطة أو مع أعوانهم وجنودهم. قال صدر الحكماء المتألّهين وشيخ العرفاء السّالكين، رضي اللّه تعالى عنه، في "الأسفار الأربعة" ما هذه عبارته: "ولا شكّ لمن له قدمٌ راسخٌ في العلم الإلهيّ والحكمة، التي هي فوق العلوم الطبيعيّة، أنّ الموجودات كلّها من فعل اللّه بلا زمانٍ

ولا مكان، ولكن بتسخير القوى والنفوس والطبائع، وهو المحيي والمميت والرازق والهـادي والمضلّ، ولكن المباشر للإحياء ملـكٌ اسمه إسرافيل، وللإماتة ملـكٌ اسمه عزرائيل، يقبض الأرواح من الأبـدان، والأبدان من الأغذية، والأغذية من التراب؛ وللأرزاق ملك اسمه ميكائيل يعلم مقادير الأغذية ومكاييلها؛ وللهداية ملكٌ اسمه جبرائيل؛ وللإضلال دون الملائكة جوهـر شيطاني اسمه عزازيل، ولكلّ من هذه الملائكـة أعوانٌ وجنودٌ من القوى المسخّرة لأوامر اللّه، وكذا في سائر أفعال اللّه سبحانه. ولو كان هو المباشـر لكلّ فعلٍ دنيّ، لكان إيجاده للوسائط النّازلة بأمره إلى خلقه عبثاً وهباءً، تعالى اللّه أن يخلق في ملكه عبثاً أو هباءً، ﴿وذلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا﴾. انتهى كلامه." [شرح دعاء السحر].

ولّما كانت الرّحمة أقرب الأشياء إلى الاسم الله الأعظم ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾، وذلك باعتبار سعتها وشمولها لـكل الأشياء، وكون وجود الأشيـاء بالنسبة لها بمنزلة المسافر إلى غايتـه، وحيث أن الرحمة عبارة عـن إيصال المرحوم إلى غايته، وهي الإســم الأعظم، لذلك يقول الإمام: "اعلم أنّ للإنسان السّالك في الوصول إلى المقصـد الأعلى ومقام القرب الربوبّي طريقين على نحو كلّي. أحدهما ولـه مقام الأولّية والأصالـة، وهو السّير إلى الله بالتوجّه إلى مقام الرّحمة المطلقة وخصوصـاً الرحمة الرحيمية، وهي رحمة توصل كلّ موجود إلى كماله اللائق به. ومن شعب هذه الرّحمة الرّحيميّة ومظاهرها، بعث الأنبياء والرّســل صلـوات الله عليهم الذين هـم هداة السبل والآخـذون بأيدي المتخلّفـين. بل إنّ دار التحقّق في نظـر أهل المعرفة وأصحاب القلوب هي صورة الرّحمة الإلهيّة، والخلائق مستغرقون دوماً في بحار رحمة الحقّ تعالى ولا يستفيدون منها. وكما أنّ نعمة الرّحمة الرّحمانيّة بل الرحيميّة منبسطة

على جميع النشآت الإنسانيّة القلبيّة والقالبيّة، ولكلٍّ من المراتب حظٌّ من النّعم الإلهيّة الجامعة، لكلّ منها حظٌّ ونصيبٌ من ثناء الحقّ وشكر النّعمة الرّحمانية والرّحيميّة للواجب المطلق". [معراج السّالكين].

في بيان العوالم الكلّية والحضرات الإلهية الخمس*

إنّ العالم - لكونه مأخوذاً من العلامة لغةً - عبارة عمّا يُعلم به الشّيء؛ واصطلاحاً عبارة عن كل ما سوى الله تعالى، فبه يُعلم الله من حيث أسمائه وصفاته. إذ بكلّ فرد من أفراد العالم يُعلم اسمٌ من الأسماء الإلهيّة، لأنّه مظهر اسم خاصّ منها.

فبالأجناس والأنواع الحقيقيّة تُعلم الأسماء الكلّيّة، حتى إنّه ليُعلم بالحيوانات المستحقرة عند العوام (كالذّباب والبعوض وغيرها) أسماء، تكون الحيوانات والحشرات مظاهرها.

فالعقل الأوّل، لاشتماله على جميع كلّيات حقائق العالم وصورها إجمالاً، هو عالَم كلّي يُعلم به الاسم الرّحمن. والنفس الكلّية، لاشتمالها على جميع جزئيّات ما اشتمل عليه العقل الأوّل تفصيلا، هي عالَم كلّي يُعلم به الاسم الرّحيم.

والإنسان الكامل الجامع لجميعها، إجمالاً في مرتبة روحه، وتفصيلاً في مرتبة قلبه، هو عالَم كلّيّ، يُعلم به الاسم الله الجّامع للأسماء.

وإذا كان كلّ فرد من أفراد العالم علامةً لاسم إلهيّ، وكان كلّ اسم من حيث أنّه مشتمل على الذّات الجامعة لأسمائها مشتمل عليها، كان كلّ فرد من أفراد العالم (أيضاً) عالماً، يُعلم به جميع الأسماء.

فالعــوالم غير متناهية من هذا الوجه، لكن لمّا كانت الحضرات الإلهيّة الكليّة خمساً، صارت العوالم الكليّة الجامعة كذلك.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ويقال (الحضرة) باعتبار حضورها في المظاهر وحضور المظاهر لديهــا. فإنّ العوالم محاضر الربوبيّة ومظاهرها. ولهذا لا يُطلق على الــذّات من حيث هي "الحضرة"، لعدم ظهورها وحضورها في محضر من المحاضر وفي مظهر من المظاهر. وأمّا مقام الغيب الأحديّ، فله الاســم والمظهر والظهور حسب الأسماء الذاتيّة والرابطة الغيبيّة الأحديّة "الموجودة" بينها وبين الموجودات بالسرّ الوجوديّ الغيبي". (التعليقات).

ويقــول قدس سره: "... وأوّل الحضرات: حضرة الغيــب المطلق، أي حضرة أحديّة الأسماء الذاتية، وعالَمها هو السرّ الوجوديّ الذي له الرابطة الخاصّة الغيبيــة مع الحضرة الأحدية. ولا يعلم أحد كيفية هذه الرابطة المكنونة في علم غيبه. وهذا السرّ الوجوديّ أعم من السرّ الوجودي العلميّ الأسمائيّ والعينيّ الوجوديّ. وثانيها، حضرة الشهادة المطلقة، وعالمها عالم الأعيان في الحضــرة العلميّة والعينيّة. وثالثها، حضرة الغيب المضاف الأقرب الى الغيب المطلق، وهــي الوجهة الغيبيّة الأسمائيّــة، وعالمها الوجهة الغيبيّة الأعيانيّة. ورابعها، حضرة الغيب المضاف الأقرب إلى الشهادة وهي الوجهة الظاهرة الأسمائيّــة، وعالمها الوجهة الظاهرة الأعيانية. وخامسها، أحدية جمــع الأسماء الغيبية والشهادية، وعالمها الكون الجامع. وها هنا بيان آخر لترتيب الحضرات والعوالم لا مجال لذكره". (التعليقات).

وهذا الترتيب الذي ذكره الإمام الخميني هو الأوفق مع الذوق العرفاني، لأنه يرى الحضرات من زاوية مظهرية الذات وتجلّياتها على قلب العارف. ويظهــر ذلك من تعبيره بالوجهة. وانطلاقاً من المبدأ القائل بأنّ لكلّ شيء وجهة إلى الغيب ووجهة إلى ما دون، تتّضح هذه القسمة.

أمّا التقسيم الذي اعتمده الشارح القيصريّ فهو على الترتيب التالي: "وأول الحضرات الكليّة حضرة الغيب المطلق وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية. وفي مقابلها حضرة الشهادة المطلقة وعالمها عالم المُلك. وحضرة الغيب المضاف: وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب إلى الغيب المطلق، وعالمه عالم الأرواح الجبروتية والملكوتية، أعني عالم العقول والنفوس المجرّدة وإلى ما يكون أقرب إلى الشهادة، وعالمه عالم المثال. وإنّما انقسم الغيب المضاف إلى قسمين، لأن للأرواح صوراً مثالية مناسبة لعالم الشهادة المطلق، وصوراً عقلية مجرّدة مناسبة للغيب المطلق. والخامسة، الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة، وعالمها العالم الإنساني الجامع لجميع العوالم وما فيها. فعالم الملك مظهر الملكوت وهو العالم المثالي المطلق وهو مظهر عالم الجبروت أي عالم المجرّدات، وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة، وهو مظهر الأسماء الإلهية والحضرة الواحدية، وهي مظهر الحضرة الأحدية".

تبصرة: قد يعبّر عن عالم الملكوت بالملكوت السفليّ وهو عالم المثال، والعلويّ وهو عالم النفوس.

تنبيه

يجب أن تعلم أنّ هذه العوالم، كليّها وجزئيّها، كلّها كتب إلهيّة، لإحاطتها بكلماته التامّات. فالعقل الأوّل والنّفس الكلّية اللذان هما صورتا أمّ الكتاب (وهي الحضرة العلميّة) هما كتابان إلهيّان. يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم أنّ أمّ الكتاب هي حضرة الاسم الله بالتجلّي التامّ الجمعيّ في الحضرة الواحديّة. وأمّا صورة هذا الكتاب الإلهيّ الجامع فهي مقام الألوهيّة بمقامي الجّمع. أي الحضرة الرحمانيّة والرحيميّة. وكلّ من الرحمانيّة والرحيميّة كتابٌ جامعٌ إلهيّ: والأوّل أمّ الكتاب باعتبار، والثاني "الكتاب المبين". وأمّا كتاب المحو والإثبات فهو مقام الفيض المطلق بالوجهة الخلقيّة. وإن شئت

قلت، الوجهة التي تلي الحقّي أمّ الكتاب "الذي" لا يتغيّر ولا يتبدّل. والوجهة التـي تلي الخلقي هي كتاب المحو والإثبـات. وكيفية المحو والإثبات على المشرب العرفانيّ هـي إيجاد جميع الموجودات باسمه الرّحمان والباسط، وإعدامهـا باسمه المالك والقهّار. ففي كلّ آن يكون الإعدام والإيجاد على سبيل. وبهذا يظهر سرّ الحدوث الزمانيّ في جميع مراتب الوجود عند أهل المعرفة، فتدبّر".

وقد يُقال للعقـل الأوّل أمّ الكتاب لإحاطته بالأشياء إجمالاً. وللنفس الكليّـة الكتاب المبين لظهـوره فيها تفصيلاً. وكتاب المحـو والإثبات هو حضرة النفس المنطبعة في الجسم الكلّي من حيث تعلّقها بالحوادث. وهذا المحو والإثبات إنّما يقع للصّور الشخصيّة التي فيها باعتبار أحوالها اللازمة لأعيانها بحسب استعداداتها الأصلية المشروط ظهورها بالأوضاع الفلكية المعدّة لتلك الـذوات لتتلبّس بتلك الصّور مع أحوالها الفائضة عليها من الحقّ سبحانه، وبالاسم المدبّر والماحي والمثبت والفعّال لما يشاء وأمثال ذلك.

والإنســان الكامل كتابٌ جامعٌ لهذه الكتب المذكورة لأنّه نسخة العالم الكبير. قال العارف الشاعر علي بن أبي طالب القيرواني:

داؤك منك وما تشعر ودواؤك فيك ولا تبصر

وتزعم أنّك جِرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

فمـن حيث روحه وعقله كتابٌ عقليّ مسمّى بـأمّ الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفـوظ. ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات. فهي الصّحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة التي لا يمسّها ولا يدرك أسرارها ومعانيها إلا المطهّـرون من الحجب الظلمانيّـة. وما ذُكر من الكتـب إنّما هي أصول

الكتب الإلهيّة. وأمّا فروعها، فكلّ ما في الوجود من العقل والنّفس والقوى الرّوحانية والجسمانيّة وغيرها مما ينتقش فيه أحكام الموجودات (سواء كلّها أم بعضهـا، كان مجملاً أم مفصّـلا) وأقل ذلك انتقاش أحكام عينها فقط. والله العالم.

يقول الإمام الخمينـي قدّس سرّه في تعليقاته: "عند التّحقيق العرفاني، كلّها كتب جامعة مسطور فيها كلّ الأحكام الإلهيّة. كما أنّ الأسماء باعتبار، كلّها جامعـة لجميع الأسماء، وهذا الاعتبار هو جهة استهلاكها في أحديّة جمع الجّمـع. كما أشير إليه في الدعـاء. "اللهمّ إني أسألك من أسمائك بأكبرها، وكلّ أسمائـك كبيرة". فباعتبار ظهور الكثرة، للأسماء أعظم وغير أعظم، والكتب بعضها جامعة وبعضها غير جامعة. وباعتبار اضمحلالها في الجمع الأحديّ كلّها أعظم وجامع".

تنبيه آخر

لا بـدّ أن يُعـرف أنّ نسبة العقـل الأوّل إلى العالم الكبير وحقائقه هي بعينهـا نسبة الرّوح الإنسانيـة إلى البدن وقـواه. وإنّ النفس الكلّيّة قلب العالم الكبير؛ كما أنّ النفس الناطقة هي قلب الإنسان؛ لذلك يسمّى العالم بالإنسان الكبير، والإنسان بالعالم الصغير.

ولا يتوهّـم أنّ الصّور الموجودة في العقـل الأوّل إجمالا، أو في النّفس الكلّيـة تفصيلاً، هي غير حقائقها، بحيث تكون مفاضة من الحقّ سبحانه عليهما كصور منفكّة عن حقائقها!! بل الواقع أنّ إفاضة تلك الصّور عليهما عبارة عن إيجاد تلك الحقائق فيهما. وكلّ ما في الخارج من الحقائق يكون كالظّلال لتلك الصّور، إذ هي التي تظهر في الخارج بواسطة ظهورها فيهما - بل قـل إنّ الحقائق الخارجيّة هي تنزّل تلك الصّور - أوّلاً، ويحصل لهما العلم بها بعين تلك الصّور الفائضة عليهما لا بالصّورة المنتزعة من الخارج.

وتلك الحقائق عين حقيقة العقل الأول، بل هي عين كل عالم بحسب الوجود المحض، وإن كانت من حيث تعيّناتها ومعلوميّتها غيرها. لأنّا بينّا أنّ الحقائق كلّها راجعة إلى الوجود المطلق بحسب الحقيقة، فكلٌّ منها عين الآخر باعتبار الوجود، وإن كانت متغايرة باعتبار التعيّنات. كما أنّه أوّل صورة ظهرت في الخارج للحضرة الإلهيّة. وقد بينّا أنّ الحقائق الأسمائية في هذه المرتبة هي عينها من وجه، وغيرها من وجه. فيكون مظهرها كذلك أيضا.

فاتّحاد الحقائق فيه كاتّحاد بني آدم كلّهم في آدم قبل ظهورها بتعيّناتها، وإن كانت بحسب هويّاتها مختلفة عند الظهور. بل هو آدم الحقيقيّ، أي الوجود المطلق. ويؤيّده قوله ﷺ: "أوّل ما خلق الله نوري". والاختلاف بالماهيّات كالاختلاف بالهويّات. فإنّ كلاًّ منهما عبارة عمّا به الشيء يكون هو هو، والفرق بينهما أنّ الماهية مستعملة في الكلّيات، والهويّة في الجزئيّات.

فلا يقل: إنّ بني آدم متّحدون بالنّوع، والماهيّات مختلفة بذواتها، فلا يمكن اتّحادها! لأنّنا بيّنّا أنّ الماهيات وجودات خاصّة علميّة متعيّنة بتعيّنات كلّية. وكلّها متّحدة في الوجود من حيث هو هو. والتمييز العقلي بين العالم والمعلوم لا ينافي الوحدة في الوجود. فإنّ الأشعّة الحاصلة في النّهار أو في الليلة المقمرة واحدة، مع أنّ العقل يحكم بأنّ نور الشمس غير نور القمر أو نور الكواكب.

وأصل اتّحاد المعلومات بالعلم والعالم إنّما هو اتّحاد الصّفات والأسماء والأعيان بالحقّ لا غير (وبهذا التوجيه لا نحتاج إلى تطويلات الملا صدرا). وهكذا حال الصّور الحاصلة في كل عالم، سواء كانت منتزعة أم لا، فإنّها غير منفكّة عن حقائقها، لأنّها كما هي موجودة في الخارج، موجودة في العالم العقليّ والمثاليّ والذهنيّ، وحصول صورة الشيء منفكّة عن حقيقتها لا يكون علماً بها، إذ الصّورة عند أهل النّظر هي غيرها.

والإنســان لكونه نسخة العالم الكبير مشتمل على ما فيه من الحقائق كلّها، بل هو عينها من وجه كما مرّ، وما حجبه عنها إلّا النشأة العنصريّة. فبقدر زوال الاحتجاب تظهر فيه الحقائق. فحاله مع معلوماته كحالة العقل الأوّل. لأنّ العقــل الأوّل هــو حقيقة الإنسان. بل في التّحقيق يكون علمه أيضاً فعليّ من وجه (وهو وجه مرتبته)، وإن كان انفعاليّاً من وجه آخر. بل هو أشدّ اتّصافاً بالعلم الفعليّ من العقل الأوّل، لأنّه الخليفة والمتصرّف في كل العوالم.

وحقيّــة هذا الكلام، وما ذُكــر من قبل، إنّما تنجلي لمن تظهر له حقيقته الفعّالة (التي هي وساطة الفيض) وتظهر له وحدة الوجود في مراتب الشّهود وأنّ علمه تعالى عين ذاته، وأنّ الامتياز بتجلّياته المعيّنة فقط. والله العالم.

* [السيد عبّاس نور الدين، مقدّمات العرفان في تحرير مقدمات القيصري على فصوص الحكم].